

حول الحركة العربية

أحدثه

أجزاء الشامي



الناشر: المكتبة العصرية - صيدا

حول

الحركة العربية الحديثة

الجزء الثاني (١)

فرنسا والحركة العربية

تاريخ ومذكرات وتعليقات

تأليف

محمد عسرة دروزة

يحتوي هذا الجزء الكلام على فرنسا والحركة العربية
في سوريا ولبنان والمغرب العربي

(١) احتوى الجزء الأول الكلام على الفكرة العربية الحديثة وابعائها وادوارها في عهد الدولة
العثمانية والثورة العربية وأدوار العهد الفيصلي في الشام وصور متنوعة عن هذا العهد وجمعياته ونشاطه .

بسم الله الرحمن الرحيم

قدمت قبل مدة قليلة الجزء الاول من هذا الكتاب للطبع ؛ وقد وفق الله إلى تقديم الجزء الثاني هذا ؛ وارجو أن يتم توفيقه الى تقديم بقية الاجزاء .

وقد رأيت ان اذكر بما قلته في تقديم الجزء الأول وهو أن هذا الكتاب لم يكتب ليسد الفراغ في تاريخ الحركة العربية الحديثة ؛ وانما هو مزيج من احداث ومشاهدات ومذكرات وتعليقات متصلة بهذه الحركة او « حولها » . وبسبب ذلك يبدو بعض الثغرات فيه من وجهة التاريخ والوقائع وتسلسلها .

ومن تحصيل الحاصل ان نقرر بهذه المناسبة ان الواجب القومي يحتم كتابة تاريخ عربي عام واف ومحرم ثم كتابة تاريخ مفصل للحركة العربية الحديثة . وهذا وذاك يحتاجان إلى جهد ونشاط واستعداد قد لا يكون في طوق الفرد .

وأنه لحري بامانة الجامعة العربية ان تقوم بهذا العبء لأنه عمل قومي عظيم واجب التحقيق ، ولا يغني فيه ما تعلنه من مكافآت في سبيل سد بعض الثغرات فيه ؛ لانه ليس عملاً ينهض به فرد فيما نعتقد إذا اريد ان يكون وافياً ومرضياً .

وحري بالفطر السوري خاصة ان يسد هذا الفراغ بالنسبة لاقاليه وللحركة العربية التي نشأت وترعرعت فيه على الأقل ؛ ولا سيما ان بعض الكتاب في العراق ومصر قد بذلوا جهوداً لا بأس فيها في سبيل سد الفراغ بالنسبة لبلديهم . فعسى ان تنشط الحكومة السورية بواسطة احد معاهدها الرسمية ، او القادرون من ابناء الشام الى القيام بهذا الواجب القومي قبل ان يذهب كثير من معالم هذه الحقبة .

دمشق الشام ٦ ربيع الثاني ١٣٦٩ - ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٠

عزة دروزة

تمهيد

استعراض وجيز لمطامع وصلات فرنسا بالبلاد العربية
إنّ صلة فرنسا بالعرب ومطامعها ببلادهم ليست حديثة . وإذا صرفنا
النظر عن موقف شارل مارتيل في وجه الغافقي في القرن الهجري الاول الذي
كان من نتائجه معركة بواتيه الفاصلة ، وعن صلات شارلمان بالدولة العباسية في القرن
الهجري الثاني فان من الممكن ان تكون الحروب الصليبية التي نشبت في القرون
الحادي عشر الميلادي والخامس الهجري هي البداية العملية لتلك الصلة والمطامع ،
وهي الأصل الذي ما يزال يمتدّ اليه ما دار ويدور في خلد فرنسا من مزاعم ومطامع
وتقاليد نحو بلاد العرب . فقد كان الافرنسيون هم الكتلة الكبيرة البارزة في حملات
هذه الحروب الأولى التي نتج عنها قيام المملكة اللاتينية التي شملت فلسطين واماكن
عديدة اخرى في ساحل البلاد الشامية الاخرى وداخلها ؛ وكان ملك هذه المملكة
الرئيسي افرنسياً كما كان اكثر امراء الامارات اللاتينية التي قامت في المدن والثغور
الشامية الاخرى افرنسيين . ومع ان حكم المملكة اللاتينية الافرنسية قد انتهى في
فلسطين نتيجة لوقعة حطين الفاصلة في القرن الهجري السادس وبعد ان استمر نحو
سبعين سنة فات الامارات اللاتينية الافرنسية ظلت مدة اخرى قائمة ؛ بل ومنها
ما ظل قائماً نحو قرن ونصف او اكثر . وفي هذه السنين الطويلة توثقت الصلات
بين الافرنسيين ونصارى الشام وخاصة الكاثوليك والموارنة الذين تجمع بينهم
الكنيسة ؛ كما ان كثيراً من افراد الحملات الصليبية الافرنسيين استقروا في بلاد
الشام وتوطنوا ، وكانوا نواة اخرى تمد تلك المزاعم والمطامع والتقاليد .
وتعبير الافرنج او الفرنجة الذي كان يطلقه كتاب العرب على الاوروبيين إنما
هو محرف عن الافرنسي وفرنسا . وفي هذا ما فيه من الدلالة على ان الافرنسيين
كانوا اقوى الكتل الأوروبية التي اتصلت بالعرب وبلادهم واكثرها باقها أثراً .
وفي القرن السابع الهجري كان لويس التاسع والمسمى بالقديس يطرق ابواب
مصر على رأس حملة صليبية جديدة انتهت بهزيمة منكرة وبأسر الملك نفسه في واقعة
المنصورة . وطبعي ان هذه الحملة استمرار في ما كان يدور في خلد الافرنسيين من
مطامع ومزاعم نحو البلاد العربية .

وفي اواسط القرن السادس عشر الميلادي نالت فرنسا من سلاطين الدولة العثمانية منحاً ملاحية وتجارية جعلت لها حق التفوق والرجحان في موانئ الشرق العربي العثماني على جميع الاجانب ، حتى انه لم يكن لاي سفينة اجنبية ان تزور احدى هذه الموانئ إلا تحت الراية الافرنسية . وسارع كثير من تجار مرسيليا وغيرها الى اقامة المحلات والوكالات التجارية في حلب واسكندرون وطرابلس الشام وبافا وعكا وحيفا ومصر والتوطن فيها والاستمتاع بفوائد هذه المنح ؛ ثم اخذت البعثات الثقافية والدينية الافرنسية تأتي إلى البلاد العربية فتنتشئ في ظل هذه المنح المعاهد العلمية والدينية وتبث الدعاية لفرنسا، وتعيد ما انقطع من الصلات بينها وبين اهلها وخاصة نصاراها، حتى غدت هذه المنح في ادوار ضعف الدولة العثمانية امتيازات وحقوقاً ملزمة تسبغ على منشآت فرنسا ومصالح رعاياها حصانة وتمنحها حرية واسعة ، وحتى غدت فرنسا تسمي نفسها بقوتها حامية نصارى الشرق وخاصة الطوائف الكاثوليكية وتسعى جهدها في توطيد هذه الصفة لها لدى الدول الاوروبية الاخرى .

- ٢ -

ولقد كانت هذه المزاعم والتقاليد والمحاولات والمنح والامتيازات مما جعل فرنسا الحديثة تفكر في ان مصر وسوريا هي حصتها الطبيعية من تركة الدولة العثمانية التي كان يفكر في تقسيمها بعد الحرب الروسية العثمانية (١٧٦٨ - ١٧٧١) ، التي خرجت منها الدولة منهوكة القوى وبدت في دور مشابه لدور الانزع ، حتى لقد فكرت حكومتها في اخذ هذه الحصة بالقوة وعهدت الى البارون دونوت عام ١٧٧٤ بالقيام برحلة ظاهرها التفتيش على القنصليات الافرنسية في الشرق العربي وباطنها درس وسائل امكانيات فتح مصر او النزول الى سواحل سوريا والاستقرار فيها ؛ وقد عاد هذا ففهم مخططاً مفصلاً لمرافأ بيروت واكد امكان نجاح غزوة عسكرية على الاسكندرية ؛ ولكن ظروفاً دولية اخرى اعاقت فرنسا عن هذه الخطوة .

وفي آخر القرن الثامن عشر اي في عام ١٧٩٨ خطت فرنسا خطوة عملية بسبيل ذلك فكانت غزوة نابليون الى مصر التي استهدفت هدفين : الاول اقامة الامبراطورية

الافرنسية العربية والثاني طرد الانكليز من جميع اماكنهم في الشرق وتدمير مراكزهم التجارية في البحر الأحمر وجعل هذا البحر تحت حكم وسيطرة الجمهورية الافرنسية حصراً كما نص عليه امر حكومة الديركتوار . وقد سار نابليون في تصرفاته في هذا النطاق ، واخذ يعد العدة لاتخاذ مصر وبلاد الشام قاعدة لتحطيم الامبراطورية البريطانية في الهند واستغلال امكانيات البلاد العربية في التجنيد والتموين والنقل بسبيل ذلك ، كما غدت فكرة الاستقرار في مصر بعد ذلك واتخاذها مستعمرة افرنسية اساساً لتصرفاته فيها . وكان الامر كذلك لدى الجنرال كليبر الذي خلفه في قيادة الحملة حينما غادر مصر قافلاً الى فرنسا في السنة التالية بل ولدى قواد الحملة ورجالها البارزين جميعاً على ما استفاد من مدونات الحملة ومذكرات القواد والمشاريع الافرنسية المتنوعة التي انشئت او حول انشاؤها .

وقد اخفقت الحملة في النهاية . فقد تعقب الاسطول الانكليزي اسطول الحملة حتى ادركه في ميناء بوقير قرب الاسكندرية وحطمه تقريباً فانقطع حبل الصلة والمدد بينها وبين فرنسا ؛ وحرص الانكليز الدولة العثمانية وتحالفوا معها على الحملة ونتج عن ذلك حملات وحروب متتابة كان من احداثها غزو نابليون لفلسطين واستيلاؤه على بعض اجزائها ثم ارتداده خائباً امام قلعة عكا ، كما كان من احداثها قدوم الجيوش العثمانية والجيوش الانكليزية المتحالفة الى ارض مصر ونشوب الحرب بينها وبين الحملة ؛ وعظم على المصريين من ناحية اخرى ان يحكمهم اجانب عنهم في الدين واللغة والجنس ، ولا سيما انهم وقفوا من دولة الخلافة العثمانية موقف العدو المحارب ، وارهقهم الى هذا بالضرائب والتكاليف ، فقامت في مصر حركات ثورية متتابة في مختلف الانحاء ، وقابلها الافرنسيون بشديد القمع والتنكيل والتدمير والقصف وهتك الحرمات والمقدسات وباهظ الغرامات على ما تكرر منهم في بلاد المغرب والشام بعد ذلك وغدا طابعاً لهم ؛ فاتسعت الهوة واشتد العداء بين الحملة والمصريين ؛ وقتل احد الفدائيين السوريين وهو سليمان الحلبي الازهري كليبر ففقدت قائدها الصارم ؛ وكانت وقائع الحرب مع الجيوش العثمانية والانكليزية في فلسطين ومصر واحداث الثورات المتتابة في مصر قد انقصت قوى الحملة وانهكتها كثيراً ، واشتد تضيق الجيوش الانكليزية والعثمانية عليها أخيراً حتى تمكنت من إجلائها

عن كثير من المدن والقلاع والمواقع الحصينة ؛ فلم يجد قوادها مناصاً من نفذ
أيديهم من مصر والرضاء بالجلاء النهائي عنها بعد ان استقروا فيها نيفاً وثلاثة اعوام .
على ان الظروف عادت فخدمت الافرنسيين بعض الشيء في تحقيق بعض
اهدافهم . فقد تحسنت الصلات بين فرنسا والدولة العثمانية بعد قليل من جلاء الحملة
الافرنسية فاستغلوا الموقف في عرقلة مصالح الانكليز ؛ وغضب هؤلاء حتى جاهدوا
الدولة العثمانية بالعداء ، ورأوا في موقفها حجة تذرعوها في احتلال مصر بعد ان
اجلوا عنها الافرنسيين عام ١٨٠١ ؛ فجاؤوا سنة ١٨٠٧ واحتلوا الاسكندرية
ورشيد ، وكان ذلك في اوائل ولاية محمد علي الكبير ؛ فقاومهم هذا مقاومة شديدة
وهزمهم وساعدته الظروف على ردهم خائبين ؛ فتوطد العداء بينهم وبينه ، واغتم
الافرنسيون الفرصة فوطدوا صلاتهم به واخذوا يعاونونه في نهضته واقاموا في ظل
ذلك المنشآت الثقافية والتجارية ونالوا خاصة امتياز قناة السويس الذي بدا أنه
اقوى ضربة افرنسية ضد انكلترة ومواصلاتها وامبراطوريتها الهندية ، وكان من
اسباب اشتداد التنافس بين الدولتين في مجال الدولة العثمانية .

وفي اثناء ذلك قوي اتجاه فرنسا نحو المغرب العربي الذي رآته اسهل منالاً
واقل مجالاً للتنافس لتقيم فيه الامبراطورية العربية الافرنسية التي اخفقت في اقامتها
في المشرق ؛ فخطت خطواتها الباغية عام ١٨٣٠ نحو الجزائر وعام ١٨٨٢ نحو تونس
وعام ١٩١٢ نحو مراكش ، مع عدم إغفالها تحيين الفرص لتوطيد مركزها وتغذية
مطامعها في هذا المشرق ايضاً ، وكان من مظاهر ذلك التوسع في المنشآت الثقافية
والدينية وبث الدعاية بين النصارى والسعي في سبيل نيل الامتيازات الاقتصادية
من مد سكك حديدية وانشاء موانئ ومصارف وغيرها . . .

ولقد نشبت خلافات طائفية في جبل لبنان ادت الى فتن اهلية دامية بين
الدروز والموارنة واشتدت واتسعت خاصة في سنة ١٨٦٠ فسارعت فرنسا التي
ثبت في محاضر التحقيق والمدونات العيانية ان لعملائها وقناصلها يداً في اثارها الى
انتهاز الفرصة حيث دعت الى مؤتمر اوروي وحيث اخذت على عاتقها ارسال حملة
عسكرية الى بلاد الشام بالنيابة عن الدول الممثلة في المؤتمر لاتخاذ التدابير الوافية
لحماية النصارى وتوطيد الامن املاً بأن تكون الفرصة فرصة لتوطيد قدمها وتحقيق

هدفها. وقد أحبط التنافس الشديد بينها وبين انكلترة فرصتها، ولكن الحركة انتجت قيام نظام استقلالي اداري في لبنان، وقوت الصلات والرغبات والعواطف بين فرنسا ونصارى سوريا ولبنان وموارنتهم خاصة.

ولقد كان احتلال انكلترة لمصر عام ١٨٨٢ معكراً لمطامعها واهدافها وآمالها في مصر وبلاد الشام وعاملاً مقوياً للتنافس بين الدولتين حول الشرق العربي، ولا سيما انها كانت تعتبر هذه البلاد حصتها الطبيعية! وظل التجاذب بين الدولتين مستمراً لم يهدأ نوعاً ما إلا بعد اتفاق عام ١٩٠٤ الذي كان على حساب البلاد العربية مشرقها ومغربها، فقد كانت فرنسا قد سارت في سبيل تحقيق اطماعها في المغرب اشواطاً كبيرة في الجزائر وتونس وبقي عليها قفزة مراكش، وكانت الظروف الدولية غير مواتية كثيراً، فاضطرت الى التخلي عن مطامعها ومزاعمها في مصر ووافقت على اطلاق يد انكلترة فيها مقابل اطلاق هذه يدها في المغرب الاقصى «مراكش». وقد عرف ذلك الاتفاق باسم اتفاق «الجنتمان» الذي احرى به ان يسمى اتفاق اللصوص...

وقبيل الحرب العالمية الاولى تجدد الكلام حول تصفية الدولة العثمانية او تقسيمها الى مناطق نفوذ. ونتيجة لذلك عقد بين فرنسا وانكلترة اتفاق «لصوص» آخر عام ١٩١٢ اشار اليه بوانكاره وزير الخارجية الفرنسية في مجلس الشيوخ قائلاً: ان لنا في سوريا ولبنان مصالح تقليدية نريد ان نجعلها محترمة، وبسري في استطيع ان اضيف الى ذلك ان الظن بوجود خلاف على هذا الامر بيننا وبين الحكومة الانكليزية لا سبب له، فقد صرحت لنا الحكومة المذكورة بمنتهى الود انه ليس لها في تلك الاقطار غرض في عمل ولا مقاصد تنويها ولا امان في سياسية ترغب فيها من اي نوع كان...

ولعل اللجنة التحضيرية لمؤتمر باريس العربي قد عنت هذا الاتفاق وقد ثارت مخاوفها من هذا التصريح وما كان يدور في نطاقه من احاديث تدل على ما تتيته فرنسا من مقاصد واطماع حينما ذكرت في بيانها ما ذكرت عن ما يبيت للبلاد العربية وخاصة لزهرة الوطن العربي سوريا من مقاصد ونوايا لمحوها في احاديث السياسة ومغامراتها على ما نقلناه في الجزء الاول.

وقد كانت الحرب العالمية الاولى ونتائجها الفرصة السانحة لفرنسا لتخطو نحو تحقيق اهدافها كاملة في سوريا ولبنان فاعتنمتها بدون مبالاة بما كان في ذلك من نكث وبغي بغية ضم الجناح الشرقي العربي في -عوض البحر الأبيض الى الجناح المغربي العربي في هذا الحوض وتوطيد الامبراطورية الافرنسية العربية الكبرى التي ظلت تحلم بها وتجد في سبيلها امداً طويلاً .

- ٣ -

وإذا كانت بعض مزاعم فرنسا ومحاولاتها بسبيلها مما اشرنا اليه في هذا الاستعراض، الوجيز لم يصطبغ بصبغة المناوأة للحركة العربية الحديثة على اعتبار سبقه لانبعاث هذه الحركة بصورة عملية وجدية فان استمرار تلك المزاعم والمحاولات بعد انبعاث هذه الحركة عام ١٩٠٨ : قد طبع هذه المزاعم والمحاولات بتلك الصبغة بطبيعة الحال . عني ان فرنسا لم تقصر في هذه المناوأة عملياً وصراحة ايضاً في اثناء الحرب العالمية الاولى بالرغم مما تعرفه من آمال العرب وما تحملوه من عسف واضطهاد وبذلوله من جهود وتضحيات ؛ وما كان من مشاركتهم الفعلية في الحرب ، وبالرغم مما بدا منها من تشجيع ادبي للحركة المذكورة قبيل الحرب وفي سياق انعقاد المؤتمر العربي في باريس سنة ١٩١٢ ، وبالرغم كذلك مما كان رجال الحكم فيها يصدرونه من تصريحات رسمية منفردة حيناً ومشتركة مع بريطانيا واميركا حيناً آخر في صدد توكيد نزاهة القصد الذي يحارب الحلفاء من اجله ، وعزمهم على تحرير الامم المستضعفة من الامم المتسلطة عليها وجعل الحق لها في تقرير مصيرها وإبطال حق القوة في فرض الارادة والاملاء والتحكم والاستغلال الاستعماري ؛ مما ظهر انه لم يكن الا كذباً وتضليلاً وانه كان يخفي وراءه المظامع والمقاصد المريبة ؛ ثم بالرغم مما كان وظن كتاب فرنسا وشعراؤها وادباؤها يتبجحون به من امومة فرنسا للحرية ومبادئ الثورة الافرنسية وما كان لها من اثر في تحرير الانسانية ، وما بذلته فرنسا من جهود في خدمة هذه المبادئ والدفع بها مما اندمج في اسطوريته كثير من شباب العرب المثقفين بالثقافة الافرنسية ، ونقول اسطوريته لأن التاريخ لم يسجل لفرنسا منذ ان اعلنت ثورتها الكبرى موقفاً فيه دفاع صادق ومخلص عن حرية امة مضطهدة وحقوقها ،

ولأن كل ما سجله لها هو عكس ذلك على خط مستقيم وبدون اي استثناء ؛ سواء في ماتبع الثورة من مغامرات نابليون وحروبه وبسط سيطرته على قسم من الشرق العربي وعلى اوروبا ، او ما كان من فرنسا بعد ذلك من غزوات باغية ومواقف ظالمة في المغرب العربي هدفت الى محو كيان اهله وتبديل وجهه واستنزاف ثروته ودمه وطمس كل مظهر من مظاهر حريته وقوميته وطابعه ، وسواء في ما كان من تصرفاتها الاستعمارية الباغية في البلاد الاسيوية والافريقية الاخرى التي نكبت بها .

فمنذ اخذت بريطانيا تتبادل الرسائل مع الملك حسين في صدد انحياز العرب الى جانب الحلفاء وفي صدد تحقيق الاهداف العربية القومية وشموها بدأ تجههم فرنسا لما تحتويه رسائل الحسين من مطالب قومية في بلاد الشام ، وبدأت اطاعها ومزاعمها التقليدية التي لم تكن لتفوت احداً من اصحاب النظر تبدو قوية صريحة ، وتغدو عقبات مزعجة في سبيل التوافق والتطابق . وبما لا ريب فيه أن ما كانت من مراجعات الانكليز وتحفظاتهم في الرسائل بشأن سوريا وسواحلها وأهلها انما كانت بتأثير فرنسا ومساعدتها . وقد أدرك الحسين هذا ومداه في مستقبل البلاد العربية والحركة العربية إدراكاً ظهر أثره في ما كان منه من ملاحظات وتحذيرات نقلنا شيئاً من عباراته فيها في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ولقد بدأت هذه المساعي بين فرنسا وروسيا وبريطانيا في سنة ١٩١٥ استعجالاً للتفاهم على تقسيم الاسلاب واستمرت بينما كان مكماهون والحسين يتبادلان الرسائل وانتهى باعتراف الدول المذكورة لبعضها بما تبغي من اسلاب فكان لفرنسا جميع سوريا عدا مينائي عكا وحيفا اللتين تركتا لانكليترا مع القسم الجنوبي من العراق الذي يدخل فيه بغداد؛ مقابل اعتراف الدولتين لروسيا بما تريده من مضائق البسفور والدرديل والانحاء التركية الاخرى . وقد دخل القسم الشمالي من العراق أي ولاية الموصل في نصيب فرنسا . ولم يكذب يحف مداد تلك الرسائل حتى عقدت معاهدة سايكس بيكو الافرنسية الانكليزية بالحاح من فرنسا حتى لاتكون تلك الرسائل التي احتوت عهود بريطانيا للعرب في الاعتراف باستقلالهم عثرة فيما بعد في سبيل مطامعها ومدعياتها؛ حيث احتوت هذه المعاهدة تقطيع اوصال العراق والشام ووضع أقسام منها تحت حكم وإدارة فرنسا وانكليترا مباشرة وقيام دولة عربية او حلف دول

عزبية في أقسام منها على ان تكون اجزاء معينة من هذه الدول تحت نفوذ وحماية بريطانيا وأجزاء معينة أخرى تحت نفوذ وحماية فرنسا؛ وحيث جعلت إدارة فلسطين دولية باستثناء عكا وحيفا اللتين جعلتا تحت الحكم الانكليزي المباشر، فكانت ابشع مؤامرة غادرة مزق فيها وطن واحد وامة واحدة شرمزق ، وجعلنا فضلا عن ذلك مادة جذب ودفع وتشاد في ما كان من تنوع النفوذ والسيطرة في القسم الواحد بما فيه انكي ما يمكن ان يبيت من سوء قصد وكيد لحياة هذه الامة والوطن ، كل هذا في حين تعهدت بريطانيا في هذه الاثناء بالاعتراف باستقلال العرب في كل مكان لها فيه حرية العمل .

الاستمرار في المناوأة عقب انتهاء الحرب في الداهل والساهل

ثم لم تكد الحرب تنتهي في بلاد الشام ويدخل فيصل دمشق على رأس كتائب الثورة العربية التي ساعدت جيوش الحلفاء مساعدات قيمة اعترف فيها غير واحد من قواد الحلفاء ورجالهم حتى اخذت السلطات الافرنسية تقف موقف المناوئـة للاهداف القومية العربية ظاهراً وخفياً ورسمياً وغير رسمي ، وفي المنطقة الساحلية التي احتلتها فصائلها بعد طي العلم العربي عنها وكان ذلك من آلم مظاهر هذه المواقف وانكاسها - وفي المنطقة الداخلية التي قامت فيها الحكومة العربية الفيصلية على السواء ؛ حيث كانت تبث الدعاية التخويفية والتهويلية في الساحل وبين النصاري خاصة من العرب والمسلمين والشرفاء والفكرة العربية ونتائجها وتصور العرب ويفصل بصورة الغرباء الدخلاء ، وتتعقب كل حركة استجابة من المسلمين والنصاري على السواء للفكرة العربية ودعوتها ، وحيث كانت تجري المرتبات الضخمة على انصارها ومواليها وفي سبيل كسب الانصار والموالين وخاصة على الصحافة اللبنانية المسيحية ، وتؤسس صلات بينها وبين بعض الوجهاء وغير الوجهاء من مسلمين وغير مسلمين في الداخل هادفة الى توجيههم في اتجاه معاكس للاتجاه القومي ووقوفهم موقف المشبط تارة والمتذمر تارة والمثير للنعرات الاقليمية والدينية تارة بما كانت آثاره تظهر من آن لآخر وتؤدي الى مشاكل وارتباكات مزعجة للعهد الفيصلي

ورجاله . وقد امتدت اليد الافرنسية فيما امتدت اليه في هذا العهد الى دروز حوران بواسطة بعض المأجورين من دروز لبنان بقصد البلبلة والتشويش واثارة روح الطائفية والتذمر والتمرد مما ظهر آثاره بما كان من غمدو ورواح بين جبل الدروز وبيروت ، وبما كان يعود به الراحون من المال والحلج المغربية والشوانع والنفثات المشوشة المسومة حتى جاء وقت اخذ هذا يصبح كالسيل إذا صح التعبير حيث صار الغادون الراحون يذهبون قوافل وجماعات دون ماتستر وتكتم كما كان الامر حين بدئه . وقد حاول بعض رجال العهد مع عقلاء الدروز ومخلصهم الوقوف في وجه هذه الحركة المزرية فلما اشتدت رؤي الافضل تركها حتى يسأماها الافرنسيون انفسهم وقد كان .

- ٤ -

فهذا الجزء من كتابنا سيحتوي صوراً لما كان من فرنسا ضد الحركة العربية والشعب العربي في المشرق والمغرب من مواقف وادوار ؛ وسيكون الكلام فيه على سوريا اولاً ثم لبنان ثم المغرب العربي . وتقديم الكلام على سوريا ولبنان مع ان نكبة المغرب العربي بفرنسا قد سبقت نكبتها بما هو بسبب اتصال ذلك بالحركة العربية الحديثة التي كانت سوريا ولبنان مسرحاً مباشراً لها من جهة وبقصد الاتساق من جهة ثانية مع تسلسل الحديث الذي انتهى في الجزء الاول بانتيار العهد الفيصلي الذي كان في الحقيقة اثرأ من آثار تلك المواقف والأدوار .

على ان هذا التقديم لا يتناقض مع الترتيب الزمني ايضاً اذا ماذكرنا ان مطامع ومزاعم ومحاولات فرنسا قد كانت بالنسبة لسوريا ولبنان سابقة على ما هو واضح من الاحداث والادوار التي استعرضناها آنفاً .

الباب الاول

فرنسا وسوريا

الفصل الأول

العهد الاقتصادي الاول

١٩٢٠ - ١٩٣٦

- ١ -

لما تم لفرنسا احتلال سوريا الداخلية وهدم العهد الفيصلي فيها على ما ذكرناه في الجزء الاول قررت مضاعفة جهودها بدون تريث في محاربة الفكرة العربية والحركة بسبيلها . واتخاذ شعلة تلك وتعطيل هذه وشلها ولو بقوة الحديد والنار لانها لم تكن تجهل ان عهد فيصل ليس إلا مظهرآ للفكرة ، وان سوريا وخاصة دمشق كانت من اهم المراكز التي نشأت وترعرعت فيها هذه الفكرة وقامت فيها الحركة بسبيلها، كما لم تكن تجهل ان عهد فيصل قد وسع انتشارهما وقوامهما حتى صارت دمشق تغلي بها في كل مناسبة وفرصة ، ولا سيما ان سوريا قد تمتعت بالكرامة والعزة القومية بكل معانيها في هذا العهد ، ولم تكن تجهل كذلك ان اتحاد الشعلة وتعطيل الحركة لا بد منها لتحقيق مطامعها الاستعمارية في القطر السوري بشطريه الساحل والداخل بما املته عليها تجاربها الباغية في المغرب العربي .

ومن اول ما فعلته انشاء محكمة عسكرية في دمشق استمرت قائمة الى آخر ايامها في سوريا ومحكمة عدد كبير من رجال الحركة السوريين والفلسطينيين واللبنانيين الذين غادروا دمشق غيابياً والحكم عليهم باحكام الاعدام والحبس الطويل متوخية بذلك نشر الارهاب في جو سوريا اولاً وسد باب الرجوع ثانياً امام من تعرف فيهم قوة العقيدة القومية والنشاط والنضال . اما الذين بقوا في سوريا من الذين يمتوث الى عهد فيصل وروحه ولم يكونوا بارزين بروز اولئك فقد اصلت فوق رؤوسهم السيف ووقفت لهم بالمرصاد تحصي عليهم الانفاس وتسارع الى اتحاد كل نشاط وحركة منهم بالتشريد والنفي والمحاکمات العسكرية في خطير المناسبات وتافها .

وكذلك كان من اول ما فعلته إعلان حل الجيش العربي ووضع اليد على مخازن السلاح وجمعه باقى الوسائل من ايدي المسرحين والمتطوعين والاهلين عامة، ونقل غير قليل من كهواء ضباط الجيش المنحل الى جزيرة ارواد معتقلين تحت رقابة صارمة وفرض غرامة حربية مقدارها مئتا الف جنيه ذهبية وجبايتها بالحديد والنار. ولقد جهزت سبع حملات عسكرية على جبال اللاذقية وحملتين على جبل عامل وحملة على منطقة حصن الاكراد واخرى على حوران، وحملات عديدة على المنطقة الواقعة بين اسكندرونه غرباً وحماه شرقاً وجسر الشغور شمالاً فهاجمت هذه الحملات القرى، واحرقت ودمرت منها اكثر من ثلاثمائة، وصادرت ما وجدته فيها من اموال واعلاق وباعته علناً واعتقلت عدداً كبيراً من سكانها حتى لقد شمل الاعتقال عدداً غير يسير من النساء بحجة ابواء الثوار واعدمت عدداً كبيراً من المعتقلين.

البعثة الانتدابية

وقد ابقت الحكم سورياً بيد حكومة علاء الدين الدروبي التي كانت مؤلفة من المعتدلين والمستسلمين، وسارعت في ذات الوقت الى انشاء بعثة انتدابية في دمشق باشراف مندوب المفوض السامي جعلتها ناطمة لجميع السلطات والاعمال الحكومية والتشريعية والادارية والاقتصادية والأمنية وانشأت هيئة مصغرة لهذه البعثة في حلب باشراف معاون مندوب المفوض، وهيئات مصغرة اخرى باشراف معاونين في مركز المحافظات. واقامت بالاضافة الى ذلك مستشاراً الى جانب كل وزير وكل محافظ وكل قائم مقام مع ما يحتاج اليه من مساعدين وتراجمة جعلت اليهم الامر والتوجيه والحل والعقد.

ولقد لفت هذا الاسراف في الوظائف وتعقيداتها نظر موسيو جو نار احد رجال مجلس الشيوخ فوصفه وصفاً نهكياً لاذعاً امام مجلسه في جلسة ٦ نيسان ١٩٢١ حيث قال :

« عندما يصل المسافر يشمر ان في المفوضية الافرنسية مصالح عديدة مهمة وحاملاً يدخل السراي يخيل اليه انه منتقل الى اعظم وزارات باريس بعدد موظفيها والى

جانب معاون المندوب السامي مستشارون يوازي عددهم عدد الوزراء ومعاونيه في فرنسا . ويريد كل مستشار أن يكون له مكتب خاص . وحيثما التفت ترى معاوني مستشارين ومستشارين متدربين وموظفين وكوائب - وما أكثر الكوائب - وتري الى جانب هؤلاء اركان حرب الجنرال غورو وغرفته السياسية ومصلحة الاستعلامات وبالاختصار موظفين كثيرين يخططهم العدد . ففي المفوضية اذن عدد يزيد كثيراً على ما ينبغي ولا تكاد تجد رابطة في ما بينهم ويكاد كل منهم يجهل الآخر ويتصرف منفرداً بنفسه . واذا نظرت الى شكل الادارة في الحكومات الاربع التي احدثت اخيراً وهي لبنان الكبير ودمشق وحلب والعلوين رأيت المستشارين مرة اخرى حول كل حاكم من حكام هذه الاقطار وفي كل منها حكام فرنسيون ماعدا دمشق وتري مستشارين الى جانب الرئيس في كل متصرفية واطن ان في جانب هؤلاء المستشارين مستشارين مساعدين ايضاً

سلطانة المفوض السامي

اما المفوض السامي فقد كان بمثابة الملك بما كان يحيط به نفسه من مظاهر الابهة والسلطان ، واصبح مصدر السلطات ورئيسها جميعاً ، يسير في نظام فردي ديكتاتوري لايبالي بما يصنع ولا يرى انه مسؤول عنه امام احد ، ويمنح نفسه ماشاء من صلاحيات تشريعية واجرائية وقضائية ، ويصدر ما يشاء من قوانين ولوائح ، ويلقي بجمرة قلم ما لا يروقه من انظمة وقوانين موجودة (١) .

وقد ابعد كل صالح سليم العاطفة عن الوظائف وخاصة عن الرئيسية منها وقصرت هذه على المائعين والمستسلمين والمتآمرين الذين كانوا على صلة ما بالفرنسيين ووكلائهم . ومثل هذا فعل في الشرطة والدرك وكتائب الجيش المحلي التي انشئت بعد قليل بحيث كانت هذه القوى وسائل طيعة لتنفيذ كل ما ترسمه السلطات الفرنسية

(١) انتفخت هذه التصرفات والصلاحيات السلطانية الواسعة الى ان اصبح المفوض السامي يلقي دولة ودستوراً وجلساً لياًبياً ويعتقل رئيس جمهورية ورئيس وزراء ويعزلهم وينشئ دولة ودستوراً وجلساً لياًبياً ويعين رئيس جمهورية ورئيس وزراء بجمرة قلم ايضاً كما فعل في سني ٩٣٠ و ٩٤٣ في سوريا ولبنان .

من خطط ، والتفنن في التزلف الى هذه السلطات بما يتسوق مع ما تبيته من مقاصد مع الاحتفاظ بقيادتها العليا والثانوية للاضباط الافرنسيين .

المصالح المشتركة

ثم سلخت عن الحكومة السورية مصالح كثيرة جداً وانشأت لها ادارة خاصة سميتها المصالح المشتركة وجعلتها مرتبطة مباشرة بالمفوضية العليا وتدار بواسطة رؤساء وموظفين افرنسيين مع مساعدين من اللبنانيين في الدرجة الأولى والسوريين في الدرجة الثانية من تلك الطبقة التي ذكرناها آنفاً متذرة الى ذلك باشتراك هذه المصالح بين سوريا ولبنان ؛ فكانت هذه الادارة حكومة داخل حكومة ، مع الامتياز الكبير لها دون مصالح الحكومة السورية العادية . وقد كانت تشمل الجمارك والبرق والبريد والهاتف والسكك الحديدية والموانئ والمطارات والمنائر والمهاجر ومراقبة الشركات والامتيازات والاحتكارات والملكية الفنية والتجارية والصناعية والأمن العام والجوازات وكتائب الجيش المحلي وشؤون العشائر الخ . .

وكانت ايرادات هذه المصالح تفي من قبل ادارتها الافرنسية وتجعل لها ميزانية خاصة ينفق منها على المفوضية السامية وملحقاتها وعلى الجيوش المحلية بالاضافة الى مرتبات موظفي هذه المصالح ونفقاتها وكانت تدفع احياناً ضعفاً ونصفاً من مرتبات ونفقات الحكومة السورية بمرمتها .

الموظفون الافرنسيون

وعين بالاضافة الى كل هذا عدد عديد من الافرنسيين في المصالح الحكومية السورية وخاصة ما يسمى بالمصالح الفنية كالمعارف والكاداسترو والري والاشغال والتجارة والصناعة ؛ كثير منهم لا مؤهلات لهم إلا فرنسيتهم ، ونظايرهم بالنفخة الكاذبة والشعوذة المكشوفة ، وكان في مرؤوسيتهم من يفوقونهم كفاءة وعلو شهادة .

المصرف السوري اللبناني وعملة الورقة

وكان من اول الاعمال التي بادرت اليها السلطات الافرنسية انشاء فرع للمصرف السوري اللبناني الذي كان انشئ في لبنان في العهد الفيصلي ومنح امتياز اصدار العملة الورقية ، واصدار تشريع بتداول هذه العملة في سوريا . وجلّ رأس مال هذا المصرف افرنسي كان في بدئه عشرة ملايين فرنك ثم رفع الى عشرين مليوناً ومنح الامتياز مقابل سندات الدفاع الوطني على الخزينة الافرنسية . وقد اشترى في البدء سندات بقيمة خمسة وعشرين مليون ليرة سورية اصدر مقابلها بنفس القيمة عملة ورقية . ولم يكن لتلك السندات قيمة وثيقة كما انه لم يكن من الضمانة الذهبية لهذه العملة إلا قدر زهيد جداً ؛ فعدت هذه العملة نافذة في سوريا ولبنان تؤخذ بها سلعها وذهبها أخذاً هو بالسلب اشبه . ولقد خلف المصرف السوري اللبناني المصرف العثماني ، وكان للسوريين واللبنانيين فيه ودائع بقيمة مليوني جنيه ذهباً فأصدر المفوض السامي تشريعاً اعيدت الودائع بموجبه إلى اصحابها من تلك العملة الورقية فعاد على المصرف من هذه العملية وحدها ربح يوازي رأس ماله على حساب خسارة اصحاب الودائع من اهل البلاد ! وكثيراً ما بلغت ارباح هذا المصرف ١٠٠ ٪ و ١٥٠ ٪ بسبب ما كان يناله من امتيازات ويصدر من اجله من تشريعات ويفرق السوق بعملته التي يسحب منه مقابلها الذهب والسلع !

ضباط الاستخبارات

ومن جملة ما كان إقامة ضباط باسم ضباط الاستخبارات في مختلف مدن سوريا وقبائلها ؛ فأنشأوا شبكة جاسوسية واسعة حشدوا فيها كل حاقد وفاسق وفاسد ، واخذوا يستعينون بهم على اثارة النعرات والتفرقة والوشايات التي كانت وسيلة من وسائل الكيد والمكر والارهاب والارهاق ، وقد كان من امرهم في ما بعد ان كانوا يؤلبون الاشرار على الاخبار ، ويوجهون ما كان يجري من معارك انتخابية في الجرى الذي ترسمه السياسة الافرنسية ؛ ثم وصل امرهم الى تأليب انصارهم ومواليهم على الحركات الوطنية والأهداف الوطنية والعهود الوطنية ورجالها .

أبدبرهم في الاوقاف والمناهج والبادية

وبما كان كذلك وضع الاوقاف الاسلامية تحت اشراف مفتش إفرنسي بأمر البعثة الافرنسية ، وتوسيد المناصب والوظائف الوقفية والدينية الى الانصار والمزولفين والمنافقين ليكرونا وسيلة من وسائل دعايتهم .
كذلك اسرع الافرنسيون الى تعديل مناهج التعليم في مختلف الدرجات الدراسية ، وجعلوا للغة الافرنسية والثقافة الافرنسية المركز الممتاز فيها ليضمنوا نشوء الجيل السوري الجديد نشأة افرنسية موالية .
ولم يغفوا البدو والبادية السورية في منهمجهم فأنشأوا الصلات بينهم وبين مشايخها واستبدلوا بمن اعتبها فيه من هؤلاء المشايخ اشخاصاً آخرين واغدقوا عليهم المرتبات والمنح ليضمنوا طاعتهم وهذوهم .

استغلالهم الطائفة في الدروز والنصيرية في سبيل توطيد استعمارهم

كذلك عمدوا إلى استغلال الصفة الطائفية الخاصة في الدروز والنصيرية والشركس والأرمن . هادفين بذلك الى جعل جبل الدروز وجبال اللاذقية حصنين عسكريين واستعماريين لهم ، تحت اشرافهم او حكمهم المباشر، والى جعل الدروز والعلويين والشركس والأرمن عدة لهم في الأزمات والمواقف العصبية .
ولقد كان للدروز تقاليد وعادات واعتبارات وزعامات ، وكانت احداث تاريخية وثورية في زمن الدولة العثمانية تمت الى هذه التقاليد والعادات والاعتبارات والزعامات بصلة ؛ ولقد جرت التقاليد الجاهلية على ان ينظر السنيون اليهم بنظر غير مستحب من ناحية العقائد والطقوس الدينية بما أدى الى انقباضهم عن اخوانهم في العروبة انقباضاً فيه شيء من الحذر والتكتم والخصوصية .
وحالة الدروز هذه تنطبق بمرمتها على النصيرية الذين سموا بالعلويين ايضاً وسميت منطقتهم اللاذقية ببلاد الماويين وجبال العلويين لانهم فيها اكثرية .
ولقد استغل الافرنسيون هذه الحالات الطائفية الخاصة واخذوا يبثون في

رؤوس الطامعين والطامحين من الزعماء المخاوف من السوريين والوحدة السورية وإنما وسيلة لابتلاعهم وغمرهم بالأكثوية السنية وحرمانهم من الوظائف والمناصب والمنافع .

ولقد كانوا مهدوا لهذا في المنطقتين منذ عهد فيصل ؛ فاستطاعوا أن يذنبوا بينهم وبين بعض زعماء الدروز ومتولفيهم وطامعيهم الصلات وان يوجدوا لهم فيهم الانصار والاعضاء . وكانت مهمتهم في النصيرية اسهل لان منطقة اللاذقية كانت تحت احتلالهم منذ انتهاء الحرب . وبما عمدوا إلى بثه فيهم بصورة خاصة انهم ليسوا عربا وانهم من بقايا الصليبيين دماً وروحاً وان تسمية النصيرية هي معدلة او محرفة من كلمة النصرانية ، واستغلوا ما كان من اختصاص السنيين في المنطقة نفسها وخاصة في مدينة اللاذقية وهم اقلية بالنسبة اليهم بالمناصب والرعاية في زمن الدولة العثمانية ؛ وعينوا بعض ناهيهم ومتحركيهم في المراكز والوظائف وصاروا يقدمونهم على السنيين ؛ مما ساعد على إثبات هذه الحركة بشربها العاجلة حيث اصبح النصيرية او بالأصح الطامحون والطامعون والمتحركون منهم يشعرون بشخصيتهم الخاصة ويرون هذا مفيداً لهم مادياً ومعنوياً ، ويوثقون صلاتهم بالافرنسيين ويتقربون اليهم ويتمسكون بهم ويظهرون لفرنسا الاخلاص في سبيل الاحتفاظ بما صار لهم ؛ ولا سيما انهم قد تمكنوا بذلك من رقاب سوادهم وتسخيرهم لمصالحهم ومنافعهم تسخيراً قوياً فشت فيه السخرة والرق والرشاوى والغرامات وابتزاز الاموال والاملاك فشواً عظيماً اصبح الشعب به بعد قليل من الزمن يعاني شدائد الضنك والفقر .

وقد جند الافرنسيون عدداً كبيراً من شبان المنطقتين في كتائب الجيش المحلي التي انشأوها بعد قليل وعينوا بعض ناهيهم وابناء اسرهم المتزعمة ضباطاً ؛ فكان ذلك وسيلة من وسائل توثيق الارتباط ونجاح الحطة المرسومة .

وبثوا كذلك المخاوف من السوريين في الجاليتين الشركية والارمنية وجعلهم يرون فيهم حماهم وفي الارتباط بهم فائدتهم . وجندوا منهم عدداً كبيراً في كتائب الجيش وعينوا بعض ناهيهم ضباطاً فكان هذا كذلك وسيلة من وسائل توثيق الارتباط ونجاح الحطة المرسومة .

بل لقد حاولوا أن يفعلوا شيئاً من هذا في حلب وحمص وحماه وبنيروا الطامعين
للمناخين على العاصمة والتمرد عليها استهدافاً لتفريق الكلمة وتأريث البغضاء بين
اهل الوطن الواحد والامة الواحدة .

وهكذا قامت في سوريا إدارة استعمارية شديدة جعلت اكبر همها ان تحول دون
اي تقدم جدي وان تصد أي حركة قومية ، وان تعطل اي حيوية ونشاط ، وان
تثبت روح التفرقة بين مختلف الفئات والطوائف والمقاطعات ، وان تشغل الناس
بمشاكل ومشاكل توهن قواهم وتعطل نشاطهم ، وان تستغل خيرات البلاد وثرواتها
وتجارتها اوسع استغلال وابشعه .

- ٣ -

تجارب الحكم المزدبلة

ولم تلبث هذه الخطط الماكرة الحثيثة ان اخذت تؤتي اكلها بسرعة ،
وفي ميدان الحكم والادارة اولاً حيث اخذت اصوات الطامعين في المراكز
والمناصب المتأمرين مع السلطات الافرنسية والمندجيين في توجيهاتها في حلب وجبال
اللاذقية والدروز ترتفع ضد حكومة الشام التي كانت حكومة سوريا الداخلية
جميعها . وتظاهر المفوض السامي بالاستجابة الى رغبات السكان فخلق من حلب
دولة ومن منطقة اللاذقية دولة ومن جبل الدروز دولة ومن دمشق دولة ؛ وذلك
بعد اسابيع معدودة من الاحتلال، وأزال بذلك مظهر الحكومة السورية الواحدة
الشاملة ، وتوارى شكل الوزارة ليحل محله شكل الحاكم العام في عواصم هذه
الدويلات .

استقلال جبل الدروز واللاذقية واصابع الاستعمار والحكم العسكري فيهما

ومما كان في جبل الدروز نتيجة للدسائس والتوجيهات التي اشرفا اليها ان تم الاتفاق بين السلطات الافرنسية وزعماء الجبل على ان يكون الجبل مستقلاً ومرتبلاً بالمفوضية العليا مباشرة ، وان قرر المجلس التمثيلي الذي نشأوه الى جانب الحاكم الدروزي بناء على ذلك الاتفاق قبول الانتداب الافرنسي ورغبتهم في بقائهم مستقلين ضمن كيانهم الخاص وغير مندجين مع سوريا . ونقول من قبيل الاستطراد ان الافرنسيين بالرغم مما كان من مآشاة زعماء الجبل والأسر لهم في ما وجهوه واوحوه ابوا إلا المزيد فاستسنعوا أول فرصة لجعل ذلك المجلس يقرر ان يكون الحاكم العام افرنسياً تحقيقاً لهدف الادارة الافرنسية المباشرة وترسيخ القدم الاستعمارية العسكرية الذي استهدفوه ، فبدأ بهذا العهد السير نحو فرنسة الجبل ان صح التعبير فعدت الأعياد والمراسم الافرنسية مرعية في الجبل ، وصارت اللغة الافرنسية في مناهج التعليم والمظاهر الافرنسية المتنوعة تشغل المكان الأول فيه . وهكذا نقض الافرنسيون ما ابرموه مع زعماء الجبل وبدأت خفايا نواباهم الغادرة التي ستروها بتخويف الدروز من الاندماج بانخوانهم السوريين واستهدفوا بها في الحقيقة دمجهم بهم ، بل التحكم فيهم تحكم المالك بملكه لانهم لم يكونوا ليفكروا يوماً بأن يكون من شأن الدروز ان يندمجوا فيهم ويصبحوا منهم . ولقد كان من امر احد حكام الافرنسيين ان انتفخ بما وصل اليه فأخذ يتصرف فعلاً مع الدروز تصرف الطاغية بما كان سبباً من اسباب الثورة الكبرى على ما سوف نشير اليه بعد .

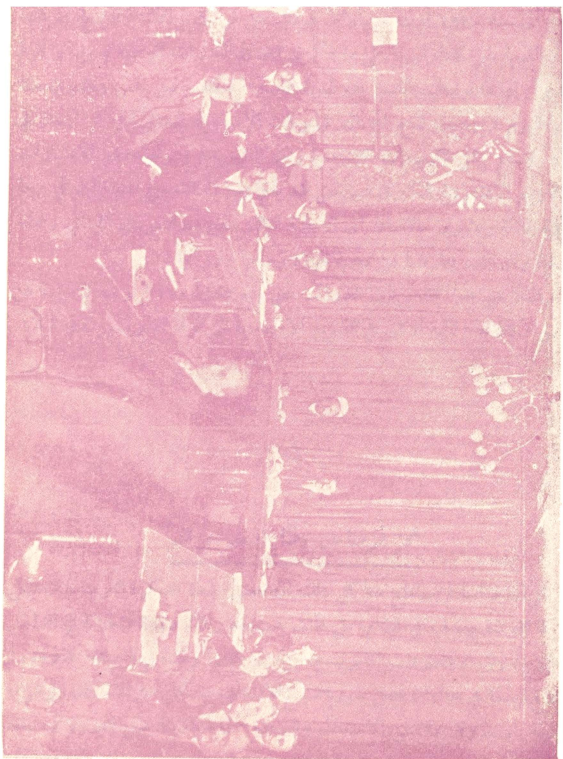
ومثل ما جرى في جبل الدروز جرى في منطقة اللاذقية حيث انشأوا مجلساً تمثيلاً اكثر ثبوتاً من النصيرية وحملوه على اعلان الرغبة في الانتداب الافرنسي والاستقلال المحلي وعدم الاندماج في السوريين ، ولقد كان على رأس هذه المنطقة قبل انهزام العهد الفيصلي حاكم افرنسي عام فأبقى الحال على ما هو عليه بعد ذلك ايضاً ، وجعلوا المجلس التمثيلي يسيفه ويقره . واخذ الحكام الافرنسيون يسرعون الحطى في محاولة فرنسة المنطقة وترسيخ قدمهم الاستعمارية والعسكرية فيها ، فجعلوا اللغة الافرنسية لغة التعليم واخذوا يطبعون المنطقة بالمظاهر الافرنسية المتنوعة ،

واهتموا خاصة بالتبشير المسيحي بين اهلها ونحويلهم الى نصاري اهتماماً كبيراً بدت آثاره فيما كان من تماقت المبشرين الكاثوليك الى المنطقة وكثرتهم وعظيم مساعيهم ونشاطهم .

على ان الافرنسيين لم يلبثوا ان اصطدموا بحقيقة الواقع فرأوا أن حياة هذه الدويلات غير طبيعية لا من الوجهة الاقتصادية ولا من الوجهة الادارية والاجتماعية الى درجة انها كانت ارنجالا صيبانياً اكثر منه اي شيء آخر . وكان صدر صك الانتداب من جمعية الامم ينص على تشجيع الحكم الوطني في سوريا . فهذا وذاك املى عليهم ان يتظاهروا بتصحيح الموقف فعمدوا اولاً الى انشاء اتحاد بين هذه الدويلات وجعلوا لهذا الاتحاد مجلساً ، ثم بدلوه بدولة واحدة ضمت دويلتي دمشق وحلب فقط واعادوا نظام مجلس الوزراء الذي يعبر عن شيء من معنى الحكم الذاتي وانشأوا للدولة مجلساً تمثيلاً تدعيها هذا المعنى ، غير انهم جردوا الدولة من اي معنى من معاني الدولة ومظاهرها وكانت الوزارة وزارة إدارية لا غير ، وبقيت سلطات المفوض السامي والبعثة الافرنسية والمستشارين الافرنسيين على ما وصفناه قبل ، بحيث كان الشكل المستأنف ستاراً زائفاً للمنهج الاستعماري المرسوم والمستمر الى هذا فقد ابقيت منطقتا جبل الدروز واللاذقية خارجتين عن هذه الدولة لهما حكومتان محليتان ومجلسان تمثيليان خاصان، استمراراً في المنهج الاستعماري والعسكري فيها والذي ينطوي فيه هدف سلخها عن الام وتوطيد الحكم الافرنسي المباشر فيها وتبديل معالمها .

آثار النزايير الاقتصادية الاستعمارية

وكذلك لم تلبث تلك الخطط الماكرة الحبيثة ان آتت اكلمها في ميدان الاقتصاد، حيث عدلت انظمة الجمارك فرفعت رسوم كثير من مواد الصناعة التي تحتاج اليها الصناعات المحلية وكثير من المواد الضرورية الاخرى في حين فسحت المجال امام الصناعات والسلع الافرنسية ، فارتفعت اسعار الأولى وحرمت البضائع المحلية من كثير من حاجاتها بما اخذ يؤدي الى تساؤها حتى نزل عدد المناويل في حلب من



المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف سنة ١٩٢١

(١٥٠٠٠) يعمل فيها (٦٥٠٠٠) عامل الى (٢٠٠٠) يعمل فيها (٨٠٠٠) عامل وفي دمشق من (٥٠٠٠) منوال يعمل فيها (٢٥٠٠٠) عامل الى (١٥٠٠) يعمل فيها (٣٥٠٠) عامل ، كما ارتفعت حاجات الحياة ارتفاعاً ناه به ظهر السوري ؛ وحيث اختل الميزان التجاري اختلالاً عظيماً فبلغ العجز الذي منيت به ثروة البلاد من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٣٠ أربعة مليارات فرنك من فرنكات ذلك التاريخ المرتفعة نسبياً بالنسبة لفرنكات اليوم على ما ذكرته احدى النشرات الرسمية ؛ ويبدو الرقم كبيراً إذا ما لوحظت النسبة بين القوة الاستوائية للنقد قبل خمس وعشرين سنة وبينها اليوم ، وحيث فسح المجال للشركات الافرنسية لتحتل المركز الممتاز في البلاد وتمتتع بشتى التسهيلات التشريعية وغير التشريعية ، وتحتكر الامتيازات والمشاريع الاقتصادية الكبرى فيها حتى لقد بلغ عدد ما نالته من امتيازات في برهة وجيزة ثلاثة وعشرين بالاضافة الى حصة البلاد بالمصرف السوري اللبناني وعملته الورقية وما سلب بطريقها من ذهب البلاد وسلعها و ثرواتها .

وفضلاً عن هذا فقد زيدت الضرائب حتى بلغ بعضها ١٠٠ ٪ / ٥٠ ٪ زيادة عن السابق فكان هذا ثلاثة الاثافي في الضربة الاقتصادية التي انتزها الافرنسيون في البلاد .

٤ -

عجز فرنسا عن اطفاء شعلة الوطنية

على ان فرنسا لم تستطع مع كل ذلك ان تطفى شعلة الفكرة العربية وان تشل الحركة القومية بسبيلها في الشام ، بل ظلت هذه وتلك متقدة متحركة في الداخل والخارج ، وتزداد بتصرفات الافرنسيين وبغهم اتقاداً وشدة في احيان كثيرة ، ولم تستطع فرنسا في حال ان تجعل سوريا تسيع الانتداب بشكل من الاشكال وترضى به صراحة او مؤولاً بدلاً عن الاستقلال والسيادة اذا استثنينا جبل الدروز ومنطقة اللاذقية .

المراحل الثورية المتوعدة قبل الثورة الكبرى

ولقد ظلت عصابات الثوار في مناطق اللاذقية وشمال حلب وبعبك تنشط نحو سنة وتكبد الافرنسيين الخسائر وترعجهم ألياً إزعاج وخاصة في المنطقتين الاولين . وكان بطل المنطقة الاولى الشيخ صالح العلي الذي بدأت حركته الثورية منذ عهد فيصل على ما اشرنا اليه قبل اي ان ثورته استمرت سنتين ونيافاً اما حركة شمال حلب فقد بدأت هي الاخرى في عهد فيصل وكان ابراهيم هنانو وصبحي بركات هما اللذان يقومان بتدبيرها بالتعاون مع الهيئة المركزية للفتاة ، ثم انفرد في ادارتها وقيادتها ابراهيم هنانو ، وكانت بطولته في هذه الحركة بما مهد له الطريق ليتوعم الكتلة الوطنية وبالتالي ليتوعم الحركة الوطنية في سوريا بعد بضع سنين .

وفي الشهر الاول من الاحتلال الباغي وقعت حادثة ثورية خطيرة جداً حيث قتل رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي وزميله في الوزارة عبد الرحمن اليوسف . فقد خرجوا من دمشق بالقطار الى حوران للنظر في امر الغرامة الباهظة التي فرضها الافرنسيون على البلاد ، فقابلتهم الجماهير الساخطة في محطة خربة الغزالة واطلقت عليهم الرصاص . وبعد بضعة اشهر من هذا الحادث ذهب الطاغية غورو الى القنيطرة فاعترضت طريقه عصابة من المجاهدين رتب امرها في شرق الاردن من قبل الشهيد احمد مريود واطلقت النار عليه ، وكان معه حقي العظم حاكم دويلة دمشق ، فنجوا غورو من رصاصة اصابت كمي يده المبتورة ، واصيب العظم بثلاث رصاصات غير قاتلة وقتل مرافق غورو الحربي وبعد بضعة اشهر من هذا الحادث جاء كراين عضو لجنة الاستفتاء الاميركية لزيارة دمشق ليتعرف على اثر الاستفتاء واحوال البلاد بمناسبة اعتزامه على نشر تقرير التحقيق ، واجتمع بالناس في بعض الاحياء واستمع الى تذرهم وشكاويهم ، واعادت هذه الزيارة الى الاذهان ذكرى العهد الفيصلي واهاجت النفوس . فلما اعتزم الرحيل اجتمع جمهرة من رجال الحركة وشبابها حوله للوداع ، وخطب بعض الشبان خطباً حماسية ، واخذ الشباب ينشدون احدى افانيد ذلك العهد « نحن لا نرضى الحماية لا ولا نرضى الوصاية » كما اخذوا يهتفون بسقوط الانتداب والخائنين وكان الدكتور شهنذر الشخصية البارزة في هذه المواقب .

ولقد اثار هذا الموقف الافرنسيين لانهم رأوا فيه بوادر خيبة الامل الذي ظنوا أنهم حققوه من ارباب الناس واتحاد الروح الوطنية والقومية فيهم ، فاعتقلوا الشهبندر مع بعض رجال العهد الفيصلي من الاستقلاليين وغيرهم ممن استطاع ان يبقوا في دمشق ، فألهم الاعتقال الناس وقامت مظاهرات صاحبة ، واعلن الاضراب العام في دمشق ، فكشرت السلطات الافرنسية عن نابها وانزلت دوريات من الجيش الى الشوارع واعلنت الادارة العرفية ، ومنعت التجول ، ثم حاكت من رأت ان تحاكمه وحكمت عليهم بالحبس وارسلتهم الى ارواد ، فعادت الاضطرابات والمظاهرات والاعتقالات والمحاكمات ثانية ، وسرت من دمشق الى المدن الاخرى ، ووقعت اشتباكات دموية في بعضها ، ولم تستطع السلطات ان تقبض على ناصية الحال إلا بشق النفس . وبما كان جديداً في باب اضراب دمشق في هذه الحوادث اسبوعاً كاملاً ، وهو اول اضراب طويل في بلاد الشام كان منوالاً نسج عليه وطول فيه فيما بعد في سوريا ثم في فلسطين .

هذا إلى ما كان من حوادث متفرقة لم تنقطع سلسلتها طيلة السنوات الثلاث التالية ، مها كانت ثانوية فان توالياها كان يقض مضاجع الافرنسيين ويعكر عليهم آمالهم ، ويكون مظهراً قوياً لاستمرار الشعلة الوطنية واحتجاجاً صارخاً على وجود المستعمرين وتصرفاتهم وبغيتهم . ولقد اثر عن سراي احد المفوضين السامين من مقال له انه كان في سنة ١٩٢٢ وحدها خمس وثلاثون حركة ثورية كبدت الافرنسيين آلافاً من الضحايا . وظل الامر على هذا الحال إلى ان انفجرت الثورة الكبرى عام ١٩٢٥ . ونسجل هنا ان الحوادث املت على السلطات شيئاً من الحكمة او بالاحرى رغبة في التخدير والملاينة فأطلقت سراح سجناء ارواد بعد سنة ونصف مع ان منهم من كان محكوماً عشرين سنة وعشر سنين واقلهم خمس سنين .

النشاط السياسي في الداخل وحزب الشعب

وفي اوائل عام ١٩٢٥ جاء سراي مفوضاً سامياً جديداً ، وبدا منه ما يدل على رغبة فرنسا في وضع دستور للبلاد تقوم على اساسه حكومات وطنية تنفيذاً لنص

حك الانتداب الذي تم وضعه وتصديقه في عصبة الامم قبل هذا التاريخ بأمد فير بعيد ، ومسايرة للعواطف والمطالب الوطنية التي لم تخفت ولم تستسلم ، لعل هذه الطريقة تنجح في ما لم ينجح فيه الحديد والنار او تخمد ما بدأ يشتد اتقاده من تلك العواطف بالتجارب والشباك الالجابية . وكان من خطوات المندوب الجديد في سبيل ذلك ارسال رسائل الى فريق من اعيان البلاد ومفكرها في شهر تموز لعام ١٩٢٥ يطلب منهم ابداء آرائهم في الاسس التي يحسن ان يقوم عليها الدستور لتستدير الحكومة الافرنسية بها في خطواتها التي اعتزمتها بما يدل في ذات الوقت على اصطباغ تلك الرغبة بالصيغة الاستعمارية في العزيمة على فرض الدستور من عندها فرضاً . وبالرغم من ذلك اغتنم رجال الحركة الفرصة لاستئناف النشاط ، واوفدت دمشق وحلب وفودها اليه يمثّل فيها مختلف الفئات لتطالب بالوحدة السورية الطبيعية والاستقلال التام ، والغاء الاشكال المزيفة من الحكم والمجالس التمثيلية ، وانتخاب جمعية تأسيسية تضع دستور البلاد وقيام حكومة مسئولة امام مجلس نيابي حر ، ومنع تدخل المستشارين ، ووضع حد لشركات الاستثمار ، والعودة الى اساس الذهب في العملة ، والعفو العام عن المحكومين والمنفيين والمبعدين السياسيين . ثم اقدم الفريق البارز من رجال الحركة الموجودين في سوريا على تأسيس حزب الشعب وفق المنهج الذي طالبوا به فأخذ ينشط ويعمل على انعاش الروح الوطنية وتوجيه الناس الى ميثاقهم القومي .

وبعد قليل من ذلك كانت زيارة بلفور دمشق فكانت وسيلة لاطهار العواطف الوطنية المستيقظة نحو الجزء الجنوبي من سوريا الذي نكبه تصريح هذا الوزير المشؤوم بالصهيونية ، حيث تجمهر الشعب يريد الفتك به ، وحيث قامت المظاهرات تهتف بسقوطه وسقوط دولته وسقوط الانتداب والتجزئة والصهيونية وحياء سوريا المستقلة الموحدة ، ونتج عن المظاهرات اشتباكات استشهد وجرح فيها عدد غير يسير من الشعب ، ولم تستطع السلطات تسكين الهياج إلا بشق النفس وبعد تهريب بلفور من دمشق تهريباً .

النشاط السياسي في شرق الاردن ومصر واوروبا

هذا في داخل البلاد . وقد كان نشاط رجال الحركة القومية في خارجها كذلك قوياً ومتنوعاً خلال هذه الفترة . وكانت ميادين هذا النشاط عمان ومصر واوروبا . فنذان ذاع قدوم عبدالله بن الحسين الى معان من الحجاز بقصد استئناف النضال في سبيل تحرير سوريا والانتقام للعهد الفيصلي وكان ذلك نتيجة لاتصال بعض رجال الحركة القومية بالملك حسين اخذ رجال الحركة الذين خرجوا مع فيصل وتفرقوا في فلسطين وشرق الاردن ومصر واوروبا يقصدون عمان الذي حظ عبد الله فيها رحاله في تاريخ ٩ مارس من سنة ١٩٢١ بناء على مساعي نبيه العظمة ورفاقه الذين كانوا حلوا في شرق الاردن قبل ذلك . ولم تلبث هذه البلدة التي لم تكن إلا بيوتاً طينية اكثر سكانها من الشراكسة ان زحرت بأولئك الرجال ، وان اخذت الحركة القومية تبدو فيها جياشة تذكر الناس بالعهد الفيصلي ، والتفوا حول عبدالله يتداولون في ما يجب وما يمكن . واستأنف حزب الفتاة او الاستقلال نشاطه فألف رجاله هيئة مركزية اخذت تعقد الاجتماعات وتبحث في شؤون الساعة ، وتضم اليها بعض الرجال والشباب على غرار ما كان في دمشق . ثم كان اجتماع عبـا . الله بشرشل واتفاقها على ان يتولى الاول الحكم في شرق الاردن كأمر على امارة مستقلة تستمد العون والمشورة من الانكليز ، فتعاون رجال الحركة مع الأمير على تنظيم الحكم في الامارة وتقلدوا مناصبها الرئيسية في العاصمة وغير العاصمة ، واعتبروا ما كان محطة لا بأس فيها للحركة التحريرية واخذوا يرسمون الخطط للسير في سبيل ذلك ، بل بدأ بعضهم بالسير فعلا وكان لهم اثر في حوادث محطة خربة الغزالة واطلاق النار على غورو وتغذية وترتيب بعض الحركات الثورية التي كانت تتوالى في انحاء الشام والتي ذكر سراي عنها ما ذكر على ما اشرنا اليه من قبل .

ومن كان احتشد من رجال الحركة في عمان وحاولوا اتخاذها محطة للحركة التحريرية وتعاونوا مع عبد الله بن الحسين في المرحلة الاولى ، ونشطوا في اعادة الحياة والحركة للفتاة وحزب الاستقلال على ما وعته الذاكرة ، نبيه العظمة وغادل

ارسلان وعوفي عبد الهادي وعزة دروزه وخير الدين الزركلي والشيخ كامل القصاب وحسن الحكيم وسامي السراج وبوسف ياسين ومحمد الشريقي واحمد مريود واحمد حلمي عبد الباقي وامين النيمسي وجميل المدفعي ورشيد طليع وعبد الستار السندروسى ومسلم العطار ومصطفى الغلاييني وغيرهم من امثالهم الذين لم تعهم الذاكرة .

ونسجل مع الاسف ان الامل باستمرار السير من هذه المحطة لم يلبث أن خاب ، حيث اخذ الامير يعتقد انه ليس من امل في نجاحه ، مدفوعاً الى عقيدته هذه بعدم الثقة في الشعب وامكانياته والشعور بالضعف والحاجة الى الغير ، وهي خصلة بدت ظاهرة في اثناء الثورة في ابيه ثم في اخيه فيصل على ما ذكرناه في المناسبات السابقة بالرغم عن ما كان من امكانيات كبيرة في المكان الجغرافي وفي السكان وفي الشعور الذي ظل متوفراً في مختلف انحاء سوريا محتاج الى شيء من الجهد والدأب والتضحية ، واتجه امله الى امكان الوصول الى نتيجة ايجابية في صدد استعادة العرش السوري عن طريق المناسبات الحسنة والمسامحة الودية ، فاستدعى رضا الركابي واسند اليه رئاسة الحكومة ، واخذ يتجهم لرجال الحركة القومية او بالأحرى للاستقلاليين ويرى في نشاطهم خطراً على امارته الجديدة وامله الطريف ، فأخذ الناس ينفذون من حول عمان واستمر التشاد بين الامير وبين الذين بقوا لبقاء املهم في الانتفاع بهذه المحطة بأي شكل كان امدأ غير قصير ، حتى ابلغهم وجوب اخروج من منطقة الامارة ، ولم يلبثوا أن تلقوا دعوة من الملك حسين فسافروا إلى مكة على مضض موقنين ان هذه الدعوة ليست الا تدبيراً مقصوداً لتخليص الامير من الحاحهم وخطر حركاتهم ، وأن تبدل موقفه منهم ومن فكرة السير الجدي التحريري التي كانت متحمساً لها في ما اذاعته من مناشير قوية عند وصوله معان ، واتجاهاته الطريفة ، إنما كان بنصيحة الانكليز الذين ارتبط مصيره بهم ، بما له صلة لا شك فيها بما كان من تقام بينهم وبين الافرنسيين كان من نتائجه إطلاق يد هؤلاء في سوريا وإطلاق يد اولئك في فلسطين وشرق الاردن .

ولقد كان فريق من رجال الحركة القومية والعهد الفيصلي أمّ مصر قبيل الانهيار والعهد وبعده واستأنفوا نشاطهم في سبيل تحرير سوريا ووحدتها ، وانضم اليهم بعض المنفضين من عمان . وقد بدأ نشاطهم بعد اشهر قليلة من الانهيار حيث ارسل كل

من حزب الاتحاد السوري ورئيس المؤتمر السوري السيد رشيد رضا وبعض أعضائه وجماعة حزب الاستقلال احتجاجاتهم إلى جمعية الأمم على ما جرى ويجري في سوريا. ثم دعا حزب الاتحاد السوري إلى عقد مؤتمر في جنيف لتوحيد جهود الأحزاب والجماعات القومية السورية، وعقد المؤتمر فعلاً في صيف عام ١٩٢١ وشهده مندوبون عن حزبي الاستقلال والاتحاد السوري، وعن بعض الجمعيات العربية في المهجر كما شهده مندوبون عن الوفد العربي الفلسطيني الذي كان إذ ذاك في انكلترة بسبيل القضية الفلسطينية، ورأس المؤتمر ميشيل لطف الله رئيس حزب الاتحاد، وكانت نائبا الحاج توفيق حماد من مندوبي وفد فلسطين والسيد رشيد رضا رئيس المؤتمر السوري وسكرتيه العام شكيب أرسلان، رسمي المؤتمر السوري الفلسطيني، واتخذ قرار المؤتمر السوري العام باستقلال سوريا الناجز بمحدودها الطبيعية ورفض الانتداب والصهيونية ميثاقاً له؛ وانبثق عنه لجنة تنفيذية تمثل الأحزاب والجماعات التي اشتركت فيه كما انبثق عنه وفد لدى جمعية الأمم مؤلف من شكيب أرسلان وأحسان الجابري ورياض الصلح لمتابعة النشاط، وأرسل مذكرات مسببة وقوية في بيان حق العرب الشرعي في استقلال بلادهم ووحدة والاحتجاج على ما كان من نقض عهد العرب ومناقضة المبادئ التي اعلنتها الحلفاء والبلاد العربية المجردة وفرض الانتداب عليها برغم رغبات أهلها واحتلالها، وطالب بالجلاء عن جميع أنحاء سوريا وتمكين أهلها من ممارسة حقهم في الاستقلال والوحدة. وظلت اللجنة التنفيذية التي اتخذت القاهرة مركزاً لها من ناحية والوفد من ناحية ثانية ينشطان في مصر وأوروبا سنوات طويلة ويبرهنان على استمرار شعلة الفكرة العربية والحركة العربية، ويتضامنان مع العاملين في هذا السبيل في داخل البلاد وخارجها.

- ٦ -

الثورة الكبرى ومقدماتها وأهدافها وأدوارها

وفي صيف عام ١٩٢٥ انفجرت الثورة السورية الكبرى واستمرت إلى صيف عام ١٩٢٧، ومع أنها بدأت في جبل الدروز ضد تصرفات حاكم الجبل الأفرنسي

وكان لها مقدمات أثارت النفوس وهبأتها لها ، فانها كانت في سيرها واتساعها واهدافها مظهرآ للاباء القومي ضد الاستعمار الافرنسي الذي كان يهدف الى اخضاع الروح القومية وفرض السيطرة على البلاد وبث الفرقة بين اهلها وتوهين قواهم وكيانهم ، وامارة قوية على استمرار انتقاد الشعلة الوطنية والحركة العربية وجيشانها وبسبيل ميثاق الاستقلال التام والوحدة الطبيعية السورية الذي كان نتيجة من نتائج هذه الحركة والذي قرره المؤتمر السوري العام ، بما سجله قرار زعماء الدروز ومناشير سلطان الاطرش قائد الثورة العربية ، ثم مذكرة رجال الحركة القومية في مصر المقدمة للمندوب السامي جو فنييل الذي خلف سراي الذي انفجرت الثورة في عهده ، وما صدر بعد ذلك من مذكرات ومفاوضات ومناشير من زعماء الثورة ورجال الحركة ووفودها داخل البلاد وخارجها .

وكان من امر بدئها ان الحاكم الافرنسي العام في الجبل كارييه اخذ يسير في سياسة شاذة من القسوة والارهاب ونشر جو الجاسوسية والوشايات ، ولم يتورع عن الضرب والصفع والاهانات المتنوعة للبارزين من ابناء الجبل زعماء وموظفين حتى بلغت تصرفاته حدا لا يطاق ، فأخذ الزعماء يرفعون اصواتهم بالشكوى والتذمر ، ولفوا لجنة وطنية برئاسة سلطان الاطرش وارسلوا وفداً الى سراي بطالبوت بالحكم الوطني الذي كان الافرنسيون عاهدوه عليه ، ويسردون ما يقاسونه من الحاكم الافرنسي ، فكانت مقابلة سراي للوفد ومطالمة فظة ، بهدهم بالنفي والتنكيل ، فزاد هذا من التذمر ، وازداد الافرنسيون شدة في قمع التذمر بالاعتقالات والغرامات والاعتداءات المتنوعة الاخرى لأنهم رأوا في الحركة قضاء على السياسة التي ترسوها وساروا فيها خطوات غير يسيرة ، ثم احنالوا على جلب جماعة من زعماء الجبل إلى دمشق بصفة وفد واعتقلوهم ونفوههم الى تدمر والحسبة واعتبروا رهينة على تخفيف الجبل غلواء شكايه وتذمراته والجنوح الى خطة الخضوع والرضاء التي ساروا عليها من قبل ، ثم حاولوا ان يحتلوا على سلطان رئيس اللجنة الوطنية فأخفقوا ، وقام هذا بحملة تحميدية في قرى الجبل ، فبادر الافرنسيون الى قمع الحركة بالشدة ، وسيروا سرية بسبيل ذلك فقابل سلطات

ورجاله المبادرة بمثلها ، وكان من نتيجة ذلك إحراق دار البعثة الانتدابية في صلخد والقضاء على أكثر أفراد السرية . وكان هذا في أواخر شهر تموز ١٩٢٥ ، فحال الأمر الافرنسيين وأرسلوا حملة كبيرة قوامها ثلاثة آلاف فقابلها الدروز وكانت معركة كبرى عرفت بمعركة المزرعة دحـمرت فيها الحملة وقضي على نصفها واستولي على أنقالها وسلاحها وعنادها ومؤنها . وقد كان زعماء الدروز اتصلوا من قبل بزعماء حزب الشعب في دمشق وتعاهدوا على التضامن ؛ فلما قويت الحركة واشتدت جنح الافرنسيون الى الملاينة والمراوغة فذهب وفد من حزب الشعب الى الجبل لتوكيد التوائق وتحذير الدروز من الانخداع ، وتعاهدوا من جديد على عدم عقد صلح منفرد والاستمرار في الحركة إلى أن يتحقق الميثاق القومي ، ووعدت دمشق بتهيئة القوى الثورية للاشتراك في العمل وتخفيف العبء عن الجبل ؛ وشعر الافرنسيون بالأمر فاعتقلوا فريقاً من أركان حزب الشعب منهم فوزي الغزي وفارس الحوري وإحسان الشريف وعبد المجيد الطباخ وتوفيق شامية وعثمان الشرباتي ونفروا بعضهم إلى إرواد وبعضهم الى الحسجة (١) . ونجا الباقي والتحق بالجبل ومنهم جميل مردم والدكتور شهنذر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ونسيب البكري . وهنا تقررت الخطوات الحاسمة فوسدوا قيادة الثورة العامة لسلطان الأطرش والتفـسوا حوله يسندونه ويعاونونه؛ وصدر أول منشور يحمل لقب القائد العام للثورة السورية الكبرى بتاريخ ٢٣ آب ١٩٢٥ يدعو فيه السوريين إلى السلاح والجهاد في سبيل ميثاقهم القومي وكرامتهم وعزتهم الوطنية ، وأخذت الثورة تشتد وتتسع فكانت المعارك المهمة التي عرفت بمعارك المسيفرة والسويداء وعري ورساس في حوران واستبسل بنو معروف وكبدوا الافرنسيين الخسائر الجسيمة رغم توالي النجـدات وعدم تكافؤ المعدات . ثم تعدت الثورة الجبل الى حماه حيث ثار مجاهدوها بقيادة فوزي القاوقجي الذي كان ضابطاً في الجيش المحلي بإقليم البـلاط وادي التيم ؛ وكانت دمشق مسرحاً من مسارحها حتى لقد جاء وقت كانت أحيائها ومخافرها الداخلية تحت سيطرة المجاهدين التامة ، وحتى كاد مجاهدوها يعتقلون سراي فيها . وقد جن جنون الافرنسيين فسلطوا فصائلهم وفصائل السنغاليين ومتطوعة

(١) الحسجة مركز في شمال سوريا وفي باديتها ويبعد عن دمشق نحو (٧٥٠) كيلومترا . أما إرواد فجزيرة صغيرة قريبة من الساحل السوري .

الشراكسة ليعملوا النهب والتحريق والتدمير وقتل الناس بدران تفريق بين الثوار وغير الثوار وتشهير المقتولين وجرجرتهم في الأزقة في دمشق ، وقصفوها وقصفوا حماة أيضاً وأوقعوا فيها دماراً واسعاً كما قاموا بحملة تحريق وتدمير على كثير من قرى غوطة دمشق وحماة والجبل . ولكن كل هذا لم يكن ليزيد النار إلا شدة وضاراً . ومثل أبطال الجبل ودمشق وحماة والغوطة والبلان ووادي التيم أدواراً رائعة من الجرأة وقوة الشكينة والتصميم ؛ وراح منهم عدد كبير ضحايا غالية ؛ وعمت الثورة مختلف الطبقات ، وعلى مختلف الوجوه من مقاتلين ومعاونين ومؤازرين ومخبرين وممولين وموزنين ؛ وقد نشط رجال الاحزاب والحركة القومية الذين كانوا خارج البلاد فاشترك بعضهم في الثورة وقيادتها كما فعل ذلك بعض من بقي في البلاد ، وقام باقبيهم بجهود ضخمة في جمع التبرعات وتنظيم الحملات وتزويد الجبهات بالسلاح والعتاد والمؤن والكساي وبث الدعايات في مختلف الأوساط الشرقية والغربية والأوروبية والأميركية .

ولقد عمد الافرنسيون إلى بث الخوف في نصارى جبل عامل وراشيا وحاصيا وتسليعهم وتحريضهم ومدتهم بعصابات من الموارنة ودفعهم جميعاً إلى القتال في جانبهم كما أخذوا يجمعون السلاح من مسلمي لبنان سنييهم وشيعيهم ودروزهم بقصد إرهابهم وإرهاب الثوار معاً في جعلهم تحت رحمة الذين سلحتهم من النصارى وخاصة من الموارنة ، وحذراً من امتداد نار الثورة وسريانها فيهم في آن واحد . وقد فطن زعماء الثورة إلى هذا المكر اللئيم فأذاعوا المناشير المنبهة لسوء نوايا الافرنسيين والمطمئنة للنصارى والمتضمنة توكيد سمو أهداف الثورة ونوايا القائمين بها . ومع ذلك فلم تذهب هذه الحركة سدى حيث وقعت بعض الحوادث المؤسفة بين النصارى والثوار في مناطق راشيا وحاصيا وجبل عامل مما تعمده الافرنسيون بسبيل تحقيق خططهم في التفرقة وإثارة الخوف والعداء بين طوائف البلاد وطبقاتها .

جوفنيل وبرهلوانياته

على أن فجاجع الثورة وأخبارها أثارت قلق فرنسا واضطرتها بعد انفجارها بثلاثة أشهر إلى سحب سراي وتعيين جوفنيل مكانه ، وهو سياسي محنك أمل

الافرنسيون فيه القدرة على تهدئة الأمور . وكان هذا أول مفوض سياسي حيث كان أسلافه من العسكريين .

ولقد كان سراي يتهم الانكليز بتعزيد الثورة ، ويرى من أدلة ذلك اتخاذ الثوار فلسطين وشرق الاردن مراحاً ومنتجعاً ومصحاً . وقد كان رجال الحركة القومية الذين تولوا تنظيم شئون الثورة وتحويلها وتوطينها من الخارج يقيمون وينشطون في البلدين بحرية نسبية ؛ فرأى جوفنيل أن يزور لندن للتفاهم على ما ينبغي من تدابير في هذا الصدد . ويظهر أنه كان للانكليز مطالب متصلة بالحدود السورية الفلسطينية والعراقية فتم التفاهم في هذه الزيارة على تحديد جديد يرضي الانكليز ويضمن عونهم المطلوب . ثم قدم جوفنيل الى القاهرة وأخذ يتصل برجال اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ؛ وقد جنح في بدء الاتصال إلى التوافق مع ميشال لطف الله على تحديد العلاقات بين سوريا وفرنسا بمعاهدة تتضمن الاعتراف باستقلال سوريا وقيام حكم وطني دستوري وإصدار عفو عام ؛ ثم عقد رجال الحركة والأحزاب اجتماعاً تدارسوا فيه الموقف وتقدموا بمذكرة مفصلة ضمنوها أهداف الحركة ومطالبها وكانت مصوغة بقلب قوي اتخذها جوفنيل وسيلة للاحتجاج والتوقف عن المفاوضات ، وغادر القاهرة إلى سوريا حيث أخذ يطلب إلقاء السلاح قبل الدخول في أي مفاوضة ، والاعتماد على العدالة الافرنسية بكلمات طنانة مبهمه . والحق إن جوفنيل حاول أن يلعب دوراً بهلوانياً بثورته وتصريحاته ووعدته ووعدته ، ولكنه لم يكشف عن أية رغبة صادقة عنده أو عند حكومته في الاستجابة لصوت الحق ؛ وظهر أن ما كان منه إنما كان مراوغة وتخديراً وكسباً للوقت إلى أن تصل الحملات الكبرى التي أزمعت فرنسا على إرسالها للقضاء على الحركة والاستمرار في ما رسمته من منهج باغ ، وفرض الحلول الهزيلة الخداعة .

على أن زعماء الثورة ورجال الحركة لم ينخدعوا فظلوا من ناحيتهم يصرون على تأليف حكومة يرضون عنها ، وإعلان العفو والموافقة على معاهدة تتضمن الاعتراف بالاستقلال والوحدة والحكم الدستوري النيابي قبل إلقاء السلاح .

بفظة الامم ورومها

ولقد كانت تشاد قوي بين الروح الوطنية والخذاع الافرنسي سجل فيه نصر عظيم للروح الوطنية بالرغم عن ما كان خلاله من بعض العثرات والصور الباهتة . فقد حاول جوفنيل أن يوجد ثغرات في الصفوف فأمر السلطات باختيار وفد من وجهاء دمشق ليقدموا مطالب البلد ، وانتخب الوفد باشراف الافرنسيين في آذار سنة ١٩٢٦ ولكن المطالب التي قدمها لم تختلف في جوهرها عن المطالب القومية حيث تضمنت دعوة جمعية تأسيسية تتولى وضع دستور على أساس السيادة القومية ، وعقد معاهدة تحل محل الانتداب يعترف فيها لفرنسا بالنفوذ السياسي والرجحان الاقتصادي على شرط عدم اخلاصها بالسيادة ، وإنشاء جيش وطني لتمهيد الجلاء عن البلاد ، ودخول سوريا في جمعية الامم ، وتوحيد جبلي الدروز واللاذقية مع سوريا ، وإعادة الاقاليم السورية المنضمة إلى لبنان ، وقيام حكومة وطنية موقته تمهد لقيام حكومة دائمة على اساس الدستور الجديد ، وإعلان العفو العام ، والتعويض على منكوبي الثورة .

وقدم صبحي بركات رئيس الحكومة استقالته ناصحاً بإجابة مطالب البلاد لتهدئة الحالة ، فدعا جوفنيل الشيخ تاج الدين الحسيني لاستلام منصبه فاشتراط هذا الموافقة على مطالب البلاد كمنهج لحكومته ، وقدم لائحة بهذه المطالب بمائة لائحة وفد الشام ؛ وكان كل هذا نتيجة لقوة تلك الروح وأثر جو الثورة . وقد أخذت جوفنيل العزة بالاثم وتكشفت نيانه الاستعمارية على سجيته إذاء هذا التصميم على عدم الانخداع فعين إفرنسياً لرأس الحكومة . ولقد حاول أن يفرق بين السوريين والدروز فاخذ حاكم الجبل الافرنسي بناء على توجيهاته يذيع اذاعات يغمز فيها زعماء الثورة من الدروز لاهمالهم إستقلال الجبل واستغراقهم في الدعوة الى استقلال سوريا ودمج الجبل فيها ، ويمجد الدروز ويحرضهم ويخوفهم ويطعمهم ؛ ولكن هذه المحاولات باءت بالافخاق كذلك .

وبما جرى أن جوفنيل أرسل الامير أمين أرسلان إلى الجبل بكتاب وجه

الخطاب فيه للشعب الدرزي وطلب فيه آراءهم في الموقف ، فعقد وجهاه الجبل وذو الشأن فيه اجتماعاً كبيراً في دأه بتاريخ ٢٨ شباط ١٩٢٦ تداولوا فيه الامر ووقعوا على كتاب جوابي طالبوا فيه الاعتراف باستقلال سوريا التام ووحدتها وإنشاء جيش وطني يمدد للجلاء الافرنسي . وتأليف مجلس تأسيسي يضع دستوراً لسوريا تنبثق عنه حكومة سورية وطنية ، وإصدار عفو عام ؛ مما أثار حنق جوفنيل وخيبته وحمله على إرسال جواب قال فيه ان الكتاب يجعل كل مفاوضة مباشرة وغير مباشرة مع العصاة مستحيلة وإنه لن يقبل بعد الآن سوى الخضوع بدون قيد وشرط .

وعمد جوفنيل إلى حيلة أخرى فدعا إلى انتخابات عامة في مناطق حلب وحماة وحمص بقصد التعرف الى آراء ممثليها وبث روح التفرقة بينها وبين دمشق وحوران اللتين استثنينا من الانتخاب ؛ ففطن اهل تلك المناطق للحيلة فأظهروا عزمهم على مقاطعة الانتخابات ، وظلوا صامدين بالرغم من التهديد والوعيد والترويب والتروغيب . وبالرغم مما كان من اعتقال الوطنيين البارزين فيها ونفيهم ، ولقد استطاعت السلطات أن تحمل بعض العناصر الموالية لها في حلب على الاشتراك في الانتخابات فأعلنت المدينة الاضراب وقامت المظاهرات وارتفع اصوات الاحتجاج والاستنكار ، وكانت اشتباكات راح فيها عدد غير يسير من ابنائها شهداء وجرحى وحوكم بسببها بعض الوطنيين والشباب . ومع ذلك كله فإن المنتخبين هذا الانتخاب المزيف المغموس بالدم على علائهم حيناً دعوا إلى الاجتماع وتقديم المطالب لم يسعهم تحت تأثير الجور القومي الشديد الا أن يقدموا مطالب متسقة مع المطالب القومية بما أثار حنق جوفنيل ودفعه الى الغاء مجلسهم ! ولقد سرت هذه الروح القوية إلى المنطقة الغربية الساحلية بمناسبة إعلان العزم على منحها دستوراً نكابة بسوريا فقامت حركة واسعة للمطالبة بالانفصال عن لبنان والانضمام الى سوريا في صيدا وصور وجبل عامل وطرابلس الشام وبعبك وراشيا وحاصبيا والبقاع ومن قبل مسلمي مدينة بيروت أيضاً ، وعمد جوفنيل إلى حيلة جديدة حيث دفع الشريف عبد المجيد حيدر (١) إلى الحركة بحجة الرغبة في إقامة عرش سوري يتوسده

(١) هو ابن الشريف حيدر الذي عينه الاتحاديون اميراً على مكة بدلاً من الحسين حيناً أعلن هذا ثورته . وقد اقام جل أيام الحرب في بيروت ولبنان .

وتتحقق مطالب البلاد على يده إذا هدأت الثورة ؛ ولكن الحيلة أخفقت كذلك لفقدان طابع الاخلاص والصدق عليها .

استناد الضغط على الثوار وأثره

وفي أثناء ذلك أخذت النجيدات المنتظرة تتوارد من فرنسا فاغتنم جوفنيل الفرصة فاتصل بالدأما دأحمد نامي التركي الاصل (١) وفاوضه على تأليف الوزارة ، واتصل هذا برجال الحركة الوطنية فتطابقوا على التعاون معه إذا وافق المندوب السامي على منهج وطني للوزارة . وقد كان هذا المنهج مستمداً من لائحة الشام ؛ وإزاء هذا الغناد القومي الذي لم يكن في أثناء اشتداد الثورة وخفوتها وبالرغم عن متنوع الاساليب والمحاولات التي عمد اليها رأى جوفنيل نفسه مضطراً إلى المسيرة إنفاذاً لسمعته كسياسي معهود كانت باريس تعول عليه في تهدئة الحال وتمشية الأمور فتبادل مع أحمد نامي الرسائل حول المنهج والموافقة عليه وتألفت الوزارة في شهر مايس واشترك فيها من الوطنيين لطفي الحفار وفارس الحوري وحسي البرازي . ولكن الروح الاستعمارية الغادرة لم تغير خطتها فمع ان الوزارة تألفت على أساس منهج معين متفق عليه تناول في مسانولته توحيد جبل الدروز واللاذقية واستعادة الاقاليم المضمومة الى لبنان وتسكين الاضطرابات والنفوس الثائرة بالتسامح والملاينة فإن جوفيل ومعاونيه من جهة وقواد القوى العسكرية من جهة اخرى لم يلبثوا أن تجاهلوا هذا ؛ وأن أخذوا يسيرون في خطة معاكسة بالنسبة للمسائل الأولى ، وان تذرعت السلطات العسكرية بأسباب تافهة فقصفت الميدان بالمدافع ودمرت فيه نحو الف منزل ، وأباحت بمقياس واسع ، وأخذت تضيق الحناق على مراكز الثورة الرئيسية ، وتعيد تمثيل أدوار التنكيل والتعريق والتدمير والغرامات . وعمدت السلطات الافرنسية الى الاستعانة على هذه المقاصد بالمتطوعة الشركسية والأرمنية والاسماعيلية والنصيرية والمارونية والدرزية من كتائب الجيش المحلي والتي اعدت خاصة لمثل هذه المواقف على ما قلناه قبل . وكان ينطوي في هذا التدبير اللثيم بنوع خاص نية إضرام نار الحقد والبغضاء والفتنة بين

(١) الدأما دأحمد نامي كان يطلق على من له صلة مصاهرة بالأسرة العثمانية ومعنى الكلمة « صهر »

سكان البلاد وجعل هذه العناصر والطوائف تستمسك بالفرنسيين وتخاص في خدمة أغراضهم خوفاً من أهل البلاد وطمعاً بالحظوة .

ولقد كان لكل ذلك أثر ما في تخفيف حركة الثورة بالرغم مما أبداه المجاهدون من بسالة وإقدام وبطولة في مختلف الجبهات . واغتنم جوفنيل الفرصة فأباح لمتطوعة الشراكس والأرمن هذا الحلي فعاتت فيه تحريقاً ونهباً وفتكاً وهتكاً ، ووسعت نطاق قهرها حيث تناول قرى الغوطة بالتحريق والتدمير والنهب وتقتيل الأبرياء الذين لا علاقة لهم بأعمال الثورة والتمثيل بمن ظفروا به من رجال الثورة تمثيلاً لثيماً . . مما أحدث رد فعل شديد في الشعب ، وحمل الوزراء الوطنيين الثلاثة على المطالبة بالكف عن سياسة القمع والسير في نطاق المنهج المتفق عليه بالنسبة للوحدة والاقاليم المضمومة إلى لبنان ؛ ويظهر أن زملاءهم في الوزارة لم يتضامنوا معهم في الموقف فطلبوا من الرئيس تعديل وزارته وجعلها متجانسة ومخلصة للمنهج المتفق عليه ؛ فلم يلبثوا أن فوجئوا باستقالة الوزارة وإعادة تأليفها بدوهم ، وباعتقلهم مع سعد الله الجابري وفوزي الغزي وأديب الصفدي وبدر الدين الصفدي ونفيهم إلى الحسجة ثم إلى أميون لبنان حيث بقوا كذلك شهوراً عديدة ولم ترد إليهم حريتهم إلا بعد انسحاب جوفنيل بمدة طويلة .

- ٩ -

وفي أواسط عام ١٩٢٦ انسحب جوفنيل من سوريا نتيجة للضجة التي ثارت حول كوارث التدمير والطغيان في القمع ولاخفافه في مراوغاته وحيله وإيجاد فئة تتعاون معه على ما أراد من حلول هزيلة . وقد ظلت الثورة مشتتة بعده مدة أخرى ، غير أن الحملات القوية الجديدة أخذت تنجح في ضغطها وتطويقاتها واستطاعت ان تضطر المجاهدين الى الانسحاب خطوات بعد خطوات من جبهات القتال في الغوطة ثم في الجبل ؛ ولا سيما ان التعب أخذ يبدب فيهم ، والعتاد والمال والوسائل الضرورية تشح بين أيديهم حتى اذا كان صيف عام ١٩٢٧ كانت بقية السبوف وخاصة بني معروف قد نزحت الى شرق الاردن . وهنا كشر الانكليز عن ناهم لهم ، حيث كانوا نالوا ما يريدونه من فرنسا من تعديلات حدودية ، فاضطروا الى الالتجاء إلى قريّات الملح في أراضي المملكة السعودية بعد أن نال

بعض رجال الحركة الاذن لهم بذلك من الملك عبد العزيز ، وأقاموا فيها بضعة سنوات متجلبدين صابرين على الشظف والحرمان بعد نضال رائع وبطولة فائقة امتد امدهما سنتين طويلتين ، هذا مع التنبيه على أنهم ظلوا على صلة بالحركة الوطنية في خطوات الحلول النصفية التي حاولت أن تفرضها فرنسا ، وكانت لصلتهم تأثير توجيهي قوي في مختلف أدوار هذه الخطوات .

امرات مؤسفة في صفوف العاملين في الثورة وأثرها

ونقول مع الاسف إن رجال الحركة الذين اشتركوا في الثورة وتنظيمها وتحويلها وتمويلها لم يبقوا اثناءها متمسكين متضامنين ؛ فقد وقع بينهم انشقاق في صدد ادارة الثورة وتمويلها وتمويلها ، وسرى ذلك إلى صفوف المجاهدين وقادتهم مما نتج عنه بعض صور ووقائع محزنة ، وكان ذلك من عوامل ما طرأ على حركة الثورة من فتور وضعف ، وما كتب لحركات القمع الشديدة من نجاح ؛ وقد كان هذا الانشقاق شبه امتداد لما كان من حركات انشقاقية وتشاد وتجادب بين رجال العهد الفيصلي ، حيث كان المتشادون المتشاقون . يمثلون الفئتين المتشادتين المتشاققتين في ذلك العهد أو يمتنون اليهما .

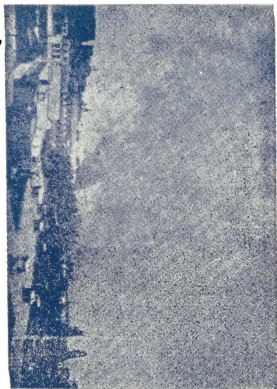
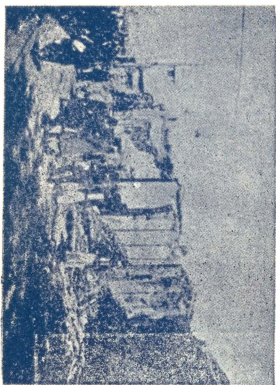
أثر الثورة في الروح الوطنية

على ان ذلك الجهاد الأبي القوي والضحايا العزيرة ، والعزيمة القوية لم تكن لتذهب سدى . فقد كان ذلك كله دلائل قوية وهاجة النور على قوة الروح القومية في الشعب السوري وتقديره قيمة الحرية والكرامة والاستقلال ، وإبائه الضيم والحسف والخضوع الذي أراد المستعمر الغشوم فرضه عليه ، واقدامه على التضحيات الباهظة في سبيلها اذا تزعم حركاته زعماء وضعوا نصب اعينهم التضحية والاقدام واسعفت الوسائل والظروف ؛ كما كان له صدى قوى في الاوساط السياسية العالمية ، وكان مادة فياضة للاحتجاجات والدعاية التي قام بها رجال الحركة في الخارج ومدداً لا ينضب استمدت منه الحركة الوطنية في الداخل في الادوار التالية لها قوة وعزيمة وروحاً . وليس من ريب في انه كان ذا اثر بليغ في فرنسا نفسها ، وأنه



سلطان الاطرش

مدينة دمشق تعترق



جثث شهداء الثورة تعرض في المرجه

فريق من شهداء الثورة السورية



عز الدين الحلبي



فائق العسلي



احمد مريود



صالح قنبار



توفيق الحلبي



حمد البربور



عادل زنكد



فؤاد سليم



حمد الاطرش

برهن لها على حيوية الشعب العربي وإبائه واستمرار انقاد الشعلة القومية بل وازديادها انقاداً، وعلى استحالة قتل الروح القومية الاستقلالية فيه مهما استطاعت كبح جماحها بالقوة العاشمة المتفوقة ؛ ومحاولاتها بسبيل إيجاد حلول نصفية بعد انفجار الثورة تمت بصلة ما إلى المطالب الوطنية إنما كانت نتيجة لذلك الاثر . ولكن الروح الاستعمارية الباغية التي أملت عليها الغدر والتكر لمبادئ الحق والحرية والوفاء منذ الأصل والتي كانت تغلف أحياناً بالاعتبارات العاطفية وأخرى بالتقاليد والمصالح كانت طاغية على رجالها ، فكان ذلك عاملاً في استمرار البلاء على سوريا واستمرار المراوغات والمخاتلات والغدر في المدة الطويلة التي تلتها .

- ٩ -

بونسو ومكره

وجاء بونسو في أواخر عام ١٩٢٦ خلفاً لجوفنيل ، وكانت الحملات العسكرية ضد الثورة في طريق النجاح . وقد أعلن فيما أعلن أنه آت لانقام الحطة التي اعتزمها سلفه والتي وافقت عليها الحكومة الافرنسية وجمعية الامم والمستمدة من ميثاق هذه الجمعية ؛ وهي تمهيد السبيل لنمو سوريا ولبنان نمواً تدريجياً كدول مستقلة وتنشيط الاستقلال الداخلي على قدر ما تسمح به الظروف والاستمرار في القيام بواجبات الانتداب المعهودة إلى فرنسا ! وان كل هذا يجب ان يتضمنه الدستور المقبل ؛ غير أنه لا يمكن ان يتم طفرة او ان يكون من شأنه تخلي فرنسا عن مهمة ضمان الأمن والسكينة والارشاد . وهكذا دشّن عهده ببشرى سيادة الروح الاستعمارية واستمرارها مع محاولة لفها ببرقع زائف .

ولقد اقام هذا المفوض في منصبه نحو سبع سنين أي مدة تعدل مدة جميع من سبقه ، وقضت البلاد في عهده دوراً عجبياً آخر من المراوغات والمخاتلات والمحاولات بسبيل الحلول الهزيلة . وكان هذا الرجل على عكس جوفنيل سكوتاً بارع المراوغة في صور الدس والاختبار والمشاورة وعدم الاهتمام للوقت ؛ حيث كان يمر الأشهر الطويلة بين خطوة وخطوة ومرحلة ومرحلة مع أن الخطوات والمراحل كانت تقتضي التلاحق . وكان هذا متعمداً من دون ريب للتخدير وإيجاد الثغرات وصرف الافكار

إلى انتظار نتائج الخطوات والمراحل بشيء من الأمل والسكوت .

ولقد قضى نحو ثمانية عشر شهراً منذ قدومه بحجة الدرس والاختبار والمشاورة مع باريس ؛ ثم خطا خطواته إلى دعوة جمعية تأسيسية تضع دستوراً لسوريا وينبثق عنها حكومة ممثلة للشعب تسير مع فرنسا في طريق الحل الملائم للقضية ، وقد اصدر تصريحاً وعد فيه بحرية الانتخابات ، وقيد الدستور المطلوب وضعه مع ذلك بنطاق مهمة فرنسا الانتدابية المستندة إلى صك الانتداب ، وأصدر عفواً استثنى فيه عدداً كبيراً من زعماء الثورة ورجال الحركة القومية . وهكذا كانت خطواته الأولى في سبيل حل قضية سوريا متعثرة بالروح الاستعمارية وكانت خطواته التالية كذلك طيلة عهده؛ مع ما كان في خطواته من تظاهر بالرغبة في مسايرة المطالب الوطنية على النحو الذي كان رجال الحركة والجهاد يصرون عليه بما يصح ان يسجل انه اثر من آثار الثورة والحركة.

الكتلة الوطنية

وفي اثناء هذه الحقبة نشأت الكتلة الوطنية على انقاض حزب الشعب الذي غادر عدد من أعضائه البلاد منذ انفجار الثورة ولم يعد ينشط خلالها . وقد انضم إلى أعضائه الذين بقوا في البلاد فريق آخر من المتسقين معهم في المبادئ الوطنية . فغدت هذه التشكيلة تمثل الحركة القومية في سوريا وتقودها وظلت كذلك إلى الحرب العالمية الثانية ، وكان ينضم إليها من آن لآخر من يتيسر له العودة من رجال الحركة أو من ترى في انضمامه فائدة من رجال البلاد الآخرين .

وبمناسبة تصريح بونسو ودعوته إلى جمعية تأسيسية عقدت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة اجتماعاً ضم جمهرة الرجال الوطنيين الذين ظلوا خارج البلاد وتقرر فيه اذاعة بيان بوجوب تضمن الدستور وحدة سوريا الطبيعية وسلطانها القومي بدون شائبة ؛ وأذاع سلطان الاطرش بياناً مثل هذا وموجباً أن يكون جبل الدروز ضمن الوحدة السورية، وعقد أنصار الوحدة في مناطق لبنان واللاذقية مؤتمراً في دمشق قرروا فيه تأكيد الميثاق القومي والمطالبة بالنص على الوحدة

السورية التي تضم جبل الدروز ومنطقة اللاذقية والاقضية الاربعة وجبل عامل وسائر المناطق التي ضمت إلى لبنان وحاربها كبيراً ولم تكن منه قبل ذلك . وقد كان غورو أعلن بتاريخ ٣١ آب سنة ١٩٢١ ضم جبل عامل وصيدا وصور وطرابلس الشام وحصن الأكراد وبيروت وراشيا وحاصبيا والبقاع وبعبك الى لبنان القديم وسماه لبنان الكبير ضارباً بعواطف ورغبات أهل هذه البلاد التي لم تكن داخلة فيه عرض الحائط ؛ وكانت الاقضية الاربعة تابعة لولاية سوريا وجبل عامل وصيدا وصور وطرابلس والحصن وبيروت تابعة لولاية بيروت التي كانت تضم كذلك لوائي عكا ونابلس في فلسطين ؛ واكثرية البلاد المنضمة مسلمة .

وقد كانت الوفود المشتركة في هذا المؤتمر من الطبقة الوطنية المحترمة في مناطقها والمعبودة عن رأي أهلها تعبيراً صادقاً . وقد كان لهذه الحركات والبيانات أثر قوي في شد أزر الكتلة الوطنية وتثبيتها كما كانت إعلاناً جديداً عن تغلغل فكرة الوحدة القومية في مختلف المناطق الشامية ، وعن تدمير الذين ضموا إلى لبنان بالرغم عنهم .

- ١٠ -

الجمعية التأسيسية والمرسور

وفي ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٨ جرت انتخابات الجمعية التأسيسية واشتركت الكتلة الوطنية فيها بالرغم مما كان من تقييد بونسو الدستور بنطاق الانتداب وغموض وعوده ومقاصده ، وأذاعت بياناً أكدت فيه حرصها على تحقيق الأهداف القومية في هذه الخطوة ، فحالف مرشحها النجاح بمقياس متناسب مع الروح الوطنية التي كانت سائدة بقوة الثورة وتضحيات البلاد وبطولة المجاهدين بما لم يكن يتوقعه الافرنسيون وجعلهم يحسبون له الحساب . وسارت الجمعية في عملها إلى ان تم وضع دستور احتوى فعلاً مطالب البلاد كالنص على السيادة والوحدة وعدم اعتبار ما كان من تجزئة ، وحقوق رئيس الجمهورية بصفته بمثل السيادة القومية ، وحقوق المجلس النيابي ومسؤولية الوزارة أمامه والتمثيل الخارجي والجيش الخ .

وقد كانت المواد التي تنص على ذلك والتي عرفت بالمواد الست موضوع تشاد

بين الجمعية وبنسو (١) ؛ لأن هذا اعتبرها متعارضة مع مهمة الانتداب وغاياته وطالب بمحذفها . وأبت الجمعية ذلك بقوة وتأثير النواب الوطنيين لأن الدستور بدونها يغدو تافهاً والدولة تكون محرومة من سيادتها واستقلالها . وجرت الاتصالات والمراجعات بسبيل التوفيق ؛ ولقد سارت الجمعية في هذا الطريق شوطاً غير يسير حتى أثر عن ابراهيم هنانو زعيم الكتلة الوطنية قوله « لقد تساهلنا إلى ان كدنا نقع في الحيانة » حيث اقترحت من جملة ما اقترحته للخروج من المأزق هذه التعديلات :

أولاً ان أحكام المواد ٧٣ و٧٤ و٧٥ و١١٠ و١١٢ تنفذ باتفاقات خاصة بين الحكومتين السورية والفرنسية ريثما تعقد المعاهدة لتحديد العلاقات بين الدولتين .

ثانياً تعدل المادة الثانية من الدستور على الوجه الآتي : البلاد السورية وحدة سياسية لاتتجزأ وحقوق الاعتراض على التجزئة مضمونة .

غير ان الروح الاستعمارية أبت ان تتساهل لأنها رأت في التساهل انهماكاً وتحلياً عن مطامعها ، فأجل بنسو الجمعية الى اجل غير مسمى ورفض ما قدم له من حلول تساهلية ولم يعبأ بما كان من احتجاج الجمعية التأسيسية والهيئات الوطنية واستيائها ، ولم ينجل من ترديد نغمة سوء النية وعدم الثقة والرغبة في الشغب التي

(١) هذه نصوص المواد المذكورة :

المادة (٢) ان البلاد السورية المنفصلة عن السلطنة العثمانية ذات وحدة سياسية لاتتجزأ ولا عبرة لكل تجزئة طرأت بعد الحرب العامة حتى اليوم .

المادة (٧٣) لرئيس الجمهورية حق العفو العام . أما العفو الخاص فلا يمنح الا بقانون .

المادة (٧٤) يتولى رئيس الجمهورية عقد المعاهدات الدولية وبراها . أما المعاهدات التي تنطوي على شروط تتلحق بسلامة البلاد أو بمالية الدولة ، والمعاهدات التجارية وسائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها سنة فسخة فلا تعد نافذة الا بعد موافقة المجلس عليها .

المادة (٧٥) يختار رئيس الجمهورية رئيس الوزراء ويعين الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم ويقبل استقالتهم ويولي الممثلين الأجانب السياسيين ويقبل الممثلين ويعين الموظفين والقضاة ويرأس الحفلات الرسمية ضمن حدود القانون .

المادة (١١٠) تنظيم الجيش الذي سينشأ يكون بقانون خاص .

المادة (١١٢) رئيس الجمهورية يعلن بناء على اقتراح مجلس الوزراء الأحكام العرفية في الاماكن التي تحدث فيها اضطرابات او فوضى . ويجب ان يعرض إعلان الاحكام العرفية المذكورة على المجلس النيابي فوراً . فاذا كان المجلس غير منعقد دعاه للاجتماع بوجه السرعة .

كانت الافرنسيون يرددونها إزاء المواقف الوطنية . ثم اذاع بعد سنة بقرار منه دستور الجمعية التأسيسية بعد إدخال كثير من التعديلات عليه، ووضع مادة اضافية اخيرة وهي المادة (١١٦) التي تعطل استعمال رئيس الجمهورية. وحكومته بعض الحقوق والصلاحيات التي ذكرت في المواد الست الآتفة الذكر حيث عدلت المواد ٢٥ و ٨ و ١٤ و ١٧ و ٢٤ و ٤١ و ٦٨ و ٧٥ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١١٥ والغيت المادة ٦٠؛ والتعديلات متصلة بالوحدة والجيش والحرية الشخصية وحرية الصحافة واللغة العربية والانتخابات وصلاحيات رئيس الجمهورية ومدته، ومثلة للروح الاستعمارية المتحكمة في الافرنسيين، ومحققة لرغبة التدخل وشل معنى السيادة . اما المادة (١١٦) المضافة فهذا نصها :

« ما من حكم من احكام هذا الدستور يعارض ولا يجوز ان يعارض التعهدات التي قطعتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسوريا - لا سيما ما كان منها متعلقاً بجمعية الامم . ويطبق هذا التحفظ بنوع خاص على المواد المتعلقة بالمحافظة على الامن والدفاع عن البلاد وبالمواد التي لها شأن بالعلائق الخارجية ولا تطبق احكام هذا الدستور التي من شأنها ان تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسوريا اثناء مدة التعهدات إلا ضمن الشروط التي تحدد باتفاق يعقد بين الحكومتين الافرنسية والسورية . وعليه إن القوانين المنصوص عليها في مواد الدستور والتي قد يكون لتطبيقها علاقة بهذه التبعات لا يناقش فيها ولا تنشر وفقاً لهذا الدستور إلا تنفيذاً لهذا القرار ، وإن القرارات ذات الصفة التشريعية او التنظيمية التي اتخذها ممثلو الحكومة الافرنسية لا يجوز تعديلها إلا بعد الاتفاق بين الدولتين . »

وقد أثارت هذه التعديلات والتحفظات العجيبة التي مسخت الدستور والاستقلال والسيادة وحرية مجلس النواب والحكومة ورئيس الجمهورية الهياج وقامت المظاهرات الاحتجاجية ، وأضرب الناس في دمشق وغيرها ، وأعلنت الكتلة الوطنية أنها لن تنقيد بها وأنها لن تتراجع عن اعتبار دستور الجمعية هو القائم الواجب احترامه وتطبيقه . ودعا سلطان الأطرش الى مؤتمر يعقد في مربض المجاهدين في الصحراء فاستجاب اليه فريق كبير من رجال الحركة الوطنية ، وقرر المؤتمر تجديد العهد على إنقاذ سوريا وتحقيق مطالبها وحقوقها كاملة .

وبما جرى أن بونسو أقدم على حركة أثبتت إصرار فرنسا على النهج الاستعماري الخاص بجبل الدروز ومنطقة اللاذقية بما أشرنا إليه في مناسبة سابقة ؛ حيث أصدر مع دستور سوريا ثلاثة دساتير أخرى واحداً لجبل الدروز وثانياً لمنطقة اللاذقية وثالثاً لمنطقة الاسكندرونة تنص على استقلال هذه المناطق مالياً وإدارياً ، وحصر دستور سوريا المسوخ في مناطق دمشق وحوران وحلب وحماه وحمص .

- ١١ -

الجمهورية السورية الاولى في ظل الانتداب

وصبر سنتين طويلتين ثم أعلن في أوائل ايلول من عام ١٩٣٢ موعداً لانتخاب المجلس النيابي الذي ينص عليه دستوره . وقد حصل قبيل هذا الاعلان من زعماء الدروز والعلميين الأنصار المندمجين في السياسة الفرنسية والذين كانوا يتحكمون بتعزيد فرنسا في رقاب شعبيهم على مضابط ببقاء الانتداب الفرنسي والرغبة في الانفصال والكيان الخاص مقدمة لما يراود أن تكون عليه المعاهدة المزمع عرضها على سوريا . ولم يكتف بهذا بل حصل على مضابط من المسيحيين الأنصار بطلب بقاء الانتداب والرغبة في الحماية الفرنسية والنص على ذلك في المعاهدة !

وجرت الانتخابات فنذرت السلطات الفرنسية ما بيته وتدخلت تدخلاً فظيعاً في الانتخابات لضمان فوز مرشحيها ، وكان لعمالها وضباط استخباراتها خاصة دور كبير في هذا الباب حيث أمكنهم نشر جو كئيب من الارهاب ، وأصلت السيف على رؤوس زعماء الوطنيين وصحفهم واجتماعاتهم ، وشجع الأنصار والمأجورون على نشر المنشائر ضدّهم وإلصاق تهمة التآمر على الوطن والمآرب الذاتية والمهوس بهم . ولقد أدى تدخل السلطات السافر في الانتخابات لصالح موالبيها ضد الوطنيين إلى مظاهرات وهياج وتحطيم صناديق الانتخاب في أماكن كثيرة ووقوع اشتباكات بين الجيش والشعب وجرح عدد من الأهالي واعتقال عدد كبير من الشباب في دمشق وحلب وحماه . وكانت نتيجة الانتخابات فوزاً ساحقاً لمرشحي السلطات بحيث بلغ عددهم ٥١ من ٦٩ ؛ وقد قدمت الطعون الموثقة بالوثائق الدامغة ولكن أكثرية المجلس بتشجيع السلطات لم تعبأ بذلك وصدقت الانتخابات واعتبرتها صحيحة .

ولقد تردد نواب الكتلة الوطنية في الاشتراك في المجلس بعد هذه النتيجة ، ثم رأوا أن يسيروا في الشوط مرحلة أخرى فقرروا الاشتراك في المجلس والوزارة . وقد انتخب محمد علي العابد رئيساً للجمهورية بموافقة الوطنيين الذين تفادوا بهذا نجاح مرشح السلطة صبحي بركات ، مع أن محمد علي العابد كان ممن فازوا في الانتخابات من مرشحيها . وتولى رئاسة الوزارة حقي العظم الذي كان كذلك من مرشحيها ودخل جميل مردم ومظهر رسلان من الكتلة فيها .

المعاهدة الائتمانية ورفضها

وبعد قليل ظهر ما كان ميئاً حيث عرض المفوض السامي معاهدة معدة لتحقيق سيادة ولا وحدة فقررت الكتلة انسحاب ممثليها من الوزارة وأعلنت عزمها على مقاطعة المجلس فأجّل عرض المعاهدة .

واعفي بونسو من المنصب وعين دومارتيل خلفاً له . وقد اضطلع بعبء عرض المعاهدة وتصديقها . وقد تبادل التوقيع عليها فعلاً مع رئيس الوزارة في اواخر عام ١٩٣٣ ؛ وكانت تنص على توكيل فرنسا في تمثيل سوريا الخارجي ، وفرض مساعدة فرنسا العسكرية في حفظ الامن والدفاع ، وبقاء الانتداب الى ان تقبل سوريا في عصبة الامم ، وتعليق مساعدة فرنسا في هذا القبول على وصول سوريا الى حالة من الرقي تسمح بذلك ، وفرض مساعدة فرنسا في تنظيم دوائر الحكومة والدرك والشرطة والجيش لتحقيق ذلك الرقي في فترة قدرت بأربع سنين مبدئياً ، وبقاء قوات برية وجوية في اراضي سوريا للغايات المذكورة ، كما كانت تنص على استقلال جبل الدروز ومنطقة اللاذقية الذاتي والمالي والاداري . ولم تر فرنسا بأساً بعد كل هذه النصوص في النص على استقلال سوريا وسيادتها ، وعدم اعتبار وجود قواتها احتلالاً ، واعتبار جبل الدروز ومنطقة اللاذقية جزءاً من سوريا !! جرياً مع الذهنية الاستعمارية بأن العرب يقنعون بالاقوال والاشكال ، وقد وجدوا منهم من يقنع بذلك ويوافق على المعاهدة .

وقد عرضت الحكومة المعاهدة على المجلس ، وكانت اخبارها قد اثارت هياجاً

وصخباً ؛ فاضطر كثير من نواب السلطات الى التوافق مع نواب الكتلة الوطنية وقرروا رفضها ووقعوا على مضبطة بذلك . ووزعت المعاهدة على النواب وبدى بمناقشة عامة حولها ، والقى وزير المالية خطاباً مستفيضاً في الدفاع عنها في جلسة ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٣ . حينئذ تقدم جميل مردم الى المنبر فتلا مضبطة الرفض ؛ وبدا ان السلطات كانت تتوقع ذلك حيث وقف مندوب المفوض السامي وتلا قبل ان ينتهي جميل مردم من تلاوة السطر الاخير من المضبطة قراراً من المفوض بوقف المجلس جاء فيه انه قرر وقف مذاكرات المجلس لانه خرق احكام مواد الدستور بمناقشته في موضوع غير موضوع الميزانية المعروضة عليه تحت تأثير المظاهرات . ولكن محضر الجلسة كان قد دون الوقائع والمضبطة ايضاً . وقد امر المفوض الحكومة بسحب المعاهدة من المجلس فأرسل رئيس الوزارة كتاباً جاء فيه انه ثبت قلة استعداد مجلس النواب للاشتراك في مسؤوليات المعاهدة ولذلك رأى فخامة المفوض السامي استردادها لانه لا يجوز وضع اعباء المناقشة فيها على عاتق مؤسسة لم ترسخ فيها ممارسة الاحكام الدستورية والتقاليد النيابية . .

على ان اكثرية اعضاء المجلس اجتمعت في دار رئيسها بعد ان منعت الاجتماع في دار البرلمان ووقعت بياناً احتجت فيه على تدخل السلطات الانتدابية ووقفها الحياة النيابية ، واعلنت توكيد رفضها للمعاهدة المغايرة لرغائب الامة من وحدة وسبادة واستقلال . وهكذا باءت المحاولة بالاخفاق ، واثبتت سوريا وعيها ، وجرفت قوة روحها الوطنية كتلة كبيرة من مرشحي السلطات الذين اختارهم ليكونوا آلات طيعة في يدها ؛ وكان لهذه النتيجة رد فعل عظيم في البلاد فاقامت حفلات الحفاوة والتكريم للنواب ، كما قامت المظاهرات الاحتجاجية على تعطيل المجلس . ولم تكن السلطات التي تستلمي الروح الاستعمارية لتخجل مما قالته وفعلته مع انه هو الذي لا يتفق مع المنطق والحق والدستور والواقع .

ومن المؤسف ان الوزارة ظلت في الدست بالرغم عن مامنيته به من صدمة واخفاق وبالرغم من وقف المفوض السامي للحياة النيابية التي انبثقت من دستور نافذ وقامت الجمهورية الاولى وحكومتها على اساسه ؛ بل انها لم تبال فضلاً عن ذلك ان تكون واسطة تبليغ لقرارات المفوض السامي ؛ بل واقد سارت شوطاً ابعد في النكابة

حيث نفذت ايعازاً انتقامياً فأنزلت مخصصات اعضاء المجلس وملاك ديوانه رغم نص الدستور .

على ان كل هذا الاندماج والمالأة لم ينجها من المصير المحتوم ؛ فقد اوعز لها بالاستقالة بعد قليل من هذه التمثيلية لتحل محلها حكومة الشيخ تاج الدين .

حكومة الشيخ تاج الاولى

وحاول هذا اقناع الكتلة الوطنية بالتعاون معه للخروج من المأزق ؛ وقد كان التوتر مشتداً بين الكتلة والسلطات فلم تر الكتلة هذه المرة وجهاً ولا فائدة في ما دعيت اليه فألف وزارته من عناصر أخرى ؛ وظلت الكتلة تتولى تسيير الحركة نحو تحقيق الميثاق وتوالي احتجاجها ونشاطها .

وقد ادى هذا الموقف السلبي الى اشتداد التوتر بين السلطات الافرنسية وحكومة الشيخ تاج من جهة وبين الكتلة التي كان الشعب يؤازرها وينضوي تحت لوائها من جهة اخرى .

قوة الحركة الوطنية وأمرات عام ١٩٣٥

ولم تكد تنتهي سنة ١٩٣٤ حتى اخذت الحركة الوطنية تعود الى قوتها وترزعج السلطات الحكومية السورية والانتدابية معاً وكان شعارها سقوط الحكومة التاجية وتحقيق الميثاق على يد الكتلة . وقد كانت الى هذا حركة مقاطعة للكهرباء والتوام قادها فخري البارودي أحد رجال الكتلة احتجاجاً على تعسف الشرطة الاجنبية ، فكانت هذه الحركة وسيلة الى الهاب الشعور الوطني المتقد ، وعمدت السلطات الى القمع بالعنف فاعتقلت فخرياً وبعض مساعديه ونفثهم الى مركز في الصحراء كما اعتقلت كثيراً من مساعديه الآخرين فازدادت النار اشتعالاً واعلنت دمشق الاضراب العام وتبعته المدن الاخرى ، واستمر اضراب دمشق خاصة نحو شهرين تكررت فيها المظاهرات الصاخبة والاشتباكات الدموية والاعتقالات ،

وغدت البلاد وخاصة دمشق في حالة ثورية عصبية، كانت تشتد كلما اشتد الافرنسيون في العنف والشدة . وبذل الشيخ ما استطاع من جهد لتلافي الحرج فلم يفلح، وخشي دومارتيل أن تتطور الامور الى ثورة كبرى جديدة ، ولم تزل صورة الثورة الكبرى ماثلة للعيان بما كبدهه للافرنسيين من جهد وضحايا فجنح الى المسايرة ، واجتمع برئيس الكتلة الوطنية هاشم الاناسي الذي استلم دفة الزعامة بعد موت هنانو ووقع الاثنان اتفاقاً مبدئياً على خطوط حل يتسق مع المطالب الوطنية علي أن تجري المفاوضات بشأنها في باريس .

اقالة الشيخ والمعاهدة الثانية

ثم أقال حكومة الشيخ تاج في شباط ١٩٣٦ وعين حكومة انتقالية حيادية برئاسة عطا الايوبي وعضوية وزراء رضيت عنهم الكتلة ، واعيد فخري البارودي من منفاه ، وأفرج عن بقية المعتقلين وكان ذلك بما اتفق عليه أيضاً ، فانفجرت الازمة وفكّ الاضراب الطويل الذي كان له صدى بعيد في الأوساط السياسية المختلفة والذي كان الاول من بابها أيضاً بحفاوة وطنية استشعر بها الشعب بعزته وكرامته . وسافر وفد المفاوضة المؤلف من رئيس الكتلة وبعض أعضائها وبعض اعضاء الوزارة الى باريس ومعهم دومارتيل وجرت مفاوضات انتهت بعقد معاهدة أيلول عام ١٩٣٦ التي كانت علي غرار المعاهدة العراقية - الانكليزية حيث جعلها رجال الحركة الوطنية نموذجاً واسوة ... وقد نصت على السيادة والاستقلال وحق سوريا في التمثيل الخارجي ، وعينت فيها فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات تسلم الحكومة الوطنية خلالها ما في ايدي السلطات الانتدابية من دوائر وسلطات حكومية مشتركة وغير مشتركة وتدخل سوريا عقب انقضاء عصة الامم . ومع انها كانت تنطوي على ثغرات عديدة وخاصة في صدد صفة الوحدة السورية حيث أصر الافرنسيون على ان يكون جبل الدروز واللادقية ومنطقة الاسكندرونه بعض الامتيازات والشخصية الخاصة، وكذلك في صدد مركز فرنسا السياسي والعسكري والارشادي والثقافي والاقتصادي حيث الحق بالمعاهدة ملاحق تسجل لفرنسا امتيازات

وحقوقاً ومنافع عديدة في هذه الشؤون فانها كانت على كل حال خطوة جديدة ومستقيمة الى تحقيق الميثاق القومي .

وقد جرت الانتخابات المجلس النيابي الجديد ففاز مرشحوا الكتلة فوزاً كبيراً، وانتخب هاشم الاناسي في كانون الاول من عام ١٩٣٦ رئيساً للجمهورية بدلاً من محمد علي العابد الذي نصح بالاستقالة تفادياً من الاقالة والخلع ، وتألفت أول حكومة يصح ان تسمى الحكومة الوطنية الاستقلالية برئاسة جميل مردم وعضوية سعد الله الجابري وشكري القوتلي والدكتور عبد الرحمن الكيالي ، ونعت عهدها بالعهد الوطني .

الفصل الثاني

العهد الوطني الاول

١٩٣٦ - ١٩٣٩

- ١ -

المجوبة الوطنية في العهد الوطني

لم يكد هذا العهد يقوم وتستلم الحكم فيه الكتلة الوطنية التي كانت كثرتها من رجال الحركة القومية الأولين ومن كان لهم دور بارز في عهد فيصل وما بعده من عهود النضال حتى أخذ جو الشام يتبدل ويتبسم بعد ذلك العبوس المرير المديد، ويشبه بعض الشبه جوّها في عهد فيصل، وأخذ نسيم العزة القومية يهب فينعش الأرواح ويثير الحاس، وأخذت الحركة العربية تستعيد جيشانها وحيويتها، والنشاط القومي يبدو قوياً، وأداة الحكم تدور في دائرة الإصلاح والاحياء والانعاش والتنظيم واستصدر العفو عن المحكومين من زعماء الثورة ورجال الحركة القومية فأخذوا يعودون إلى الشام وتقام لهم الاستقبالات الرسمية والشعبية الحافلة، وبالجملة فقد بدأ عهد يبعث في النفوس الاستبشار والتفاؤل .

دسائس الافرنبيين للعهد

غير أن الدسائس لم تلبث أن أخذت تدس لهذا العهد فتعكر صفوه، وتلبد جوه، وتعقل سيره، وأخذ الناس يشعرون أن فرنس الاستعمارية لم تتغير، وأن ما بدا منها من الجنوح للملاينة لم يكن الا من قبيل مساية الظروف الخارجية والداخلية، حيث كانت نذر الثورة نهدر في الداخل وشبح الحرب العالمية بسبب أزمة عدوان الطليان على الحبشة واستعادة الألمان حيويتهم وحريتهم ومطامحهم يتراءى في الخارج

ولقد لعب الموظفون الافرنسيون المحليون وضباط الاستخبارات خاصة في سبيل إحباط هذا العهد دوراً لثيماً وفظيماً جداً. فقد كانوا يتمتعون بالجاه والمركز والنفوذ والمرتبات الضخمة والامتيازات ووسائل الاثراء المتنوعة، وكانوا المنفذيين للسياسة الاستعمارية التي سير عليها خلال المدة الطويلة، ولم يكن أكثرهم ذوي كفاءات علمية وفنية وإدارية تفسح لهم مجال الرزق الواسع في ميدان آخر أو في فرنسا مثلاً، ورأوا في نجاح هذا العهد قطع أرزاقهم ونهاية مجدهم، فقابلوه بالسخط واعتزموا الدس له وإحباطه وعدم تبشير استلام أي إدارة أو صلاحية من الإدارات والصلاحيات التي كانت في يد السلطات الانتدابية والتي نصّت المعاهدة على تسليمها خلال فترة السنوات الثلاث للاحتفاظ بما كانوا يتمتعون به من جاه ورغد رزق من جهة، والكيد لرجال العهد القوميين الذين وقفوا من السلطات الاستعمارية التي كانت تتمثل في اشخاصهم موقف المناضل منذ البدء والذين لم يندمجوا في ما كان يعرض من حلول هزيلة تحفظ لهم ذلك الرزق والمجد من جهة أخرى . فأخذوا يتأمررون على العهد ويكيدون لرجاله بكل وسيلة . وقد أكسبهم طول المران براعة وقدرة في الكيد والدس وإثارة الهواجس والفتن والأحقاد، كما أنهم استطاعوا مع الزمن أن يكونوا أنصاراً وأعضاءاً مأجورين أو طامعين أو حافدين، ولم يتورعوا عن أي شيء في سبيل تحقيق غرضهم والوصول إلى هدفهم .

ولقد نجحوا في مؤامراتهم ومكائدهم بما بثوه من دعايات وتحريضات، وأثاروه من هواجس وفتن، وشجعوا عليه من شقاق ونفاق ومعارضة حزبية شخصية، وفتحوه تحت أقدام الحكومة من هوات هاوية، وأدخلوها فيه من مآزق محرجة، ونحتوه من أثلتها وأضاعوه من هيبته ونفوذهما وعطلوه من مشاريعها في سورية، وبما لفقوه من أكاذيب ورفعوه من تقارير في باريس، وقد استند رجال الأحزاب الاستعمارية والعسكرية إلى ذلك كله، واستغلوا ما كان من أزمات عالمية فحملوا الحكومة الفرنسية على أن تخطو في النهاية خطوتها الغادرة الى نكث العهد ونقض الميثاق، ونقض اليد من المعاهدة التي وقعتها، والعهد الذي قام عليها .

ومع أنه قد يكون ارتكب في هذا العهد ومن قبل رجاله القاتنين به بعض الأغلاط ووقع بعض المفوات، وكان هناك بعض اجتهدات وأعمال خاطئة أو

تقصير في ما يجب العناية به من مختلف الشؤون وخاصة وسائل النضال وتقوية الجبهات الشعبية، أو كان هناك جنوح الى مسيرات ومساعدات لإرضائية في الوظائف وغيرها، ومع أن الضعف في بنية الامة ظل شديداً لا يمكن المكابرة فيه فان هذا وذلك كانا طبيعيين بعد أن مر بالبلاد ما مر من عهد طويل مملوء بالدسائس والمكائد والدعايات والعثرات والعراقيل والتوجيهات الاستعمارية، وبسبب عدم مراعاة الفئات الصالحة في أخلاقها وقابليتها وعدم النضوج بوجه عام في شؤون الحكم والدولة، ثم بسبب ما كان جاثماً على صدر البلاد من كابوس إرث استعماري ضخم من القوانين واللوائح والموظفين والوظائف والمناهج والتنظيمات والشركات والامتيازات وجهاز الحكومة، وإنه كان في الامكان تحسن الحال واستقامة الأمور والسير في سبيل الإصلاح الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والتشريعي والاداري، وتقوية بنية الامة لو تيسر لهذا العهد دوام وبقاء، ولم يقف الافرنسيون منه وبالتالي من الحركة العربية التي تمثل فيه موقف الغدر والدس كما وقفوا موقفهم من عهد فيصل والحركة العربية التي تمثلت فيه، والسائق لهم الى هذا الموقف هو السائق الى ذلك بطبيعة الحال، أي مناوأة الفكرة العربية وشل الحركة بسبيلها وتعطيل كل حيوية في الأمة والحيلولة دون أي تقدم وقوة فيها وتسخير البلاد وأهلها لسلطاتهم وإستغلالهم وتحكمهم تسخييراً تاماً كل ما يمكن أن يسمحوا به أن يكون مضروباً عليه بستار شفاف مزيف من أشكال باهتة وكلمات جوفاء .

- ٢ -

عدم الحزم ازاء الدسائس

وبما يجدر بالتسجيل ان دسائس الموظفين الافرنسيين أخذت تلمس منذ أوائل هذا العهد بمختلف الاشكال فلم تقابل بالحزم الكافي، فكان ذلك عاملاً في تماديهم في خطتهم الى أن وصلت إلى البشاعة التي لا يمكن أن تطاق، وظهرت أصابعهم الملوثة صريحة واضحة دون ما خجل أو تسر في كثير من الاحداث والمناوآت والفتن .

ولقد كانت الجزيرة وجبل الدروز ومنطقة اللاذقية خاصة من مسارح هذه الاحداث والمنارات والفتن التي قام اولئك الموظفون بأدوارهم الحبيثة عليها، ووجهوا الى العهد وكرامته وهيبته أشد الطعنات منها .

موقف نصاري الجزيرة منه العربي

ولقد كان من التيارين الذين يسمون أحيانا بالاشوريين تسمية مغلوطة جماعات ساكنة في البلاد التركية المتاخمة للعراق وسورية الشمالية، وكانت وسيلة شغب وفساد وعمرد في الانحاء التي كانت فيها في أيدي الاجانب ، فلما نجحت الحركة الكمالية اضطرت الى مغادرة الاراضي التركية فشجعهم الانكليز والافرنسيون على الهجرة الى العراق وسورية والتوطن فيها ، وأنزل الذين أتوا الى سورية في محطة القامشلي وحواليها في الجزيرة ، ومنحوا الاراضي والمساعدات للتوطن والاستقرار، وادخل فريق منهم في الجيش السوري . وقد انضم اليهم بعض الذين هاجروا الى العراق حيث وقف هؤلاء من حكومة العراق واعتماداً على ما رأوه من عطف الانكليز ورعايتهم موقف المتمرد المشاغب، فكان باعنا للحكومة العراقية على التنكيل بهم، ففر المشاغبون من العراق الى سورية، وشجعهم الافرنسيون على التوطن عند اخوانهم السابقين، فتكوّن من هؤلاء وأوائك ومن بعض الشراذم العنصرية والنصرانية الاخرى مجموعة بلغت عددها نحو عشرين الفا استقروا في قرى الحسبه وعاموده والقامشلي، وقد وجد الافرنسيون في هذه المجموعة عنصر شغب ودس، واستجابت هي اليهم لتنال الرعاية والحماية الافرنسية في وسط الحضم العربي الاسلامي الذي هم فيه والذي تتكون أكثريته الكبرى المحلية من البدو والاكراد، فصارت لهم أنصاراً وأعضاءاً وعبونا وأداة شر وقتنة، وكانت تتجه في كل اتجاه يريد الافرنسيون أن يكون فيه معاكسة ومغايرة للامال الوطنية والحركة العربية الاستقلالية، كما كان المجندون منها في مختلف الحركات والمواقف وسيلة تنفيذية صادقة في الاخلاص لهم موثوقة من قبلهم .

فلما كان العهد الوطني حرك ضباط الاستخبارات والموظفون الافرنسيون هذه

الأداة ودفعوها الى التمرد والشغب وفقا للنهج الذي رسموه للتشويش على هذا العهد وإحباطه، فأخذت تطالب ببقاء الحماية الافرنسية، وعدم الاندماج في الحكم السوري، وجعل منطقتها ذات شخصية مستقلة كجبل الدروز ومنطقة اللاذقية، وتوافقت بقوة التحريض والتشجيع حتى وصل الامر بها الى منع كل من يود التوطن في منطقتها بمن يريد الاعمار والعمل من أهل انحاء البلاد الاخرى المسلمين والبنغي عليهم والكيد لهم وسد المنافذ في وجوههم والى التظاهر والاعتداء كذلك على موظفي الحكومة ورفض أوامرها وقوانينها والامتناع عن أداء ضرائبها على مرأى ومسمع من اولئك الضباط والموظفين، بل ولقد حاصر بعض اشقيائهم المحافظ مرة في بيته، واطلقوا النار مرة على محافظ آخر في طريقه الى الحسجة ليحل محل زميله، وخطفوا مرة ثالثة محافظا آخر وابقوه سجيناً في مكان مجهول بضعه ايام كرهن على اجابة مطالبهم !

وفعلوا هذا في جبل الدروز الذي كان لهم فيه القدم الراسخة والاعضاء والانصار والذي انتهجوا نهجا خاصا فيه ليكون لهم نقطة ارتكاز وكيد في المواقف العصبية . على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

دسائس الافرنسيين في جبل الدروز ضد العهد الوطني

ولقد كان المأمول أن تكون الثورة السورية الكبرى التي ساهم الدروز فيها بنصيب وافر جدير بالاعجاب والتقدير والفخر، والتي كان قائدها العام منهم وامتزج فيها دمه بدم اخوانهم السوريين، والتي كان من أهدافها وحدة سورية واعتبار جبل الدروز جزءاً منها بما كان يتكرر قويا بارزاً في مناشير قائدها العام كافية لازالة النعرة الطائفية والانقباضية ، وغسل الهنات المتوارثة فيهم . غير أن الافرنسيين لم يأسوا وظلوا على دسهم ومكائدهم ونهجهم الاستعماري الذي ترممونه بعدفتور الثورة وزاد في جرأتهم في ذلك تغيب أبطالهم المجاهدين مشردين في الصحراء . فلما عقدت المعاهدة وانبثق عنها العهد الوطني واعترف فيها بجبل الدروز كجزء من سورية، ساروا على نفس الحطة في إبقاء الجبل مجالاً لدسهم وكيدهم، واستغفوا



المرحوم الزعيم الكبير ابراهيم هنانو



فخامة الرئيس هاشم الأتاسي

ما نصت عليه المعاهدة من الاستقلال المالي والاداري المحلي فيه فأخذوا يشجعون أهله على التشدد في الاحتفاظ بشخصية جبلهم وطائفتهم ، ويعرقلون مساعي رجال العهد في اثارة الروح القومية فيهم ، وإقامة العهد الجديد على اساس التضامن والامتزاج التامين بينهم وبين ساثر أجزاء سوريا وابنائها بما هو طبيعي جداً لأن الدروز اقتحاح في عروبتهن ولأن شخصيتهن الطائفية ليست إلا اثرأ من اثار تيارات السياسة التي كانت في بعض ادوار التاريخ الاسلامي - ويدفعون بعض زعمائهم وأنصارهم وطامعهم وآلانهم ومأجورهم الى الشغب على الحكومة الوطنية وممثليها وموظفيها حتى وصل الامر الى اقامة المظاهرات العدائية المسلحة ضد هؤلاء الممثلين والموظفين وطرد بعضهم على مرأى ومسمع من ضباط الاستخبارات والموظفين الافرنسيين ، بل لقد كان تشجيعهم على هذا الشغب جبهة وعياناً دون ما تستر ولا إستخفاء ، وجعلوا مشكلة الجبل من مشاكل هذا العهد ومنغصاته حتى استمرت المشكلة بعده أيضاً لمدة طويلة ، ولم تكد تنتهي الا في الحقبة الاخيرة .

دسائسهم في منطقة اللاذقية

وما فعلوه في جبل الدروز فعلوه في نصيرية منطقة اللاذقية التي نصت المعاهدة على اعتبارها جزءاً من سوريا والتي كانوا فيها أرسخ قدماً بسبب ما كان يوجد فيها من المسلمين السنيين النافذين في بعض المدن ، ولقد قورا أنصارهم من الزعماء والمشايع بالمال والسلاح وحفزهم إلى الوقوف موقف المتمرد الباغي على السلطات الحكومية السورية ، يتحدون نظامها وقوانينها وأمتها وهيبتها ، وكان هذا منهم كذلك جبهة بدون تستر أو استخفاء ، حتى لقد كانوا يستقبلون زعماء الشغب في بيروت وهم مدججون بالسلاح ومعهم اتباعهم المدججون به ايضاً ، كما كان ضباطهم يزورونهم في مراكز شغبهم ويتبادلون معهم الهدايا ، وجعلوا مشكلة هذه المنطقة من مشاكل العهد الوطني ومنغصاته التي استمرت بعده ايضاً لمدة طويلة ولم تكد تنتهي إلا في الحقبة الاخيرة كذلك .

حياته الافرنسيين والانكليز في قضيه الاسكندرون

وبما هو حري بالتسجيل من المواقف الغادرة الافرنسية في هذا العهد حادث الاسكندرونه . فهذه المنطقة جزء متمم لسوريا من الوجهة الاقتصادية والجغرافية ، وهي مسكونة بأكثرية عربية اكثرها من النصيرية وفيها اقلية ازمنية كما فيها اقلية تركية كبيرة .

ولقد حرص الافرنسيون وفاقاً للمنهج الاستعماري الذي ساروا عليه باستغلال كل فرقة طائفية وعنصرية ودينية في سوريا وتقويتها بسبيل مناوأة الفكرة العربية القومية وتوطيد اقدامهم على ان تكون هذه المنطقة بسبب ما فيها من مظاهر وفروق طائفية وعنصرية مسرحاً من مسارح دسهم وكيدهم ؛ فاعتبروها ذات شخصية خاصة كما فعلوا بالنسبة لمنطقتي جبل الدروز واللاذقية ، وحكموها في اكثر الظروف حكماً عسكرياً مباشراً ، وجرباً على ذلك اصدروا لها دستوراً خاصاً حينما اصدر بونسو دستور سوريا كما فعل بالنسبة للمنطقتين على ما ذكرناه سابقاً . وفي معاهدة عام ١٩٣٢ نص على شخصية خاصة لها كما فعل مثل ذلك بالنسبة للمنطقتين المذكورتين ايضاً ، واصرا الافرنسيون على شيء من مثل ذلك في معاهدة عام ١٩٣٦ وإن كان جاء اخف بما كان .

ولقد كانت الاتراك بزعامة مصطفى كمال يبيتون في انفسهم الطمع في المنطقة ويعتبرونها جزءاً من دولتهم ويتحينون الفرص لتحقيق مطمعهم . وقد سجلوا تحفظهم في شأنه في اتفاق الهدنة الذي عقده مع فرنسا على انفراد في سنة ١٩٢٠ ، فاعتبروا تحفظهم هذا تسجيلاً لحق قبل به الافرنسيون ، فكان ذلك بما يقوي مطمعهم ؛ هذا مع التنبيه على ان هذا التحفظ لم يعد له قيمة بعد معاهدة لوزان التي عقدت بينهم وبين الحلفاء عام ١٩٢٢ والتي لم يسجل فيها شيء من هذا القليل . وبما لا ريب فيه ان المنهج الاستعماري الذي انتهجته فرنسا وموظفوها قد كان عاملاً في تقوية هذا المطمع ؛ ولو لم ينتهجوه وغدت المنطقة محافظة عادية كسائر محافظات سوريا لكان من المحتمل ان لا تقع كارثة سلخها عن امها بغياً وغدرآ .

ولقد استقرت حالة تركيا الحديثة وقويت خلال الخمس عشرة سنة التي مرت بين معاهدة لوزان وتاريخ الكارثة فقوي مطعمها في اللواء ، وغدا ضم المنطقة إليها طائفاً مستمراً في ذهن زعيمها ورئيس جمهوريتها . وكانت معاهدة ١٩٣٦ والعهد الوطني الذي قام على أساسها من الحوافز للحركة العاجلة خشية نجاح العهد وصعوبة تحقيق المطمع بعد مرور مدة من الزمن . وقد كان ما بدا من فرنسا وموظفيها من نية الغدر والنكث وإحباط عهد المعاهدة من مقويات أمل تركيا وزعيمها والباعث على حركتهم ؛ فأخذوا في تحريك اترك المنطقه اولا ودفعهم الى المطالبة بالانضمام الى تركيا أو قيام جهاز حكومي تركي فيها يزعم ان اكثريه سكانها تركية ، ولم تلبث الحكومة التركية ان ظهرت على المسرح رسمياً وعلناً لتعزيد حركتهم ، فأنارت الموضوع في عصبة الامم .

ولقد كانت فرنسا وبريطانيا اعترفتنا التقرب الى تركيا واخذها لجانبها حينما بدا من هتلر ما بدا وتأنزت الأحوال فسايرتاها في موقفها وتقرر نتيجة لذلك احصاء اللواء تحت اشراف لجنة دولية . وقد رافق الاحصاء ضغط وتلاعب - ما فرين من تركيا وفرنسا بما أثار سخط اللجنة وجعلها توقف عملية الاحصاء . ومع ذلك فقد ظلت تركيا تسير في سبيل غايتها وظلت فرنسا تستجيب إليها . ونتج عن ذلك وضع قانون اساسي تطبيقي للواء من قبل عصبة الامم في شهر مايس من عام ١٩٣٧ ، وقد نص القانون في ما نص على ان يكون اللواء مستقلاً اسقلاً داخلياً تاماً ، وتابعاً في الخارجية لسوريا فتطبق فيه الاتفاقات الدولية السورية ويرعى ممثلو سوريا وقناصلها شؤون اهله ويحمل هؤلاء جوازات سورية ، وكذلك نص على ان يكون بين اللواء وسوريا وحدة جمركية ونقدية ، واعتبر اللواء فيه مجرداً من السلاح وحظر فيه الخدمة الاجبارية وصناعة السلاح ومروره ، وجعل لتركيا ميناء حر في مرفأ اسكندرون تكون متممة فيه بالسيادة التامة . وقد نص النظام فيما نص على ان يكون للواء مجلس تمثيلي ثمانية من اعضائه ترك وستة علويون واثنان سنيون وثلاثة من الطوائف المسيحية ، وان يكون له حكومة على رأسها رئيس منتخب من قبل المجلس لمدة خمس سنوات ، وان تكون اللغة التركية هي اللغة الرسمية الاولى واللغة العربية اللغة الرسمية الثانية . ثم عقدت اتفاقيات بين فرنسا وتركيا تبادلنا فيها التعهد بضمان الحدود بين تركيا وسوريا واللواء وبتأمين الامن في اللواء والدفاع عنه بواسطة قوة افرنسية وتركية متساوية .

ومع ما انطوى في هذا من نذر انسلاخ اللواء عن سوريا وقيام حكومة تركية تقريباً في اللواء فإن فرنسا اقنعت الحكومة السورية بالموافقة على امل ان يقف الامر عند حد الشخصية المستقلة اللواء ضمن الدولة السورية .

على ان الامر لم يقف عند هذا الحد . فقد اشتد جو اوروبا تلبداً في واسط عام ١٩٣٨ واشتدت رغبة انكلترا وفرنسا في محالفة تركيا التي وجدوا فيها سداً حاجتهم ؛ ولا سيما انهم ضامنون من بلاد العرب وحكوماتها ما يتبنون بالمعاهدات القائمة بينهم وبينها والتي احتوت ما احتوته من القيود والشروط وبواقع احتلالهم وسيطرتهم في مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن فعرضوا عليها التحالف . وبالرغم من ان حاجتها الى هذا التحالف لا تقل عن حاجة فرنسا وانكلتره بل تريد بسبب جوارها من روسيا وتحسبها المستمر منها فإت رجالها احسنوا استغلال الموقف من كل جهة ، وطالبوا بضم منطقة الاسكندرونه الى دولتهم . ووازن الافرنسيون والانكليز بين العرب والترك فوجدوا ان هؤلاء اقوى وزناً من الوجهة الحربية والسياسية بالرغم من تفوق العرب في العدد ، فلم يعباؤا هؤلاء وفضلوا ارضاء الترك على حسابهم ، ورافقوا على ضم المنطقة إلى دولتهم غير آبهين للعرب وحقوقهم ولا لشرف العهد الدولي الذي قطعوه على انفسهم والذي ينص بصراحة في صك الانتداب على تحظير التنازل عن ارض ما من سوريا ، وسارع الاتراك فاحتلوا المنطقة ورفعوا عليها علمهم غير آبهين كذلك بالعرب وحقوقهم وعواطفهم . وكان ذلك في اوائل تموز من عام ١٩٣٨

وهكذا ارتكب الافرنسيون خيانتهم الكبرى ضد الوطن السوري العربي وشاركهم فيها الانكليز الذين كانوا دائماً وما يزالون ابطال المساومات على حساب العرب وحقوقهم وابطال المآسي الغادرة فيهم .

ولقد كان لهذه المأساة رد فعل جارح في نفوس السوريين حكومة وشعباً فقامت المظاهرات وارسلت الاحتجاجات ، وكان هذا كل ما في استطاعتهم ان يفعلوه إزاء المؤامرة الغادرة .

- ٤ -

عدم الانجمام في الافرنسيين وأثره في ما فاسنه سوريا

وما يجدر تسجيله بهذه المناسبة التناقض والتفكك وفقدان الانجمام في

اسلوب الادارة الافرنسية وبين كبار الموظفين الافرنسيين بل وصغارهم أحياناً كثيرة وفي سوريا وباريس بما يترد اليه كثير من ما كان من مشاكل ومآزق وعترات ومآس وعسف وبغي في هذا العهد بل طيلة المدة التي بليت فيها سوريا بفرنسا. فذو مارتيل الذي كان أكبر موظفيهم والناظم لسياستهم في سوريا كان قنع وصدق الرغبة في حل قضية سوريا على أساس التفاهم مع الكتلة الوطنية أولاً وعلى أساس مرض ثانياً ، واستطاع أن يقنع رجال حكومته في باريس فتطابقوا معه وكانت نتيجة ذلك عقد المعاهدة التي كانت تتضمن نصواً يصح أن نجعلها مرحلة صالحة بقطع النظر عن ما فيها من ثغرات . فالمفروض أن تصبح هذه النتيجة سياسة فرنسا العليا المرسومة وأن تكون هي الناطقة لأعمال وتصرفات الموظفين الافرنسيين الى أن يتقرر الانحراف عنها في الأوساط العليا التي رسمتها على الأقل . ولكن الذي وقع هو عكس هذا تماماً . فالمندوب السامي عاد يحمل تلك القناعة والرغبة في السير في تطبيق ما تم التعاقد عليه سيراً تزيهاً يغذيه حسن النية على ما ظهر منه، بينما أباح كثير من الموظفين الافرنسيين لأنفسهم أن يسيروا في طريق تناقض مع ذلك كل التناقض ؛ ثم أباح كثير من رجال فرنسا الحكوميين والبرلمانيين الذين كانوا من أحزاب الحكومة المتعاقدة أيضاً لأنفسهم وضع العراقيل والعترات في سبيل حسن تطبيق المعاهدة، ومسحها شيئاً بعد شيء، والتأمر مع بعض الموظفين في سوريا على ذلك عن غير طريق المندوب السامي وعلى غير رغبته وقناعته ، حيث كان هؤلاء الموظفون يرسلون التقارير ويتلقون التوجيهات رأساً على ما استفاضت أخباره حينئذ .

واقعد كان هذا التناقض والتفكك وفقدان الانسجام يبدو كذلك في تصرفات وأعمال المندوبين والموظفين الافرنسيين أنفسهم أيضاً ، حيث كان يقع أن يكون لوكيل المندوب السامي في دمشق تصرف واسلوب يناقضان تصرف واسلوب المندوب أو موظفي المندوبية الرئيسيين وفي أمور تتعلق بالسياسة والادارة العامة بما هو مفروض أن يكون له ضابط عام منسجم واحد ، وحيث كان يقع تشاد وتجاذب وتدافع حول السياسات المحلية يبدو آثاره للناس ، ثم يبقى المتمرد الشاذ في عمله فلا يستطيع الرئيس أن يجلي على مرءوسه رأيه ويجعله على السير فيه . بل لقد

كان هذا يظهر في المفوضين السامين أنفسهم بحيث يبدو منه أن لكل منهم سياسة شخصية وأنه لم يكن لحكومة فرنسا سياسة عامة مرسومة. فغورو سار على سياسة ووفغاند على سياسة وسراي على سياسة وجوفنيل على سياسة وبونسو على سياسة ودو مارتيل على سياسة وبيو على سياسة بينها قليل أو كثير من التناقض .

- ٥ -

جمهورية حكومة العهد الوطني في سبيل المعاهدة وفشلها

ولقد أرادت حكومة العهد الوطني إنقاذ المعاهدة والتغلب على ما قام أمامها من عثرات بأي ثمن ، فسارعت أولاً إلى عرض المعاهدة على المجلس النيابي وأخذت مصادقته عليها ، ثم أخذت تبذل جهودها في باريس لمثل ذلك باعتبار أن التصديق عليها فيها قيم بإيجاد الاستقرار وإحباط المكائد وإزالة العثرات . وقد زار رئيسها باريس لهذا المقصد أكثر من مرة ، فكان يراوغ معه ويعتذر له بانتظار الوقت الملائم ، ويستغل موقفه وما كان يلقاه العهد من دسائس وعراقيل ومآزق ، وما كان من مواقف الأحزاب العسكرية والاستعمارية استغلالاً لثيما فيقترح عليه صيغ جديدة من التحفظات والالتزامات والتفسيرات والملاحق التي كادت تخرج المعاهدة من نطاقها الاستقلالي ، وأدت إلى أزمة بين أعضاء الوزارة استقال بعضهم فيها كما أدت إلى خلاف وفطور بينهم وبين رئيس الجمهورية فيضطر إلى التوقيع عليها على أمل إنقاذ المعاهدة والعهد ، حتى لقد استغلت فرنسا هذا الموقف فأملت على الحكومة السورية عملاً ضد المصلحة العربية وبسبيل إبقاء سوريا منعزلة عن التضامن مع الأقطار العربية الأخرى في قضية فلسطين وغيرها فسايرتها فيه ، ونعني به العدول عن الاشتراك في وفد المؤتمر البرلماني الذي قرر هذا المؤتمر المنعقد في القاهرة عام ١٩٣٨ إيقاده إلى لندن ، وكان فارس الحوري رئيس المجلس النيابي قد سافر من دمشق إلى لندن بطريق الآستانة لهذا الغرض ، وقد كان رئيس الحكومة السورية في باريس فطلب منه الأبراق لفارس الحوري بعدم متابعة سفره ، ولقد حالت الحكومة الفرنسية كذلك ولنفس الغاية دون اشتراك الحكومة

السورية في مؤتمر لندن الذي دعت اليه الحكومة البريطانية الحكومات العربية في آخر عام ١٩٣٨ ، فسكتت مسايرة في ما كان على شدة الرغبة الانكليزية وخطورة المؤتمر الذي سجل فيه خروج قضية فلسطين من نطاقها المحلي ودخولها في نطاق العروبة العام . وبما كان بسبيل عدم تسبب تشاد وخرج عدم متابعة الحكومة السورية أمر استلام الادارات والصلاحيات التي كانت في يد السلطات الانتدابية والتي كان الموظفون الافرنسيون يهتمون كل الاهتمام لاستبقائها في أيديهم مما كان له مساس شديد في مفهومات سيادة الدولة وكيانها ونشاط الحكومة ومتناولها ، وعدم إثارة تعديل الدستور الذي أصدره بونسو مشوهاً معدلاً بمسوخاً عن دستور الجمعية التأسيسية بما فيه المادة (١١٦) الاضافية التي كانت تشمل معاني السيادة والاستقلال !

على أن كل ما كان من الحكومة السورية من استجابات ومسايرات وتحاشٍ للتشاد والخرج لم يفدها إلا تكييل البلاد بالقيود وتعريضها نفسها للنقد والتجريح وضياح الهيبة ، ومنح فرنسا وسائل كيد جديدة للبلاد وأهلها ، وظلت الحكومة الافرنسية على ما سارت عليه من خطة التلطيط والاعتذار الى أواخر عام ١٩٣٨ ثم عرضت المعاهدة على البرلمان وأحيلت الى لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الافرنسي ، وأخذت تصدر في نفس الوقت من المقامات الافرنسية البرلمانية والرسمية والدوائر السياسية تصريحات ضدها ، ووقفت الصحافة في موقف التأييد لهذه التصريحات كأنما كانت هناك مؤامرة محبوكة ، فلم يلبث أن أعقب هذه الحملة قرار من لجنة الشؤون الخارجية المذكورة في أوائل عام ١٩٣٩ برفض عرضها على المجلس بشكلها الراهن ، وصدر هذا القرار بينما كان رئيس الوزارة في إحدى رحلاته الى باريس يبذل جهوده اليائسة . ثم بدل دو مارتيل بيبو الذي لم يلبث أن أذاع فور وصوله قرار فرنسا بلزوم إعادة النظر من جديد ووضع نصوص معاهدة جديدة على ضوء الاختبارات ، ثم أعلن ممارسة سلطة المندوب السامي الانتدابية الى أن تعقد المعاهدة الجديدة ، وأخذ يتدخل في شؤون الدولة على أساس هذه السلطة .

سحب المعاهدة وأثره

ولقد تأزم الموقف بسبب هذه النهاية اللثيمة واضطرت الحكومة الى الانسحاب بضغط الرأي العام والمكائد الافرنسية حيث اعتبر المندوب أن سوريا مقيدة بما وقعه رئيس حكومتها من ملاحق وتفسيرات والتزامات ، بما يعتبر غاية في اللؤم والاستغلال والكيد والابتعاد عن كل منطق ، لأنه تمسك بالفرع مع نقض الأصل الذي نشأ عنه ! وكان من جملة ذلك ملحق بمنح جبل الدروز ومنطقة اللاذقية استقلالاً ذاتياً ، وملحق آخر بتنظيم الشؤون الطائفية أثار بعض علماء الدين حوله ضجة لا تتحملها النصوص والمدى ، وكانت من الأسباب المباشرة لانسحاب الحكومة .

ولقد خلفت الحكومة وزارتان أخريان حاولتا تعديل الموقف فلم يمكن الوصول الى حل مرض فاستقالتا دون أن يلبثا طويلاً ثم استقال رئيس الجمهورية موجهاً استقالته الى رئيس المجلس النيابي فكان آخر حياة هذا العهد .

- ٦ -

تعليلات على موقف الحكومة الوطنية ازاء دسائس وغدر الافرنسيين

ولقد بدت دسائس الافرنسيين وسوء نياتهم في سوريا وباريس ضد هذا العهد مبكرة فظنت الحكومة أن في الامكان التخلب على الموقف ، وسارت في سبيل ذلك خطوات متنوعة منها ما ذكرناه آنفاً فلم تعد عليها إلا بإضاعة مزايا كثيرة من روح المعاهدة وقوتها ، على ما كان فيها من ثغرات ، وكان ذلك سبباً من أسباب التآدي في طلب المزيد من التفسيرات والالتزامات والملاحق الى أن صارت أقرب الى الانتداب منها الى السيادة والاستقلال . ومع ذلك فقد ظلت الحكومة متشبثة بالكرمي باجتهاد السير الى آخر الشوط ، فكان ذلك عاملاً في ضياع هيبتها ونحت أثلتها وإثارة النفوس ضدها وإضعاف مركزها والثقة فيها ، وفتور روح النضال وخود الحماس في الأمة ، والتصاق ذلك كله بالكتلة الوطنية واتحاء طابع النضال القومي تقريباً عنها ، وهو الطابع الذي لم ير الافرنسيون بقوته سبيلاً الى تهدئة

الحال إلا بالتفاهم معها .

وهذا الموقف في رأينا كان خطأ وضاراً معاً . ولعله من أبرز الأخطاء في هذا العهد من الوجهة القومية والنضالية . وقد صرحنا برأينا هذا المرحوم سعد الله الجابري في اجتماع لنا معه بمناسبة استقالة شكري القوتلي من الوزارة وتقديمه استجواباً عن ما فعله رئيس الحكومة في رحلاته وعن سياستها بعد ما صدر من فرنسا ما صدر من تصريحات ، فقال إنهم يفضلون الاستمرار في الشوط الى نهايته والنضال في داخل الحكومة . ولو فعلوا هذا أو لو أنهم استغلوا وجودهم في الحكم وتهيئوا وسائل النضال حينما خرجوا أو بالأصح حينما أخرجوا من الحكم لكانوا برروا استمرارهم في الحكم وحمد الناس لهم ذلك ، واثبتوا احتفاظهم بطابعهم النضالي ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً داخل الحكم حينما أعلنت فرنسا نكثها وأذاع مندوبها سحب المعاهدة والعودة الى ممارسة السلطات الانتدابية التي كانت يمارسها المندوبون قبل المعاهدة ولا كانوا يهيئوا أسباب النضال حينما خرجوا من الحكم مع أنهم قضوا فيه نحو سنتين ونصف ، فضلاً عن ما أصاب الكتلة الوطنية من تخطيط ووقع فيها من تخاذل ، مع أن الدلائل أخذت تقوم مبكرة على سوء نية فرنسا وموظفيها وكانوا هم أنفسهم يلمسونها عياناً .

ولا ندرى إذا كان اجتهدهم بميت بصلة ما الى ما كان وجه من انتقاد الى رجال عهد فيصل - وهم منهم - على ما أبدوه من تطرف ورفض وإياء للملاينة حيث قيل ان هذا هو الذي أدى الى انهيار العهد ، وان رجاله لو ساروا بروح الملاينة والمسايرة والتروي قبل تفاقم الخطب واتساع الفتق لأمكن انفاذ الموقف مما بسطناه في الجزء الاول ، وعلقنا عليه ، فأراد القائمون بالعهد الجديد أن يتفادوا تكرار المأساة وأن يستمروا في الشوط الى نهايته . وانتهاء الشوط الى ما انتهى اليه مع ما كان من ملاينة ومسايرة هما أدخل في باب الميوعة والهوان أثبت صحة اجتهد رجال ذلك العهد من الوجهة النظرية ولا سيما أنهم لم ينتفعوا من وجودهم في الحكم وتهيئوا اسباب النضال كما كانوا يقولون ويأملون . فليس من امكان لجعل المستعمر وخاصة الافرنسي يتراجع عن موقفه بالمسايرة والملاينة ، بل وانها ليزيدانه عناداً وقوة . وكل ما اظهر من استعداد له هو ان يستمر مقصده بالاشكال والالفاظ

المزيفة الجوفاء . وقد رأينا محاولات الانكليز في العراق ومصر في ما كانوا يعرضونه ويفرضونه من حلول ومهادنات . وليس من حد يمكن أن يلتقي عنده الاستعمار والسيادة بالتوافق والتطابق .

وبما يجدر تسجيله أن شكري القوتلي قد انسحب من الوزارة بسبب ما وصل اليه الموقف من ميوعة وتساهل ومحاولات خائبة ، وقبل أن يصل امر الوزارة الى الحرج الشديد الذي وصلت اليه فكسب بعمله هذا عطف الجميع واحترامهم ، وكان من جملة أسباب ما ظل يتمتع به من الاحترام والثقة وحسن الاحدوة والمركز الذي جعله في ما بعد رجل الساعة في سوريا .

ونعتقد ان وزارة الكتلة لو غضبت لكرامتها واستقالت في عهد مبكر لكانت المهتة حماس الشعب وروحه النضالية ، ولاضطر الافرنسيون الى الكف والتراجع ، ولكانت قضية سوريا وعهدها الوطني اكتسبا قوة ومكانة عظيمتين ؛ هذا عدا ما في الاستقالة من معنى الاستنكار والنضال الوطني في حد ذاته مما يناسب مع طابع الكتلة النضالي .

والنقد نفسه في روحه موجه إلى وزارة لطفي الحفار الكتلوية التي خلفت وزارة جميل مردم ، فانه ما كان للكتلة أن تقدم على تجربة ثانية بعد ما كان من إخفاق التجربة الاولى وخيبتها ومرارتها على ما كان لوزارة الكتلة الاولى من محاولات وجهود كادت تخرج في لينها وأملها عن الحد الذي يصح الرضاء به ، ولاسيما أن نيات فرنسا الغادرة قد ظهرت واضحة لا تتحمل اجتهداً ولا محاولة ؛ وإن مندوبها أخذ يستعمل سلطاته الانتدابية المتنوعة في التشريع والادارة .

ومن عجيب ما وقع بما هو متصل بهذا الموقف ان الحكومة وقفت موقف المكابرة قبل الاستقالة في صدد تصريحات بيو التي احتوت سحب المعاهدة لاعادة الدرس وحاولت تسكين غليان الساخطين من النواب ورجال الكتلة اوشباها وإقناعهم بإمكان تعديل الموقف ، وتخفيف وقع التصريحات عليهم مع ما كان من صراحة وقطعية في موقف فرنسا ورجالها في باريس وسوريا وفي التصريحات نفسها ولقد أهاجت تلك التصريحات وهذا الموقف الافكار وجعلت الشباب والمتحمسين يدعون الى الاضراب ، وبدأ الجو يندثر بانفجار، وصارت تسمع صوت المفرقات

والأعيمة النارية ، بل وصارت المفرقات تلقى على حادلات الترام والحازن غير المضربة ، وأخذت تقوم بعض المظاهرات تهتف للاستقلال وتسقط الاستعمار والحكومة ، وكانت يد معارضي الكتلة والناقمين على حكومتها ظاهرة في هذه الحركة ، وكان موقف متناقض حيث لا تحرك الكتلة التي تمثل النضال ضد ما حدث فيقوم مقامها فيه معارضوها ! ومن تمام العجب والتناقض أن بعض جماعات منسوبة الى الكتلة كانت تتصدى للمتظاهرين والهاتفين لمنعهم من المظاهرة فيقع بين الطرفين اشتباكات دفاعاً عن الحكومة التي ظلت متمسكة بكراسيها الى آخر الالاحظات .

ولم ينسَ لثورة الافكار وغليانها وما نتج عنها من مظاهرات وإضرابات استمرار لأنها لم نجد من يغذيها . وقد سارعت السلطات الافرنسية فأترت فصائل السنغاليين الى الشوارع وقبضت على عدد كبير من الشبان المتحمسين وساقتهم الى المحاكم وعذبتهم أثناء التحقيق كما اعتقلت فريقاً من رجال الكتلة وشبانها أي نبيه العظمة ورفقاء ممن كانوا يمثلون الجناح المتطرف فيها ونفقتهم الى تدمير وتواري بقية المرموقين المتطرفين ، فلم تلبث أن هدأت الحالة .

ونقول كذلك ان استقالة رئيس الجمهورية قد تأخرت أكثر مما يتعمله طابع النضال الذي كان يمثل بوصفه زعيم الكتلة الوطنية . وإذا كان بما يمكن أن تتسع له حوصلة الايجابية التي جنحت الكتلة الى سلوك سبيلها في هذا المهد أن يظل الرئيس في الدست قبل أن يعلن المندوب السامي بصراحة عودته الى ممارسة سلطانه الانتدابية وطيلة بقاء وزارة الحفار التي خلفت وزارة مردم لانقاذ الموقف فما كان ينبغي في رأينا أن يظل في الدست بعد اضطرارها الى الاستقالة لأنها لم تر امكاناً لانقاذ شيء . ومن الغريب أنه بقي في الدست أيضاً بعد استقالة وزارة نصوحي البخاري التي خلفت وزارة الحفار والتي أخفقت هي الاخرى فيما أخفقت فيه هذه وبعد اعلان المندوب بصراحة عودته الى ممارسة السلطات الانتدابية واعتباره عهد المعاهدة مؤجلاً ، وأخذ في اصدار المراسيم التشريعية والادارية التي كانت من حق رئيس الجمهورية مدة غير قصيرة محاولاً تأليف وزارة جديدة . ولم يستقل الا بعد اخفاقه في هذه المحاولة .

ونحن لانشك في حسن قصد هاشم الاتاسي وقوة مبادئه الوطنية والقومية ،
 وكون تصرفه قائماً على اجتهاد انقاذ الموقف وتمثيل حق البلاد الشرعي بقدر ما يمكن
 غير ان جميع البوادر كانت شاهدة على سوء النية وكانت كافية لاقناعه ان هذا
 أصبح عبئاً ولا سيما انه لم تبد حركة نضالية قوية ومحتملة الدوام كرد فعل للبغي
 والنكث بما يمكن معه تبرير البقاء وتمثيل البلاد وحققا الشرعي ، وانه الاكرم له
 وللمبادئ النضالية التي كان يمثلها أن ينسحب في وقت يكون لانسحابه فيه هذا
 المعنى أقوى وأظهر . ولاريب في ان هذا الموقف كان متصلاً بنفس الاجتهاد الذي
 اجتهده رجال الحكومة على ما أشرنا اليه آنفاً .

- ٧ -

النضال والواجب والديمية

ولقد يكون هناك مجال للحديث عن صواب وخطأ استلام الهيئات التي تحمل
 لواء النضال القومي مقاليد الحكم في الفترات الانتقالية والتجارب او الحلول
 النصفية التي يكون المستعمر فيها ما يزال صاحب الكلمة والشأن . ويبدو أن هناك
 نظريتين الاولى افضلية بقاء هذه الهيئات بعيدة عن الحكم الى أن يتوطد العهد
 الجديد ويصبح في الامكان العلمانية اليه ، على ان يتولى الحكم أناس يتمتعون اليهم
 من ذوي النيات الحسنة والسلوك القويم ، فيكونوا موجّهين بتوجيهها ، وبذلك
 تظل قوى الامة النضالية متكاثفة ، وتظل الهيئات النضالية قوة موجهة للحكام
 ومهددة للمستعمر ، وتظل هاتان الجهتان متحسبتين في خطواتهما وتصرفاتهما، وتظل
 الهيئة المناضلة بعيدة عن الدسائس المتنوعة التي تجدد مجالها الواسع في حالة استلام
 هذه الهيئة تقاليد الحكم سواء من جانب المستعمرين أو من جانب عناصر الشعب،
 وبعيدة كذلك عن مواطن التهم بما يمكن أن يناله الحكام من جاه ونفوذ ومنفعة
 مادية وبما قد يؤثر في نزاهتهم وسمعتهم وقوتهم النضالية والتوجيهية والشعبية . أما
 الثانية فهي افضلية استلام الهيئة المناضلة لمقاييد الحكم لانها بوصفها راعية المبادئ
 الوطنية وحاملة لواء الدعوة الى النضال في سبيل حقوق الامة والبلاد فلا يمكن

ان يكون من هو أصلح منها للسير في هذا المجال ، وأن الحكم هو مجال تحقيق تلك المبادئ وتوطيد هذه الحقوق ، وفيه وسائل كثيرة لتقوية روح الشعب وتشكيلاته واصلاح جهاز الدولة وتخليصه من الروح الاستعمارية القديمة من حيث التشريعات والموظفين بما له أثر كبير في توطيد الحق والعدل وتحسين شؤون الشعب الاقتصادية والاجتماعية والصحية والثقافية .

وقد يكون لكل نظرية وجاهتها ، ولعل وجاهة النظرية الثانية تبدو أقوى لأنها تستند الى اصل بديهي وهو استلام الحكم من قبل الأصلح له والأقوى عليه . وهذه الواجهة هي التي جعلتها الاكثر اتباعا كما هو المتبادر . غير أن التجارب في سورية ومصر والعراق اثبتت انها لم تنته الى نجاح ، وان الافضل للحركة الوطنية وبقاء روح النضال قوية حية اتباع النظرية الأولى الى ان يتوطد العهد الجديد ويسير سيرا طبيعياً ، وبقاء الهيئة المناضلة بالمرصاد لكل انحراف يبدو من المستعمر أو من هم في دست الحكم . وقد يصح الموقف اذا لم تمسك الهيئة المناضلة التي تجنح الى سلوك الطريقة الاولى بكراسيها وأن تكون مستعدة للتخلي عنها والعودة الى النضال حالاً أو على الاقل الوقوف موقف اللاتعاون والعودة اليه حالما يبدو من المستعمر شذوذ وانحراف وبوادر نكت ودس ، ثم اذا اتخذت الحكم وسيلة الى تقوية الشعب وتشكيلاته ونهضة وسائل النضال حيث يكون في هذا كسب مادي ومعنوي وإنذار مستمر للمستعمر ، ومن تحصيل الحاصل ان نقول إن هذه الافضلية تكون محتمة على الهيئات المناضلة أو من ينتسبون اليها في العهود الموهبة المزيفة ، وإن تورطهم في الإيجابية في مثل هذه العهود يعود بالחסران على حركة النضال والحماس الوطني ، وقد كان شيء من هذا في عهد حكومتي الداماد والشيخ تاج فانتج فتوراً وتحاذلاً في صفوف الكتلة الوطنية وبالتالي في الحركة الوطنية على ما ذكرناه في الفصل السابق . واذا كانت الحركة الإيجابية في بعض الظروف ضرورية فإنها في مثل تلك العهود ضارة حتماً ، وإن على الذين يحملون أعباء القضايا الوطنية والمبادئ الوطنية والنضال الوطني أن يقدرُوا الضرورات بقدرها من جهة وأن يتجنبوا التورط من جهة أخرى ، ولا سيما ان ضعف النية القومية والسياسية كثيراً ما يفتح الباب في الهيئات المناضلة لأناس ضعفاء في الاخلاق

متهزين للفرص ذوي مآرب ومطامع ، وكثيراً ما يكون التورط في الإيجابية والملاينة بتأثيرهم ، ويكون في ذلك ما فيه من القضاء على روح النضال فيها وفي الشعب الذي وثق بها .

- ٨ -

مركزة المعارضة في العهد الوطني

وبمناسبة ذكر معارضي الكتلة نقول ان المعارضة الحزبية البارزة للكتلة كانت تتمثل بالمرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ومن انضم اليه . وقد كان بين الدكتور وبين الاستقلايين الذين كان اكثر رجال الكتلة البارزين منهم تشاد يمتد شي . منه الى عهد فيصل وكثير منه الى ظروف الثورة السورية ، ثم كان يشتد حيناً ويكمن حيناً . ولما كان اضراب دمشق الطويل وثورتها عام ١٩٣٥ التي انتهت بدعوة رجال الكتلة الى المفاوضة نعم الدكتور على اهماله ، لأنه كان يرى لنفسه الحق في ان يكون صاحب الشأن في هذه الخطوة لما كان من سجنه في ارواد واشتراكه في الثورة وتسميته منذئذ باسم زعيمها . ونذكر اننا التقينا به في مصر في ظروف المفاوضة وسمعنا منها عتباً ، فلاحظنا له ان المهم هو النجاح وأن الواجب القومي يقضي بتأييد الكتلة اذا نجحت في الحصول على معاهدة صالحة ورأينا منه تطابقاً في هذه الملاحظة . ولما عقدت المعاهدة وتقلد رجال الكتلة مقاليد الحكم كان هو في مصر وكان غيره في مصر والأردن وفلسطين والصحراء والعراق مشردين باحكام عسكرية ، فاهتمت الوزارة لاستصدار عفو عن الجميع واشتركت الكتلة حكومة وحزبا في حفلات الاستقبال الرائعة التي اقيمت للعائدين وفي مقدمتهم الدكتور . غير انه لم يلبث أن أخذ يبدي انتقاداته واعتراضاته على المعاهدة والادارة والتفت حوله جماعة من العائدين والمقيمين فبرزت تلك المعارضة .

ومع ان المعاهدة لم تكن تتضمن كل ما كانت تصبو سوريا اليه وان فيها ثغرات جوهرية على ما ذكرناه سابقاً فقد قيل فيما قيل ان منشأ المعارضة يرجع من

جهة الى ما كان من تشاد ومغاضبة بينه وبين الاستقاليين ومن جهة الى سبب نفسي في تأثير ما اعتبره اهمالا لشخصه سواء في سياق المفاوضات او في سياق نشوء العهد الجديد ، وإن الذين التفوا حوله انساقوا بنفس الاسباب وان المعارضة قد قامت للتهديم والتغريب أكثر منها للحرص على المصلحة القومية العليا . وقد بدا شيء من الصحة في ما قيل في مواقف ومظاهر عديدة بالاضافة إلى أن من الذين اندمجوا في المعارضة من اندمج في العهود الايجابية المزيفة .

ولقد كان لهذه المعارضة شيء من الطنين، وكان لها بعض التأثير في الأوساط الناقمة أولا وفي أوساط الكتلة ووزارتها ثانياً جعل هذه تقف منها موقف الناقم المحقق؛ وكان هذا الموقف بما قوى ذلك الطنين، ولم تلبث المعارضة أن ظهرت باسم الهياة الشعبية وأن انضم اليها بعض النواب الذين انشقوا من الكتلة الوطنية وصار لها بعض الصحف التي تناصرها وتنطق باسمها، غير أن من الحق أن يقال إن هذه المعارضة لم تكن ذات قوة ذاتية وشعبية ولم تكن من السعة ما يجعلها حزباً مزاحماً للكتلة يترشح ليحل محلها في الحركة الوطنية أو في حمل أعباء الدولة . وأقوى ظروف بروزها كان حينما تأزمت الأمور بين وزارة الكتلة والافرنسيين وبدرت من هؤلاء بوادر النكث والتراجع وضعف مركز الوزارة وارتد الافق في وجهها، فحينئذ ارتفع صوت هذه المعارضة قوياً واشتدت حركاتها وكان ما كان من مظاهرات بدت فيها يدها .

وبما يسجل أن هذه المعارضة لم تلبث أن هدأت بعد استقالة وزارة الكتلة ، ولم يلبث الدكتور شهنذر أن فاجأ الناس برحلة عاجلة إلى مصر في حين أخذت الافكار تغلي والجو يندثر بالانفجار والجيش يحتل المدينة ويقوم بحركة الاعتقال الواسعة والكتلة الوطنية تقف موقف المخدول الذي فقد قوته النضالية فكان الأمر غريباً حقاً . لأن المعارضة كانت ضد المعاهدة وضد الكتلة التي قبلت بها وسارت في سبيل تطبيقها وضد ظروف هذا التطبيق من قبل الافرنسيين والكتوليين معاً، وكان شعارها النضال في سبيل معاهدة أفضل تناسب مع تضيحات البلاد وتضمن جميع حقوقها وأمانها وتحل من الثغرات الموجودة في هذه المعاهدة . والتي كانوا يعددونها في نشراتهم . فكان المنطق يقضي ان تتقدم المعارضة وعلى رأسها زعيمها الذي كان قطب رحاها لسد الفراغ الذي خلا من الكتلة التي انسحبت من

الحكومة وضعفت في الميدان الشعبي النضالي، وتنزل الى الميدان الذي تهباً للنضال وتستجيب للأفكار الهاثة والنفوس الثائرة وتستغلها وتقودها . ولقد كانت مفاجأة الدكتور برجلته شديدة الوقع حتى على أنصاره الذين حاروا بأي وجه يواجهون الناس ، وأي موقف يقفونه من الظرف الذي قام والذي ادعوا أنه نتيجة لمعارضتهم ، حتى لقد سمعت من أحد كبارهم نقداً شديداً ولمست فيه شعور المجروح في كرامته حينما أخذ يقسم لي أشد الأقسام بأنه لن يكلم الدكتور ولن يقب وإياه في موقف واحد وجهة متحدة، لأن رحلته كانت خذلاناً لمبدأ المعارضة النزيهة وفراراً من ميدان النضال الذي دعت اليه وحملت على الكتلة لضعفها فيه ، وإعلاناً بأن كل القصد هو شفاء غل شخصي تم بسقوط الكتلة ووزارتها وكفى الله المؤمنين القتال (١).

ومما يسجل أيضاً والشيء بالشيء يذكر أن هذه المعارضة قد كانت قائمة بزعمها فلما اغتيل تضاءلت حتى كادت تنبخر في الظروف العادية، ولقد نشط فلولها بعض النشاط وحاولوا أن يبرزوا مرتين بعد اغتياله . غير أن هاتين المرتين كانتا في ظروف غير عادية أو على الاصح في ظروف مؤيدة بالافرنسيين وما استهدفه هؤلاء من مطاردة رجال الكتلة وإقصائهم . وقد كانت المرة الاولى في عهد مجلس المديرين الذي أقامه المندوب الافرنسي بعد سحب المعاهدة وسقوط العهد الوطني وفي ظروف اغتيال الزعيم ومحاكمة المتهمين الذين أدخل بينهم رجال الكتلة البارزون . وأما المرة الثانية ففي عهد الغزوة الانكليزية - الديغولية - وفي ظروف محاولة الافرنسيين توطيد نفوذهم وسلطانهم من جديد - الى سورية، فان هؤلاء لم يقبلوا شروط الكتلة للعودة الى الحكم وهي عودة الوضع الشرعي الدستوري المعطل قبيل الحرب فاستحضروا الشيخ تاج الدين الحسيني الذي كان العداء مستحكما بينه وبين الكتلة منذ حركات عام ١٩٣٣ وما بعدها والذي كان منزوريا في فرنسه منذ قيام العهد الوطني، وعينوه رئيسا للجمهورية، وعاضدوه فألف وزارته برئاسة حسن الحكيم أحد أركان المعارضة وعضوية بعض بارزها . وهذا وذاك منسجمان مع ما قلناه من ضعف قوة هذه المعارضة الذاتية والشعبية .

ولقد جاء الدليل على هذا حاسماً حينما رأى المحتلون في العهد الجديد من مصلحتهم التقرب الى أهل البلاد تدليلاً على حسن نواياهم ونبيل اهدافهم الحربية فأعلنوا عزمهم على إعادة الحياة الشرعية الدستورية واحترام حرية الامة في الانتخابات النيابية، فلم تستطع هذه المعارضة ان تلعب اي دور أو يكون لها أي شأن ولم ينجح أحد من مرشحيها على كثرتهم، واكتسح الكتليون الميدان بزعامة شكري القوتلي واستلموا مقاليد الحكم في آب عام ١٩٤٣، مع التنبيه على أن الكتلة الوطنية لم تكن قائمة رسمياً في ظروف هذه الانتخابات حيث كان نشاطها كهيئة متضامة قد توقف أثناء الحرب كما أن الهيئة الشعبية التي كانت المعارضة قد تجمعت فيها في العهد الوطني أيضاً قد انحلت قبل هذه الانتخابات، واشترك الناس في الانتخابات دون ماتكتل حزبي رسمي، وكان شكري القوتلي الذي تزعم حركة الدور الجديد يبشر بالوحدة الوطنية وعدم الحزبية، ومعظم الذين فازوا في الانتخابات كانوا ممن رشحهم أو وافق على ترشيحهم سواء من رجال الكتلة أو المستقلين .

الفصل الثالث

العهد الاتحادي الثاني

١٩٣٩ - ١٩٤٣

- ١ -

الارهاب بعد سحب المعاهدة

وكما فعل الافرنسيون عقب انهيار عهد فيصل فعلوا تقريباً عقب انهدام العهد الوطني دون أن يكون للعشرين عاما التي مرت بين العهدين اي تأثير في ذهنيهم . فمن جهة نشروا الارهاب في جو سورية واصلثوا السيف واخذوا يتعقبون من ظنوا فيهم القدرة على الحركة النضالية فاعتقلوا فريقا وشردوا فريقا آخر من رجال الوطنية وشبابها، ومن جهة اقاموا أداة حكومية منفذة لمشيئهم باسم مجلس المديرين ووضعوها على رأسها بهيج الخطيب الذي له صلة وثيقة بهم، ومن جهة اعلنوا وقف الدستور والمجلس النيابي وتشكيلات رئاسة الجمهورية والوزارة وحقوقها، فعاد بذلك نظام الانتداب وعده بكل سعتها وبشاعتها . ولم تلبث الحرب العالمية الثانية أن نشبت فكان لهم منها فرصة لتشديد ضغطهم وتضييقهم وإرهابهم واستغلالهم ومكائدهم .

وقد احوالوا نبيه العظمة ورفاقه الى المحاکمة العسكرية وضموا اليهم اسماء كثيرين من رجال الحركة وشبابها الذين تشردوا بالمطاردة ووجهوا اليهم نهباً خيالية ومضحكة (١) تدل على ما يبيحه المستعمر لنفسه في سبيل القمع والارهاب من الوسائل وحكموا عليهم بالسجن مدداً متنوعة منها ما هو طويل جداً . وفي اثناء ذلك انكشفت مؤامرة كان يدبرها بعض المتحمسين لاغتيال بهيج

١ - من جملة التهم ملة نبيه العظمة وأخيه عادل بهتار وتلقى الاول من هتار شكاً بثلاثين الف جنيه ذهباً دون ان ينجبوا من سحافة الكلام فضلا عن التهمة وكيف يمكن ان يكون مثل هذا المبلغ شكاً

الخطيب رئيس مجلس المديرين انتقاماً لقيامه على انقراض العهد الوطني واندماجه مع الافرنسيين فتجددت حركة الاعتقالات، وادخل في نطاقها بعض رجال الكتلة والشباب . وقد كانت القضية في يد القضاء السوري فلما رأوا هذا القضاء غير هاضم ما يراود تهذيبه له من التلفيقات والاحكام سجنوها منه واحالوها على المحكمة العسكرية ومزجوا هذه الحادثة بتهم اخرى بعيدة عنها كل البعد إيفالاً في الارهاب والارهاق، وحكمهم بمدد متنوعة ايضاً منها ما هو طويل جداً . ومن عجب مفارقاتهم انهم ادخلوا نبيه العظمة وبعض رفاقه المحكومين في نطاق هذه القضية وحكمهم بمائة ثانية وحكموا عليهم احكاماً جديدة ضوعفت بها مدد سجنهم .

- ٢ -

العنف الافرنسي أثناء الحرب

ولقد مر بسوريا سنة وبضعة شهور قاست خلالها من الشدائد والارهاق الوانا، وكانت الجاسوسية والمحاكمات العسكرية والمطاردات والاعتقالات تزجج الناس في كل حركة من حركاتهم ولحظة من اوقاتهم اشد الازعاج ، وتشردم تحت كل كوكب .

وقد استغل الموظفون الافرنسيون الفرصة وخاصة فرصة التموين ومراقبة الاخراجات والادخالات ولوازم الجيش ومعاملات الجمر ابعث استغلال ، حتى لقد كانت اعمال النهب وشدوذ الاجراآت عن كل معنى منطقي في سياقها بارزة تريد في وجع الموقف ومرارته ، وبالغة حدّاً بعيداً في البشاعة والاستهتار . ولقد كان موظفو التموين (الاعاشة) يضعون ايديهم على ما في السوق من السلع الرائجة بحجة حاجة الجيش او الانتاج الحربي بشن بنحس يقدرونه ويدفعونه لاصحابه من العملة الورقية التي ضوعفت اضعافاً مضاعفة ضاعفت من هم الناس وقلقمهم لثرواتهم الذهبية والعينية التي تؤخذ من ايديهم مقابلها ، وقد لا يكون للسلع صلة بمحاجات الجيش والصناعات الحربية ، ثم لا يلبثون في الايام التالية ان يعرضوها للبيع بأيدي السامرة بأسعار عالية !! وكانت دائرة التموين تقطع سعراً معيناً للغلات وتصادرها

من البيادر والمخازن وتدفع ثمنها حسب هذا السعر في حين يكون سفرها في السوق ضعفاً وضعفين، وكثيراً ما كانت الكميات المصادرة أكثر من حاجة الجيش، وكان الناس يلمسون تسرب شيء منها إلى السوق لتباع بالأسعار المرتفعة كما كانوا يلمسون شحنها إلى فلسطين لتباع بأسعار عالية فيها. ولقد حدث كثيراً أن يذهب ضباط افرنسيون ومعهم سيارات شحن إلى حوران وغيرها فيصادروا كميات من الغلات مقابل وصولات وبيانات يظهر زيفها وتزويرها حينما يراجع أصحاب الغلات دوائر التموين والجيش! ولم يكن في إمكان تاجر مستورد أو مصدر الحصول على رخصة توريد أو تصدير للسلع المسموح بها إلا بعد دفع عمولات مضاعفة منها ما هو رسمي لصندوق ما كان يسمى بالمصالح المشتركة والذي كان ينفق منه على جيوش الموظفين الافرنسيين والجيوش المسلحة، ومنها ما كان يذهب إلى جيوب المشرفين على الدائرة، وكان نصيب كل معترض أو شاك الحرمان والعترات والعراقيل والاعتقال أحياناً. وكان هذا يجري بدون ما تستر كأنما هو امر عادي. ولقد كان في لوائح الجمارك مواد بشأن مراقبة المهربات والمحظورات ومكافأة المراقبين استغلها الموظفون الافرنسيون استغلالاً واسعاً وبشعاً منتهزين كذلك جو الحرب ورهبتها، وكان يقع في هذا السبيل كوارث ونكبات عظيمة، وكانت هذه الدائرة دائرة جاسوسية من جهة ودائرة تعذيب تفتيشي من جهة أخرى. وكانت في جملة ما تفعله مصادرة الذهب الذي يحمله الداخلون إلى سوريا بحجة انه مال مهرب ووضع غرامات باهظة على ناقله فضلاً عن حرمانه منه، وبلغ الامر إلى كبس البيوت وتخري حسابات الناس ودفاترهم ومصادرة ما يوجد من الذهب لديهم بحجة انه ادخل مهرباً، ووضع الغرامات الباهظة وسوق المتهمين إلى السجن رهناً على دفع هذه الغرامات. وقد سمعنا قصصاً عديدة عن جميع هذا من اصحابها وخاصة في صدد تحكم موظفي الجمارك وما يسومونه الناس من خسف وتعذيب بقصد تأمين مكافآت باهظة لهم هي ادخل في باب النهب والسلب بالاكراه منها في باب المكافآت القانونية.

ولقد تضاعف شر الجاسوسية اثناء الحرب واصبحت هي الاخرى وسيلة سلب ونهب حيث كان الجواسيس يلاحقون الاشخاص ويهددونهم بالوشايات وابتزاز منهم المال ويوقعون بمن لا يستجيب اليهم بعلم وتخريض من رؤسائهم الافرنسيين. وتجاوز ضغط الافرنسيين نطاق السوريين إلى الفلسطينيين الذين كانوا في دمشق بمناسبة ثورة فلسطين سني ١٩٣٧ - ١٩٣٩ فأخذوا يضيقون عليهم الخناق ويعتقلونهم

بالعشرات مع انهم كانوا يعضون العين عنهم جواباً انتقامياً لما كان من أغماض الانكليز عن حركات مجاهدي سوريا ومنظمي امورهم ، وكان تأزم الحالة السياسية الأوروبية مما ألزم فرنسا الاستعمارية الاستجابة الى تأثير الانكليز وضغطهم في هذا الصدد . وشجع على ذلك انهزام العهد الوطني وما كان من جو الأرهاب والشدّة الذي بثه الافرنسيون في سوريا ، حيث ارحى لهم هذا ان يكون الأرهاب شاملا لكل مناضل ولكل حركة نضالية ولو لم تكن مواجهة اليهم . وقد كان مؤلف الكتاب هدفاً رئيسياً لهذا الضغط الذي بدأ منذ تأزمت الامور في اوروبا فاعتقلوه مع بعض الفلسطينيين ، وحاكموهم بعد إعلان الحرب في المحكمة العسكرية وحكموهم بالسجن . وقد شهدنا ونحن في السجن وقائع وحوادث يقشع منها البدن وتشتمل منها النفس من ضرب وتعذيب في سياق التحقيق والتهميد للمحاكمات العسكرية مجردة من كل رحمة ورأفة . ولم يسلم أي شخص وقع في يد الدرك الافرنسي من ضرب او إهانة الا نادراً جداً وكنت انا من هذا النادر . وقد كانوا يضربون المتهم حتى يدموا جلده واحياناً حتى يعطلوا بعض اعضائه . وكثيراً ما كان المعتدون يذمبون عن وعيهم وكان الخوف من تكرار العذاب يسوقهم الى الاعتراف بكل ما يملكه المحققون الافرنسيون ومن غريب المفارقات ان احد المتهمين حينما وقف امام المستنطق العسكري قال له أن اعترافاتي كانت نتيجة الضرب فصرخ في وجهه وصفعه قائلاً ان الامرنيين لا يضربون ! وكانت المحاكم العسكرية تحكم بتقارير الجواسيس ومذكرات الدرك الافرنسي وترفض أي اعتراض وتأبى جلب اصحاب التقارير والمذكرات للمناقشة والشهادة العلنية .

- ٣ -

الطامة بعد انهيار فرنسا

ولما انهارت فرنسا في صيف عام ١٩٤٠ حاول القائد الافرنسي العام بالاتفاق مع المندوب السامي بيو ان يقف موقف المناوئ لفيشي استجابة لدعوة الجنرال ديغول الذين اخذ يدعو الى المقاومة باسم فرنسا الحرة من لندن بتشجيع الانكليز وتعريضهم ، واحتفاظاً بالسيطرة على بلاد الشام ، واعلنت بريطانيا تأييدها لها واستعدادها لمساعدتها ومدّها بالقوى المناضلة فهلعت القلوب من احتمال استمرار

الكرب بعد ان تنفس الناس الصعداء حيث رأوا في ذلك الانهيار فائضة للفرج ، ثم عادا عن موقفها لما بدأ من ضعف حركة المناوأة الديغولية في بادىء الامر ولعدم مياس الهدنة بين الالمان وفرنسا فيشي بموقف فرنسا من سوريا ولبنان .

وقد بدأ ان ييو تلقى من فيشي تعليمات في صدد التنفيس والتفريج في سوريا ولبنان نمشياً مع حالة الرهن والانهيار التي ألمت بفرنسا ، فكانت اتصالات بينه وبين بعض رجال سوريا أسفرت عن اتفاق على اجتماع يتعقد بينه وبين شكري القوتلي الذي خرج سليماً نوعاً ما من التحطيم المعنوي الذي أصاب زملاءه من رجال العهد الوطني على ما اثرتنا اليه قبل في شتوره الواقعة في منتصف طريق دمشق - بيروت للبحث في الموقف . ولكن الجو تعكر فجأة بمحادثات اغتيال الدكتور شهبندر التي وقعت في الأسبوع الاول من شهر آب عام ١٩٤٠ وفي نفس اليوم المعين لذلك الاجتماع ، فاستغلها المارظفون الافرنسيون في دمشق اشد الاستغلال وتآمروا مع اداتهم الحكومية او بالاصح مع رئيسها ضد البارزين من رجال الكتلة ، فوجهت الى جميل مردم وشكري القوتلي وسعد الله الجابري ولطفي الحفار تهمة التآمر والاغتيال ، وكان من النتائج المباشرة لذلك الغاء الاجتماع المذكور . وبما لا شك فيه ان الموظفين الافرنسيين في دمشق وشركاءهم من كبار موظفي المندوبية في بيروت كانوا على علم بما جرى من اتصالات وبالاتحاد المتفق عليه مما يجعل مسارعهم الى تهمة رجال الكتلة بالحادثة او على الاقل تقوية خاظرها الذي يمكن ان يكون قد خطر لأولياء الشهبندر بسبب التشاد والعداء بين الفريقين مقصودة لشلمهم عن الحركة والحيلولة دون تبدل العهد القائم او تأخير مدة ماحتى لا ينتهي عهد النفوذ والمجد والمكاسب الذي كانوا يتمتعون به والذي كانت فرصة الحرب اعظم وسيلة لاتساع تمتعهم به ، والذي كان من دوافع مؤامراتهم على العهد الوطني ودسهم عليه وإحباطه نهائياً .

ولقد شغلوا دمشق برمتها بهذه الحادثة وتحقيقاتها ومحاكماتها حتى جاء وقت ينذر بوقوع فتنة هوجاء بين الناس الذين انقسموا الى معسكرين ، وكانت اصابعهم في التحريض والمؤامرة على جماعة الكتلة وانصارها ظاهرة حتى بلغ عدد الذين اعتقلوهم منهم نحو مئة شخص . وانطلقت السنة الصحف المأجورة او المعارضة للكتلة تشتم رجال الكتلة وتنتعهم بالقتلة والمتآمرين . ولم تنفرج الازمة نوعاً ما الا باعلان المندوب الجديد الجنرال داتز الحيداد والعزاهة التامة في



فخامة شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية السابق

القضية . وقد كانت فيشي سحبت بيو نتيجة للشكايات والمسااعي المبذولة وأرسلت هذا ليحل محله مزوداً بتعليمات المسيرة والتنفيذ .

وقد جرت المحاكمة كذلك فعلاً فظهرت في قاعة المحكمة آثار التزوير والتحرير والتآمر والتعريض ، وبرى رجال الكتلة من التهمة وانتهى الأمر عند حده الطبيعي حيث صدر الحكم بالاعدام ضد الشبان الثلاثة الذين اشتركوا في الجريمة .

ونقد قيل في سياق هذه الحادثة إن مؤامرة الشبان كانت تتناول غير الشهبندر جميل مردم وهيجل الخطيب ، باعتبار أن الاثنين الأولين ضرباً قضية الوطن بتنازعها وشقاقها ، وأن الثالث تآمر مع السلطات الفرنسية على ما كان منها من تصرفات باغية وغدر قبيل الحرب وفي أثنائها .

ولقد كان فيما كان من ظروف الحادثة أن الموظفين الفرنسيين خشوا ان يغفل رجال الكتلة من التهمة بأساليب القضاء المدني فأوعزوا لمجلس المديرين فقرر سحب قضيتها من المحاكم المدنية وإحالتها على المجلس العدلي الشبيه بالمجلس العسكري او العرفي وب الرئاسة قاض فرنسي وبإدارة محقق عدلي عسكري ، وقد أصدر هذا قراراً بجماعة جميل وسعد الله ولطفي ومنع محاكمة شكري . فلم يسع الثلاثة إلا مغادرة سوريا الى العراق ، وكان هذا هو المقصود على ما اعتقده المراقبون .

ولقد تولى شكري امر الدفاع عن زملائه وبرز كزعيم للكتلة والحركة الوطنية ورجل ساعتها وأخذ رجالها وانصارها يلتفون حوله فدخل الفرنسيين الندم على منع محاكمته وعدم تشريده هو الآخر فلم يتورعوا عن إحاطته بجو مزعج من المراقبة والترصد من جهة والاضواء عن ما بدا من الجرأة على بيته ، والتفكير في وسيلة تقصيه عن الميدان من جهة اخرى . ولقد كادوا يجدون الوسيلة ، فقد كان بعض ضباط وموظفي الجيش الفرنسي اتهموا بسرقة وبيع السلاح من مخازن الجيش سنة ١٩٣٦ وكان ذكر بعض اسماء الوطنيين كمشتريين للسلاح للشرطة الفلسطينية ومن جملتهم شكري القوتلي ، ثم أقفل الحديث لأنه لم يكن مستنداً الى دلائل راهنة من جهة ، وكان العهد الوطني الذي كان شكري القوتلي فيه وزيراً قد قام من جهة اخرى . فاستدعت دائرة الدرك الفرنسي بعض الحكوميين الذين كانوا من موظفي الجيش الفرنسي بعد صدور قرار منع محاكمة شكري وبروزه

وفاتحتهم في الأمر وحقت معهم في امر صلة شكري بقضية السلاح ولوحت لهم ببعض الآمال . وقد فهمنا هذا من اقدم شفاها حينما كنا في السجن واخبرنا به شكري ، وهذا بدوره اخبر به المندوب فأصدر امره بعدم نبش الماضي واختلاق الأحداث والوسائل ضده .

ولقد اعترف القاتل احمد عصاصة ورفيقاه في قاعة المحكمة بالجرم وقرروا ان الباعث عليها هو العاطفة الدينية والوطنية معاً ، وخاصة الأولى لأنهم علموا ان للشهيد آراء منحرفة في صدد الدين وتقاليده . ونفوا اي علاقة مباشرة وغير مباشرة لجيل ولطفي وسعد الله وغيرهم من رجالهم بالحادث ، وكانوا في اثناء التحقيق وقعوا على اعترافات منافية لهذا الاعتراف والنفي فلما سئلوا عن ذلك قالوا إن هذه الاعترافات أخذت منهم بالضغط والاكرام حيناً وبالاغراء حيناً وإن بهيج الخطيب وموظفي الأمن الافرنسيين هم الذين استعمالوا معهم هذه الأساليب . وكان سبب الاعتراف أن المحكمة استدعت الشيخ الكتاني المغربي الذي كان القاتل من مريديه ، وبعد أن ادلى بعلوماته عن اخلاق مريده وروحه المتدنية طلب اليه ان ينصحه ورفاقه بالاعتراف بالحقيقة كاملة ، ففعل بأسلوب بليغ واعلن فيصل الشهيد استعدادده للعفو اذا اعترفوا بالحقيقة والباعث وساد المحكمة جو رهيب ثم صرخ احمد بصوت تحنن، عبرات الحشوع والاستجابة للنصيحة فاعترف كما قلنا فكان مشهد رائع ورهيب أثر في جو المحكمة وقضاها وحاضريها تأثيراً بليغاً وكان فيه القول الفصل ، ولا سيما قد كانت اصابع التزوير والتصنيع والتأمر فضجت لدى استماع الشهادات .

- ٤ -

تجرد نشاط الحركة الوطنية وأثره

وحينما خف التوتر في حادثة الشهيد بعد إعلان المندوب السامي الحياد والنزاهة في قضيتها أخذ شكري القوتلي يقوم بمجلة في سبيل اطلاق المحكومين السياسيين والكف عن مطاردة الناس وتثريبهم كبده للحركة الوطنية من جديد ، فكان

من نتيجة هذه الحملة التي أيده فيها رجال الحركة الوطنية في دمشق والمدن الأخرى أن أطلق سراح المحكومين وخفف من شدة المطاردة والتجسس، وكنت من جملة من أطلق سراحهم في أول تشرين الثاني من عام ١٩٤٠

ولقد كان إطلاق سراح المحكومين والكف عن المطاردين وسيلة لنشاط المهمم والعواطف الوطنية فلمسنا روح دمشق الجياشة منذ غداة إطلاقنا وانطلقت الألسنة في صدد المطالب القومية، وأخذت تقوم حملة ضد الأداة الحكومية القائدة وضد تصرفات إدارة التموين التي ذكرنا عنها بعض الشيء والتي حاول الأفرنسيون الاستمرار فيها بعد انهيار دولتهم أيضاً دون ارعواء واعتبار. ولقد تشجع أصحاب السلع في دمشق وتضامنوا على الوقوف في وجوههم حتى إنهم تجمهروا أكثر من مرة بعصيتهم ليردوا حملات المصادرة التي اعتاد هؤلاء الموظفون أن يقوموا بها في جو الحرب وإرهابها. وأخذ الموقف يعود الى التأزم ومرجل الحماص يعود الى الغليان، وأعلن إضراب عام في دمشق امتد امداً غير قصير، وأذاع شكري القوتلي بياناً قوياً عن موقف البلاد وقضيته وحقوقها. وكان فيما كان الكلام يجري فيه واجب فرنسا بالوقوف موقفاً نبيلاً وهي في محنة مريرة وأمام مصير مجهول استدراكاً لما كان منها من مواقف غادرة باغية؛ واعتباراً بيد الله الجبار المنتقم فيها.

ولقد كان الموقف في الحق عجباً متناقضاً. ففرنسا منهارة خاضعة لجباورة الألمان تذوق كأس الاحتلال الكريه ويقف رجالها وقفة المهين على عتبة قواد احتلالها بينما هي في سورية تمثل دور المحتل الغشوم والمتسلط الجبار. وبما أذكره انه قام في السجن مرة بعض حركات فردية وجاء ضباط الدرك الأفرنسيون يظهرون شراستهم وغطرستهم بسبيل تأديب المتمردين فصرخ بعض هؤلاء فيهم معييراً بالموقف الذي هم فيه قائلاً لهم دون مبالاة بما يناله: اذا كانت لكم كرامة وتودون المحافظة عليها وإظهار زهوكم وعظمتكم فليس السوريون محل ذلك الان وإني أتمنى الألمان في وطنكم، وإن موقفكم منا هذا الموقف ونحن أمة صغيرة عزلاء بعد

هو انكم أمام خصم تعدون بالنسبة اليه شيئاً مذكوراً هو عار الأبد عليكم وعلى فرنسا (١). ولقد كان رجال فرنسا في فيشي يدركون على ما بدا ما في الموقف من تناقض وما هم عليه من عجز، ولكنهم كانوا يخشون أن يكون في أي خطوة صادقة يخطونها تفريطاً بما في أيديهم وإضعافاً لهيبتهم المترعزة ونفضاً للبذخ من المطامع الاستعمارية والمنافع الاستغلالية لم يكونوا ليهضموه بالرغم مما حل فيهم . وإضاعة لورقة قد تفيدهم في المساومة في ظروف الدنيا المتجهمة . ومع ذلك فإن الموقف اضطرهم إلى الاستجابة للاصوات المتعالية والاحتجاجات المتوالية فعمد المندوب إلى حركة تطهير وتحقيق في حق الموظفين الفرنسيين أقبل في سياقها بعض كبار موظفي المندوبية واعتقل بعضهم وأحيل على المعاش بعضهم، وذاع في ما ذاع خبر وجود ثروات طائلة من سلع وتحف وسجاد وسبائك ذهبية عند بعض هؤلاء الموظفين حصلوا عليها بالطرق التي ذكرناها والتستر على من كان يقوم بالسلب والنهب من الموظفين المختصين ومشاركتهم فيها ! وقد اعتذر عن القيام بأي عمل حاسم وأساسي في صدد القضية الوطنية، وإستعداده لمعالجة الموقف معالجة موقته، وكان من نتيجة ذلك أن نجت الأداة الحكومية البغيضة التي يرأسها بهيج الخطيب، وأن أعيد تشكيل مجلس الوزارة برئاسة خالد العظم . ومع أن الخطوة كانت نصفية فإنها قوبلت بشيء

١ - وفي هذا المعنى قال الشاعر البليغ بدوي الجبل في قصيدة له جدير بالتسجيل :

يا سامر الحمي هل تفنيت شكوانا	رق الحديد وما رقوا بلوانا
قل للأل استبدوا الدنيا بفهم	من فسم الناس أحراراً وعبداً
إني لأنت بالجار بصرعه	طاغ ويرهقه ظلاً وطفاناً
لعله تبث الأحزان رحمة	فصبح الوحش في برديه انساناً
سمعت باريس تشكو زهو فاتحها	هلا تذكرت يا باريس شكوانا
والجبل في المسجد المحزون جائلة	على المصلين أشياخاً وفتياناً
والآمين أفاقوا والقصور لظي	تهوي بها النار بنياناً فبنينا
تلك الفضائح قد سميتها ظفراً	هلا نكأننا يوم الروع سيقانا
إذا انفجرت من المدوان باكية	فطالما ستمتاً بغياً وعدوانا
عشرين عاماً شربنا الكأس مترعة	من الأذى فتملئ صرغها الانا
ما لاطواغيت في باريس قد مسخوا	على الأرائك خداماً وأعواناً
الله أكبر هذا الكون أجمعه	الله لا لك تدبيراً وسلطاناً
ضفينة تنزى في جوارحنا	ما كان أغناكم عنها وأغناناً

من الارتياح لأنها أزالـت كابوس تلك الأداة وخففت من سوء تصرفات الموظفين الفرنسيين؛ وحل الناس إضرابهم وصاروا يتطلعون بنفس مطمئنة مرتقبة إلى قرب يوم الفرج الأكبر، هذا مع التنبيه إلى أن شكري القوتلي أذاع بياناً آخر أشار فيه إلى أن سوريا لا تكتفي بالعلاج الموقت وإنما تطالب بحقوقها الشرعية، ودعاهم ذلك الناس إلى حل الإضراب واعداء الاستمرار مع إخوانه في العمل على الحصول على تلك الحقوق .

ومن طريف ما كان ويجب تسجيله من تصرفات الفرنسيين العجيبة وخاصة في أمر التموين أن المندوب السامي بناء على ما تعالى من أصوات الشكوى والتذمر من إدارة التموين الفرنسية أن تسلم إلى الوزارة، فلما أرادت هذه أن تسلم مخازن الحبوب التي كان يضع منها الحبز ويبيع للناس بالأسعار المحددة وجدتها فارغة ورأت أنها لا تستطيع والحالة كذلك أن تحمل عبء تدبير الحبز ولا سيما ليس في يدها قوة مسلحة ولا هيبة موطدة، فرفضت الاستلام وطلبت بقاء إدارة الميرة بيد الفرنسيين تفادياً من كارثة مجاعة تحل في الناس، وراح الناس يتساءلون عبثاً عن مصير اكداس الحبوب التي صادرتها هذه الإدارة من غلات البلاد باسم الاعاشة والتموين !

- ٥ -

الفزوة الانكليزية الديغولية وسيرها وأثرها

على أن الجو السياسي ما لبث أن تلبد بعد هذه الخطوة التنفيذية بما كان من الاحتلال الانكليزي - الديغولي . فمنذ عقد الهدنة بين فرنسا والمانيا أخذت الدعايات الانكليزية تنبث في سوريا ولبنان منذرة باحتلال الانكليز ، وأخذت هذه الدعاية تبدو خاصة في صفوف الفرنسيين وبنوع خاص ضباطهم عن طريق الدعوة الديغولية ، وأخذ الناس يلمسون في صفوف الفرنسيين اختلافات ومنازعات متنوعة الصور والأساليب لانقسامهم إلى فيشين « نسبة إلى فيشي التي اتخذها المارشال بتان رئيس الدولة الجديد الذي نهان مع الألمان مركزاً » وديغولين . هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت الأصوات الانتقادية ترتفع من

الأوساط الانكليزية عازية للسلطات الافرنسية الفيشية في سوريا ولبنان تسهيلات لقوى المحور وطياراته ، ومبدية مخاوفها من استيلاء المحور على البلدين ، ومطالبة بالوقوف موقف الجدل ، ومعددة ما يكون من استيلائه من أخطار وأضرار . ومنذئذ والناس يتلقون هذه الدعايات والاذاعات كمقدمات لاحتلال انكليزي في أول فرصة ممكنة حتى لقد كانت الشوائع تشيع عن موعد معين ؛ وكانت الطيارات الانكليزية تخلق من آن لآخر في سماء سوريا ولبنان مستكشفة مستطلعة مرهصة ، وأخذ بعض الضباط الافرنسيين يتسللون الى شرق الأردن وفلسطين للانضمام الى القوى الانكليزية والديغولية . وقد جاء الجنرال كاترو وكان من رجال المندوبية الافرنسية ورئيس ضباط الاستخبارات في سورية ولبنان الذين كان لهم أفضع الادوار في حركة الفساد والدس والكيد كنائب للجنرال ديغول الى القدس واتخذها مركزاً لبث الدعاية وتهيئة الخطوة العملية في الفرصة المناسبة ، فقويت بجيئه الدعاية وأخذ التسلل يزداد من سوريا ولبنان حتى صار شبه علني ، وحتى صار يفر بعض الضباط مع فصائل كاملة من الجيش الافرنسي أو المتطوعين كما فعل الكولونيل كوله مع فصيل من متطوعي الشركس ، وحتى اضطرت السلطات الافرنسية الى حركة تطهير ومطاردة فر بمناسبة عدد غير قليل من الضباط ، وفر في من فر الكولونيل مدور قائد الدرك اللبناني حيث كان يبذل جهوده الكبيرة في تسهيل حركات الفرار . وقد اشتركت شرق الاردن في هذه الحركة ، وأخذت تجري الاتصالات بين أولي الشأن فيها وبعض رجالات وصحافيين في دمشق أملاً بأن يكون من ورائها تحقيق وحدة سوريا وتوسد عبد الله بن الحسين عرشها ؛ وظهرت آثار ذلك في بعض الصحف السورية التي كانت تنقل الأخبار وتشر الارهاصات عن الحركات والخطوات المتوقعة بأساليب مختلفة .

فلما نشبت الحرب العراقية الانكليزية في مايس عام ١٩٤١ اشتدت الاصوات القائلة إن المحور يتخذ سوريا قاعدة لمساعدة حركة العراق وإن في سوريا ولبنان آلافاً من الألمان ، وقصفت طيارات الانكليز مطارات سوريا الشمالية فاعتقدنا ان القفزة الانكليزية قد قربت وانها منوطة بصير الحركة العراقية ، وان كل ما يجري إنما هو بسبيل الدعاية والتهويل والتبرير ، ولا سيما ان دعوى وجود آلاف

الامان ومثات الضباط والطيارات الالمانية غير صحيحة ، وكل ما كان من امر وجود بعض مندوبين طليان والمان باسم لجنة الهدنة ومراقبتها ؛ وكانت مداخلتهم مع الجنرال دنز بتحفظ كبير كما كان هو نفسه يتحاشى هذا التدخل لئلا يكون حجة عليه بيد الانكليز ، وكان يحتج على ما يصدر من هؤلاء من دعاير ودعايات وتهم بصدد ذلك وينفيه المرة بعد المرة .

ولم يمض على انتهاء حركة العراق إلا اسبوع واحد حتى زحفت القوى الانكليزية والديغولية مع بعض طلائع اومفارز اردنية من الجنوب بتاريخ ٨ حزيران ١٩٤١ ، ثم انشطرت شطرين اتجه احدهما نحو دمشق وثانيها نحو جبل عامل والساحل ، واخذت تقع الاشتباكات بينها وبين القوى الافرنسية الفيشية والفصائل السورية واللبنانية التي كانت تحت القيادة الافرنسية وهي المسماة بالجيوش المحلية .

ولقد لقيت بعض المقاومة في الجبهتين ولم يتسن لها السير بسرعة كما كان مقدراً . وكان الجنرال دانز مشتتاً في هذه المقاومة كما كان مندوبو المحور لا يفتأون يشدون همته ويثيرون حماسه فيها ؛ غير ان الدعايات اخذت تنبث في القوى المدافعة فتوحي اكلها في التثييط والتحول من جبهة الى جبهة . فقد كانت تقف في الواقع في وجه قوى افرنسية يقودها ضباط افرنسيون وقوى إنكليزية حليفة وصدقة ؛ ولم يكن من شأن فوز هذه القوى بما تريد ان يجعل القوى المدافعة تنسحر شيئاً مادياً او معنوياً . وهكذا اخذت القوى الغازية تتقدم وتستولي على البلاد تدريجياً ثم جاءت قوى ميكانيكية جديدة من جهات الصحراء واخذت تنوغل في الأنحاء الشمالية فتم نطاق التطويق . وقد دامت الحرب نحو ستة اسابيع اضطر الفيشيون بعدها الى طلب الهدنة فأجيبوا الى ذلك على اساس التخلي عن سوريا ولبنان للاحملة الجديدة ، واستتب الأمر كذلك في الاسبوع الرابع من تموز عام ١٩٤١ بشروط فيها كثير من التساهل . وقد احتوت فيما احتوته حرية الافرنسيين في مغادرة البلاد مع مالهم من متاع وبأيديهم من سلاح ، وبقاء من يود البقاء منهم عسكريين كانوا او مدنيين على مراتبهم ومرتباتهم مما استجاب له فريق كبير من النوعين منهم . وقد ابي الفيشيون ان يعترفوا بالديغولين كطرف ثان اثناء المفاوضات فأجيبوا الى طلبهم ، وجرى التفاوض والتوقيع بينهم وبين القائد

الانكليزي . على انه كان بادياً ان الأمر سيكون في يد الديغوليين وان الانكليز إنما هم مساعدون ؛ بناء على الاصل المعترف به من ان سوريا ولبنان ضمن الانتداب والنفوذ الفرنسي ، ومن ان الديغوليين إنما يمثلون فرنسا ومركزها في نظر الانكليز ومصالحهم الحربية . وقد غادر داتز وغيره من رجال فرنسا العسكريين والمدنيين الذين لم يطلب لهم البقاء ميممين شطر فرنسا ، واراد داتز ان يسجل اسمه في تاريخ نهب سوريا ولبنان في من نهبها من بني قومه فحمل معه ذهب البنك السوري اللبناني الذي كان بعض الغطاء للنقد الورقي والذي كان يقدر بمئات ألوف الجنيهات . .

ومن نقائض الافرنسيين التي كانت منهم أثناء هذه الحركة أن الفيشيين حاولوا الانتفاع من فلول المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا في سوريا او أتوا من العراق بعد الحركة الحربية العراقية في العمل على الحدود الفلسطينية لازعاج الانكليز ، فلم ير هؤلاء في العرض ضماناً تبعث فيهم الطمأنينة والأمل فأبدوا استعدادهم للانضمام الى حملة فوزي القاروقجي التي خرجت من بغداد الى الرطبة ثم اتجهت الى سوريا حينما انتهت الحركة العراقية ونشبت الحركة السورية ، حيث كان الافرنسيون أظهروا استعدادهم لمدها وتقويتها للانتفاع منها في حركة المقاومة فرفضوا كما انهم لم يسيروا سيراً جاداً في الوفاء بوعدهم بمد حملة القاروقجي متحسين عواقب ذلك مع انهم ليسوا في وضع يبرر لهم هذا التحسب لأنهم امام عدو جديد مشترك ليس من السهل تغلبهم عليه ولم يكن اشتداد قوة الحملة ليضيرهم شيئاً . وكان الذين يودون ذلك من رجال العرب الوطنيين يأملون ان يكون من الحملة اذا مدت وقويت قوة عربية مستقلة قد يكون فيها بعض الأثر في الكفاح القومي العربي ، ولا سيما إن احتمال عدم امتداد الحرب طويلاً وانتهائها باندحار بريطانيا من الشرق العربي كان إذ ذاك قوياً وسائداً . ولكن الذي يتبادر أن سوء النية والروح الاستعمارية المتأصلة في الافرنسيين منعهم من هضم قيام قوة عربية واحتمال انتفاع الحركة العربية بها مهما كان أمرهم ومصيرهم . . .

وبما يسجل في صدد هذه الحركة أن الفصائل السورية واللبنانية اضطرت الى الحرب الى جانب القوى الفيشية وكانت توضع في الصفوف الأمامية لما كان يتحسب

من فرار افراد هذه القوى ومخامرهم ، وقد قتل وجرح من تلك الفصائل عدد كبير ، ومع ذلك لم ير الفيشيون أن يذكروا ذلك بكلمة ما جحوداً ولؤماً ، وظلوا يشيدون طيلة اسابيع الحركة بدماء فرنسا وضحاياها في سبيل الدفاع عن سوريا ولبنان ضد الغزاة !!

- ٦ -

تجرد الجبوية الافرنسية

ولقد عكر نجاح الحملة الجديدة صفو سوريا وخيب أملها في خفة الكابوس الذي كان يجثم على صدور اهلهابا بنهار فرنسا وغدوها تحت سنابك الالمان واضطرارها الى المسيرة ؛ فقد خشوا ان تكون الحملة دماً جديداً يحقن الافرنسيين فتعود التصرفات الكريمة التي قاسوا منها ما قاسوا اثناء الحرب . ولم يكن يخطر لبال أحد أن فرنسا الديغولية غير فرنسا التي سيموا من خسفها أشد ما يمكن أن تسام به أمة ضعيفة من أمة قوية سوء إدارة وسوء نية وسوء إستغلال ؛ ولا سيما إنه لم يتغير إلا الاسم ، وإن كثيراً من قواد الحملة وضباطها من كانوا في سوريا كما أن جل الموظفين والضباط الذين قاست منهم سوريا ما قاست وعملوا في سبيل مناوأة الحركة العربية والروح الاستقلالية وتوطيد الاستعمار الافرنسي والسيطرة الافرنسية ما عملوا ظلوا حيث هم ، وكان كاترو رئيس ضباط الاستخبارات والذي كان يدير بواسطة ضباطه حركات الفتن والفساد والدس والنهب هو المندوب السامي الافرنسي في العهد الجديد ؛ ولقد سارع شرشل فألقى خطاباً عقب الهدنة أعلن فيه أن إنكلترا ستظل تعترف بمصالح فرنسا وحقوقها في لبنان وسوريا وأن كان أشار إلى نية منحها استقلالهما وحققها فيه كما ان الجنرال ديغول سارع إلى زيارة سوريا ولبنان وصرح فيما صرح به أن فرنسا باقية في الشرق لمتابعة عملها العظيم في مساعدته وإرشاد اهله ، وان تبدل الأشخاص والأسماء لا يعني تبدل فرنسا وإن كان أشار كذلك إلى ما أشار اليه شرشل ، فجاء كل هذا مصداقاً لما ثار في نفوس السوريين من همّ وقلق... ومن المضحكات المبكيات ان بتان رئيس الحكومة الفيشية التي كان رجالها يرمغون

وجوهم على تراب اقدام الالمان لم يبجل هو الآخر بأن يؤكّد تعلق فرنسا ببلاد الشام حيث اذاع بياناً يعتذر به عن اضطرار قواته للهدنة اعدم التكافؤ بين القوى، ويوجه شكره لأهلها على تعلقهم بفرنسا، ويطمئنه بأن هذه النتيجة ليست إلاّ حالة عارضة، وان فرنسا التي احبوها لن تتركهم وستظل تقوم بواجبها من الارشاد والحماية نحوهم؛ ثم امر داتز باحتفاظه بلقبه كمنسوب سام وقائد عام برهاناً على اهتمامه لهذا الواجب العظيم!! «كبرت كلمة تخرج من افواههم إن يقولون إلاّ كذباً».

ولقد كان فيما كان أن الجنرال كاترو اذاع بالراديو نداء ألقى بالطيارات كمنشور على سوريا ولبنان بين يدي زحف الحملة ذكر فيه أن الحملة إنما تستهدف تحرير الشام وحفظها من خطر الالمان ومنحها استقلالها على أساس التعاون النزيه ودعاهما إلى التعاون معها واستقبال العهد الجديد والفرصة الذهبية السانحة، وانه حينما قدم الى سوريا عقب الهدنة أرسل إلى خالد العظم رئيس الحكومة كتاباً أكد له هذا الوعد وطمأنه بتحقيقه في وقت قريب؛ وأن الوزير الانكليزي لبتلتون وهو المفوض اليه أمر المسائل المدنية والسياسية في جبهة الشرق العربي جاء إلى بيروت اثناء وجود ديفول واجتمع به ثم نشر كتابان في آن واحد من الاول للثاني يثبت فيه ما تم الاتفاق عليه في المحادثات الشفوية من أن انكلترا لا تتعقب اي مطمع أو سياسة خاصة في سوريا ولبنان وان إنكلترا وفرنسا متفقتان على منح هذه البلاد استقلالها وحكمها الوطني على ان يكون لفرنسا حق الرجحان فيها، والثاني من ديفول الى لبتلتون يسجل فيه اعتراف انكلترا بان لا مطمع ولا سياسة خاصة لها في سوريا ولبنان واعترافها كذلك بمركز فرنسة وحق رجحانها فيها، ويؤكد ان فرنسا متفقة معها على منح هذه البلاد إستقلالها وحكمها الوطني على اساس التعاهد الذي يضمن لفرنسا ذلك المركز والحق.

المفاوضات في سبيل اقامة عمره جدير وروح فرنسا الاستعمارية فيها

وقد جرت بناء على ذلك كله وعقب الهدنة بمدة غير طويلة سلسلة غير طويلة من الاتصالات والمشاورات بين ديفول وكاترو من جهة ورجال سوريا من جهة

أخرى تحتوي في مطاوعها توخي الافرنسيين تثبيت مركزهم واعتبارهم أصحاب الشأن ومصدر السلطات في سوريا وتهالكهم على الوصول إلى وضع مستقر على أيديهم على أساس معاهدة تجعل لمركزهم ورجعائهم وما ينطوي فيها من مطامع إستعمارية صبغة شرعية ودولية ، كأنما كانوا يخشون ان تضيع الفرصة او كأنهم كانوا يريدون ان يستغلوا فرصة اعتراف الانكليز بمركزهم قبل مرور الزمن عليه ، بما يدل على انهم لم يكرنوا في قرارة انفسهم مطمئنين الى الموقف بصورة عامة والى الانكليز بصورة خاصة .

الانكليز في هذا العهد

ولقد كان وجود جماعة فرنسا الحرة وحياتها وقوادها وقواتها وحركتها قائمة بالانكليز ووسائلهم ، وكانت القوى الانكليزية في سوريا تفوق قواها كثيراً ، وكان وجود الانكليز هو المحسوس والأقوى ، حتى لقد ألغى محافظ الجزيرة وظيفة المندوب الافرنسي في محافظته فلم ير هذا بداً من الرحيل ، وامر موظفي الجمر على الحدود بتوريد جبايتهم الى صندوق المحافظة فابوا فلم يلبث ان ذهب ضابط إنكليزي على الحدود واركب الموظفين الافرنسيين سيارة واجلاهم الى بيروت كما كانت ابواق الدعاية الانكليزية تهتف بالسوريين انهم احرار في التعاقد مع الافرنسيين وعدمه ، وان لهم الحق في إبداء رغباتهم بمضابط يقدمونها للسلطات الانكليزية ، وكانت دعاية ومناعي عبد الله بن الحسين في صدد اغتنام الفرصة وتوحيد بلاد الشام تنشط نشاطاً غير يسير مما يمكن ان يوهم انه من تشجيع الانكليز ، وكانت فريق من رجال سوريا الوطنيين بوثق صلاته بالانكليز الخ الخ ؛ فكل هذا اثار على ما يبدو قلق الجنرالين الافرنسيين وربيتها وجعلها يهتان ذلك الاهتمام الذي اشرنا اليه .

- ٧ -

نشاط عاهل الاردن وتعليق على هذا

ونتساءل في هذه المناسبة عما اذا كان رجال سوريا غفلوا او تعبدوا اغفال

مدى نشاط ومساعي اهل الاردن في سبيل توحيد سوريا ، وعما اذا كانت هناك فرصة اضيغت بعدم تجاوبهم بقوة وجد مع هذه المساعي وذلك النشاط ، وعدم اغتنامها لتحقيق امل تنشده الشام كما ينشده عبد الله بن الحسين ، وعما إذا كانت السياسة الانكليزية الرسمية مستعدة لتعضيد هذا التجاوب والاستفادة من هذه الفرصة .

والحق ان صاحب عمان نشط نشاطاً عجيباً في تلك الظروف اي في عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ فضلاً عن استمراره في النشاط بعدهما في سبيل هذا الأمر ؛ حيث اخذ يكتب للحكومة الانكليزية ويتصل بممثلها في عمان والشرق العربي ويعقد معهم الاجتماعات ويقدم المذكرات والحلول ويعاود الكتابة بسبيل الرد على مايتلقاه من اجوبة ، ويحمل حكومته اتخاذ القرارات والاتصال من ناحيتها وبصفقتها الرسمية بالحكومة الانكليزية وبذل الجهود المختلفة ؛ وبأداء رجال الشام بالمراسلة عن طريق فارس الحوري ، واذاع بياناً على اهل البلاد الشامية دعا فيه الى مؤتمر عربي لتقرير الخطط والخطوات في سبيل الوحدة السورية التي هي مطلب الجميع على ما يستفاد من الوثائق العديدة المنشورة في الكتاب الابيض الاردني الصادر في عام ١٩٤٧ ؛ بما يدل على انه كان معتقداً اعتقاداً قوياً بأن الفرصة سانحة والظرف موات .

ولقد احتوت رسالة فارس الحوري معنى من معاني التجاوب وفيها ما يمكن ان يدل على ان اخوانه او بعضهم كانوا مطلعين وموافقين عليها ؛ ولايبعد ان يكونوا جادين في ذلك لانهم لا بد من انهم قد هللوا كما قلنا من احتمال تجدد حيوية فرنسا عن طريق الحركة الديغولية بعد ما كان من اغتباطهم بانهارها وتعليقهم الآمال الكبيرة على الخلاص نهائياً من مخالبتها لانهم لا بد من انهم كانوا مدركين ان هذا الخلاص لا يتم إلا بتعضيد الانكليز ، كما انه كان في سوريا اتجاه قوي نحو هؤلاء بسبيل الخلاص المنشود .

ومع ان اجوبة الانكليز كانت كعادتهم تحتوي شيئاً غير يسير من التطين والتأميل والكلام المعسول عما تكنه بريطانيا للعرب من مودة وتذكره مع العطف الشديد من آمالهم في الوحدة ومطابقتها معهم فيها فقد كانت تحتوي استمهالا وتشير الى ان الامور غير مجلية ، وبتعبير اصح كانت اجوبتهم مطاطة ومموهة ؛ هذا الى ما

كان من تصريحات شرشل وكتاب ليتلتون الى ديغول المسبوق باتفاق شفوي بشأن مركز فرنسا وحق رجحانها في سوريا ولبنان . فكل هذا يمكن ان يدل على ان مساعي صاحب الاردن ونشاطه لما كان صادراً عن مطامحه وآماله القومية والشخصية فحسب ، وان السياسة الانكليزية الرسمية لم تكن جادة في تشجيع ذلك النشاط والمساعي ووصولها الى نتيجة ايجابية ، وان ما كان يبدو من نشاط عمال الانكليز ومهاسنهم قد كان لما أرب اخرى . ولو كان العكس صحيحاً لما عدم الانكليز وسيلة الى التشجيع على تجاوب قوي وانتاجه إذا لم يروا أن يتظاهروا فيه تفادياً من إثارة الافرنسيين ؛ ولا سيما ان الظروف كانت مواتية بما كان لهم من حول وطول وبما في سوريا من اتجاه نحوهم وكره مرير نحو الافرنسيين، فضلا عن انه لم يكن لديغول الذي كانت حر كته ضعيفة وقائمة على الانكليز في كل شيء ان يفعل شيئاً ، وهو مضطر على كل حال الى السير في ركبهم بسبيل ما هو اعظم خطراً وهو تحرير فرنسا نفسها التي كانت منهارة وتحت رحمة الاقدار المجهولة . ولقد كان في ما اقدم عليه الافرنسيون في سياق قيام العهد الجديد في سوريا وتقريرهم في النهاية الوقوف موقف العداء من الكتلة الوطنية ، وتعيينهم عدوها الشيخ تاج رئيساً للجمهورية وقيام حكومة متسقة قليلا او كثيراً معهم في ذلك الموقف على ما سوف نذكره بعد حافظ لرجال الكتلة الى التجاوب لو شجعوا عليه من قبل الانكليز بشكل من الأشكال او لو لحظوا انهم مؤد الى نتيجة ايجابية . ولقد حاول بعضهم ان يوثق صلاته برجال الانكليز وان يستعديهم على تصرف الافرنسيين والسلطات الحكومية التي اقاموها ، وان ينشط في سبيل تحريك الدفة نحوهم ؛ فسارع الافرنسيون الى نشر بيان انذاري لهؤلاء وامروا بعضهم بالاقامة الاجبارية في امكنة عينوها لهم ، وبدأوا بحركة مطاردة واعتقال ضد من اشتبهوا في بمالاته وضلعه في ذلك النشاط ، بما اضطر من استطاع الافلات من رجال الكتلة وغيرهم من الوطنيين الى مغادرة البلاد او الاختفاء والانزواء فلم يتحرك الانكليز ورجالهم لتصرتهم وحمايتهم فضلا عن تشجيعهم في السير في سبيل الاهداف التي كان ينشط لها صاحب الاردن . وعلى هذا فلسنا نرى محلاً للقول انه لو تضامن رجال الشام في هذه الآونة مع صاحب الاردن لكان في الامكان تحقيق هدف قومي عظيم ينشده المشار اليه كما ينشده رجال

الحركة العربية، وهو تحرير سوريا ولبنان من فرنسا وتوحيدهما مع الجزئين الجنوبيين الاردن وفلسطين؛ لان هذا ما كان ليم في حال بدون رضاء الانكليز وتشجيعهم. ونعتقد ان رجال الشام لم يكونوا في موقف يجعلهم لا يرحبون بهذا التشجيع ولا يسيرون في نطاقه لو كان مها تكن هناك من اعتبارات اخرى. ولم يخرج الانكليز ازاء حركة الوحدة والمشاورات بسبيلها عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ عن ذلك النطاق بالرغم عن تظاهرم بالعطف والتشجيع على ماسوف نذكره بعد؛ بمايدل على انهم يسيرون وراء سياسة مرسومة مركزة وهي عدم تشجيع العرب على قيام كيان قوي متحد لهم وتفضيل بقائهم منفردين مع دخولهم في دائرتهم ...

- ٨ -

الجمهورية الثانية برئاسة الشيخ تاج واهدائها

ولقد كان هناك خلاف على كيفية بدء الخطوة الى وضع جديد في سوريا؛ فالوطنيون او بتعبير اصح رجال الكتلة الوطنية التي ظلت تمثل الحركة الوطنية كانوا يرون ان الوضع الدستوري الاول هو الذي يجب ان يعتبر قائماً فيجتمع المجلس النيابي ويقر أو يرفض استقالة هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية، فاذا رفضها عاد هذا الى مركزه والف وزارة وجرت الامور في المجرى الدستوري، وإذا قبلها انتخب خلفاً له وجرت الامور كذلك على هذا النمط، وان امر التعاقد يجب ان يتربث فيه؛ في حين ان الافرنسيين كانوا يرون ان يقوم العهد الجديد بأمر او خطوة تصدر عنهم، وان تتجدد المعاهدة، وان يكون لهم التوجيهات الضرورية وخاصة في ظروف الحرب ومقتضياتها. وبعد اخذ ورد وتقارب وتباعد انقطع الاتصال بينهم وبين اولئك؛ فالافرنسيون اصرروا على وجهة نظرهم دون ان يعبأوا بتناقضها مع اعلانهم ودعايتهم؛ والانكليز رأوا على ما بدا ان لا يتدخلوا في الامر لئلا ينقضوا عهدهم مع الافرنسيين وتفتت حماسهم في تغذية المقاومة السرية بما كان يشغل بال الانكليز في الدرجة الاولى؛ فانصل الافرنسيون حينئذ بالشيخ تاج الدين الحسيني الذي كان ذهب الى فرنسا عقب اقالة حكومته عام ١٩٣٥ ولم يعد إلا قبل الحركة

الجديدة ببضعة أشهر واتفقوا معه على وجهة نظرهم بعد ان قام كاترو بحركة استفتاء
 بهلوانية ، وادعى ان الناس اجمعوا على ان الشيخ خير من يقوم بالمهمة ! وارسل
 بصفته مندوباً سامياً لفرنسا الحرة اليه كتاباً يكلفه فيه بالقيام بمهمة رئيس الجمهورية
 وصلاحياته ، ويقول فيه فيما يقول ان اتصالاته بالناس واستكشافه الرأي العام
 السوري جعلاه يرى انه هو الشخصية التي تستطيع الاضطلاع بأعباء تنظيم هذا الدور
 الجديد على اساس معاهدة تعقد بين فرنسا وسوريا ! هذا في حين انه يعرف ان
 الشيخ كان مبغوضاً وان شعار اضراب عام ١٩٣٥ وثورته كان الهتاف ضد عهده ،
 وانه اخفق في محاولاته في حمل الناس على التعاون معه والتعاهد مع فرنسا في ذلك
 العهد ، وانه لم يستطع البقاء في البلاد على اثر اقالته . . وهكذا ظهر ان الافرسيين
 ظلوا على تجاهلهم بما تعنيه سوريا من حركتها الوطنية ومطالبها الاستقلالية ، ورجعوا
 الى تمويهاتهم وحلولهم الزائفة وتجاربهم الخائبة ومناوئتهم للحركة العربية ولم يتورعوا
 بسبيل ذلك عن الكذب العلني على البلاد وعن مناقضتهم لصفاتهم وعدم اعتبارهم بما
 حلّ فيهم ، كما ظهر انهم قد قرروا الوقوف من الكتلة الوطنية موقف العداء الذي
 ظلت تقفه فرنسا منها على اعتبار انها رمز للحركة العربية والروح الوطنية والنضالية .

وقد الف الشيخ وزارته الاولى برئاسة حسن الحكيم ومن اناس عرف بعضهم
 بعدائه للكتلة وبعضهم بولائه الوثيق لفرنسا ومشروعاتها ، وبعضهم بذبذبه او
 طمعه في المنصب على اي حال . فكان في هذه التشكيلة ما فيه الدليل الكافي على
 موقفهم ومقصدهم .

وبعد قليل اقيمت حفلة كبرى باسم حفلة الاستقلال خطب فيها كاترو والشيخ ،
 فقال الاول ان فرنسا الحرة قد حققت ما وعدت به من منح سوريا استقلالها وانه
 سيباشر قريباً امر عقد المعاهدة التي تنظم الصلات بينها ، وان هذا الاستقلال مقيد
 بما للحرب من ضرورات مبرمة وان سوريا مدعوة لتهيئة قوى وطنية توضع تحت
 قيادة الحلفاء للدفاع عن القضية المشتركة ، وانه مع الاعتراف بوحدة سوريا السياسية
 والجغرافية يجب ان تراعي رغبات بعض المناطق في تمتعها باستقلالها المحلي والاداري
 (يعني جبل الدروز ومنطقة اللاذقية) ، وشكر الشيخ في خطابه ما كان من عطف
 فرنسا الحرة ووفائها ومساعدتها على اقامة كيان سوريا المستقلة وقال ان سوريا لن

تنسى هذا الجليل ، وانها مستعدة للتعاون مع الحلفاء في كل شيء مساهمة في تأمين النصر لهم ، فوطدت هذه الحفلة والخطابان الاذان القيا فيها الصفة التي ارادها الافرنسيون للعهد الجديد ، وكشفت في الوقت نفسه عن تمسك هؤلاء بالسياسة التي انتهجوها قبل الحرب دون تبديل وتغيير .

ومما جرى أن كاترو اصدر بعد قليل قراراً بارتباط جبل الدروز ومنطقة اللاذقية بسورية كدولة على ان يحتفظا باستقلالهما الاداري ومجلسيهما التمثيليين وميزانيتهما الخاصة تنفيذاً لما جاء في خطابه . وأقام الشيخ تاج حفلة مناسبة هذا القرار اشاد فيها بنعمة فرنسا وتحقيقها مطلب الشعب بالوحدة بعد الاستقلال ...

- ٩ -

جو الحرب ثانية في سوريا

ولم يلبث جو الحرب ان عاد ثانية ، وان اصبحت سوريا قاعدة من قواعد الحرب وطريقاً من طرق مواصلاتها ومركزاً من مراكز تموينها في الشرق العربي . وقد سير في الاستنفاع بكل ذلك اشواطاً كبيرة ، فقامت حركة تجنيد وتطويع كان منها فصائل عديدة منها ما رابط في سوريا لاعمال الأمن والحراسة والمواصلات ومنها ما ارسل الى بعض جبهات الحرب ، ووضعت السلطات يدها على مختلف مرافق البلاد وغلاتها ، وتولت امر تنظيم الاعاشة المدنية بالاضافة الى العسكرية ، وعبدت كثيراً من الطرق ، وأنشأت كثيراً من الثكنات والمعسكرات والمطارات والمؤسسات العسكرية المختلفة ، وصارت سوريا بالجملة تعج بالحركة الحربية . وساعد على هذا هجوم الالمان على الروس وانتعاش امل الحلفاء في كسب الحرب ودحر الالمان من حدود مصر من جهة وضرورة الاستعداد للدفاع عن الشرق العربي تجاه احتمال تطويق المائي عن طريق القفقاس من جهة اخرى .

وقد اهتم الانكليز لتنقية سوريا من ما يسمى اعداء او غير موالين ، ولا سيما إن حركة العراق كشفت لهم عن عواطف كامنة ضدهم في بلاد العرب ناتجة عما كان منهم نخوم من الأعيب وأساليب وكوارث وغدر ، وتضامن الافرنسيون

معه في هذا الاهتمام لتنقية البلاد من اعدائهم الذين اعتادوا إزعاجهم في تاريخ النضال السوري ، وكانت ضرورات الحرب وظروفها مبررات قوية . فابتليت سوريا من جراء ذلك بمحنة شديدة ولعبت الجاسوسية التي كانت مصبوغة على الاغلب بالصبغة الفرنسية او التربية الفرنسية دوراً غير يسير في هذا الميدان ، فأخذت مراكز الاعتقال تمتلئ برجال الوطن وشبابه ، واضطر كثير منهم للتواري او التشرد ، وقد تناولت المحنة كثيراً من زعماء الكتلة وشبابها وانصارها بما يبرر القول إن عداة رجال العهد الجديد للكتلة قد لعب دوره في هذا الميدان ، ولا سيما ان عهد الشيخ تاج قوبل بمقابلة عدائية من الشعب ودوائر الكتلة الوطنية ونشرت مناشير شديدة في انتقاد هذا العهد وتجرحه ، واستغل الافرنسيون ظروف الحرب التي جعلت الانكليز يسايرونهم فعادوا إلى عسفهم وإرهاقهم بسبيل الاتراء ومثلوا الدور البشع الذي مثله في فترة الحرب الاولى بما فصلناه في مناسبة السابقة .

ولقد استمر هذا العهد سنة ونصفاً ، وبما جرى ان الشيخ تاج الذي كان يعرف ان منصبه غير شرعي ومحل للتجريح لانه مستمد من السلطة الفرنسية حاول ان يسهل عليه صفة شرعية بشكل ما ، فبذل جهوده مع اعضاء المجلس النيابي المعطل وساعده في جهوده الافرنسيون الذين لم ينجحوا إلى اجراء انتخابات ولم يسمحوا باستئناف المجلس المعطل لحياته انسياقاً بذهنيته المعتادة ، ولا سيما انهم يعرفون كما يعرف الشيخ انه لا يمكن أن ينال الثقة من طريقها العادي ، فحصل على مضبطة موقعة من نحو خمسين نائباً قرروا فيها ثقتهم به واعتباره رئيساً شرعياً ! ولقد تغيرت في هذا العهد ثلاث وزارات بسبب ما كان من تصرفات ومداخلات افرنسية معتادة وخاصة بسبب ادارة الاعاشة ومصاعبها . وكانت الوزارات التاليتان الأولى في نفس الصفة التي وصفناها قبل .

موت الشيخ تاج والجهالة النيابية ثالثة

وقد خلف حسني البرازي حسن الحكيم وخلف جميل الايلشي حسني البرازي . وفي عهد وزارة الايلشي مات الشيخ تاج وظلت الدولة مدة ما بدون رأس . وقد كانت تجري خلال مدة العهد المساعي والاتصالات بالانكليز في سبيل تعديل الحال

واسترضاء نفسية الشعب والتفيس عنه عن طريق إقامه وضع شرعي صحيح ليتطابق الحال على ما يعلنونه من اهدافهم الديموقراطية وخطتهم من تمتع سوريا بالاستقلال والحكم الوطني حتى استجابوا اخيراً الى هذه المساعي ، واضطر الافرنسيون الذين كان وضعهم مع الانكليز وضع التابع المحتاج ، فأمر ديفول مندوبه كاترو بتهيئة المجال لاعادة الحياة النيابية ، فنجحت الحكومة الايلشية وقام مقامها حكومة انتقال حيادية برئاسة عطا الايوبي .

زعامة شكري القوتلي

وكان جو الضغط والارهاق قد خف فاستعاد زعماء الكتلة حريتهم ، وجرت الانتخابات في شهر تموز عام ١٩٤٣ بحرية تامة وانتصرت الوطنية انتصاراً باهراً بزعامة شكري القوتلي الذي انعقدت له هذه الزعامة واتجه اليه الرأي العام اتجاهاً شديداً كان به رجل الساعة وصاحب الكلمة الحاسمة ، وانتخب في ١٧ آب عام ١٩٤٣ بالاجماع من قبل المجلس النيابي الجديد رئيساً للجمهورية ، وتألفت الوزارة برئاسة زميله سعد الله الجابري وعضوية اعضاء من رجال الكتلة وغيرها وان كان الاعضاء الكتلويون هم الكثرة فيها ، حيث اراد شكري القوتلي ان يدشن العهد الجديد بوزارة تمثل الكتلة وغيرها ، وكان يبشر في الاجتماعات العامة التي كان يحضرها والرحلات التي كان يقوم بها اثناء الانتخابات باللاحزبية وبالائحاد الوطني الذي يجب ان تواجه سوريا به ما يكتنفها وما يستقبلها من ظروف ، ويقطع العهد على نفسه بالتزام ذلك ، وعلى هذا الاساس ترشح ونجح عدد غير قليل من غير المنتسبين الى الكتلة في دمشق وغير دمشق بتوجيه شكري وايعازه .

ولعل ما كان من امر العهد الوطني في سنى ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ورجاله هم رجال الكتلة وقد منوا فيه بهزة عنيفة اثرت في بنیان كتلتهم واوجدت التخاذل والشقاق بينهم مما ظل أثره مستمراً كان عاملاً في هذه الحطة ، هذا مع التنبيه على ان الكتلة كهياة رسمية لم تكن قائمة في ظروف الانتخابات بل يصح ان يقال إنها كانت منحلة بدون قرار وإعلان منذ مدة طويلة قبلها .

الفصل الرابع

العهد الوطني الثاني ١٩٤٣ - ١٩٤٦ (١)

- ١ -

نشاط العهد الوطني الثاني

ولقد نشط العهد الوطني الثاني منذ قيامه الى بث الطمأنينة في النفوس بالرغم من اشتداد الحرب واستمرار ضرورتها ، فأمكن اقناع السلطات العسكرية بتخفيف وطأة هذه الضرورات ، واطلاق سراح المعتقلين ولو تدريجياً والكف عن مطاردة المتوارين والمشردين . فأخذ جو سوريا يتبدل والطمأنينة تنبت والحيوية تعود والنشاط يزداد حتى كادت الشام تعود الى سيرتها الاولى بالرغم من كابوس الحرب وسلطاته وضروراته البارزة الاثر فيها .

ولقد اخذت الدول تسارع الى الاعتراف بسوريا المستقلة فكان هذا بما ساعد على تقوية العهد وتوطيده .
وقد ساعد على تقوية العهد وتوطيده كذلك احداث هامة جرت برغم فرنسا .

مشاورات الوحدة العربية واثرها في توطيد العهد

منها مشاورات الوحدة العربية التي بدأت في مصر في اواخر صيف عام ١٩٤٣ اي في ظروف قيام هذا العهد والتي انتهت بنشوء الجامعة العربية ؛ حيث لم تلبث حكومة هذا العهد ان اندججت فيها .

وقد كانت هذه المشاورات نتيجة لمقدمة بدأت من سنة ١٩٤٠ بما كان من

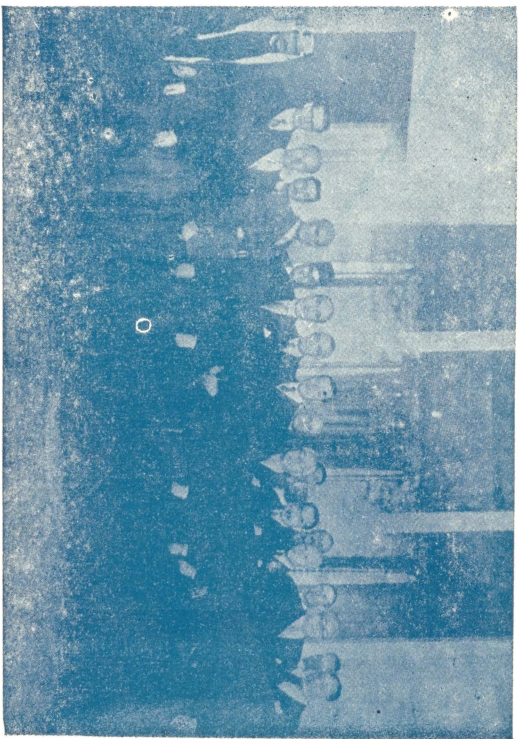
(١) ينتهي الكلام عن هذا العهد بالجلء لاننا نعتقد ان الكلام بعد ذلك يدخل في نطاق ما يصح ان يسمى عهداً جديداً ولا يدخل في نطاق موضوع هذا الجزء من الكتاب .

شعور الاوساط العربية القومية بضرورة الاستفادة من ظروف الحرب وتحقيق الهدف الذي استهدفته الحركة العربية وقامت الثورة الهاشمية على اساسه وهو ايجاد كيان عربي سياسي موحد، وبما كان من نشاط صاحب الاردن في صدد هذا وخاصة في صدد توحيد سوريا بعد انهيار فرنسا واستمراره في الاتصالات ورفع المذكرات والحلول؛ وبما كان كذلك من نشاطنوري السعيد في صدد اتحاد عربي يضم بلاد الشام الموحدة والعراق في الخطوة الاولى، وبما كان من تصريحات انكليزية رسمية بتشجيع حركة وحدة ثقافية واقتصادية وسياسية بين العرب بما كان من بواعثه ذلك الشعور والعطف من جهة وامل الانكليز في قيام كيان عربي متحالف معهم تم به خطة المعاهدات الحليفة القائمة بينهم وبين مصر والعراق والاردن والمملكة السعودية ويضم في نطاقه بلباقة سوريا ولبنان اللذين كانا خارجين عن دائرة هذه الخطة دون ان يثيروا حتى حلفائهم الافرنسيين (١) .

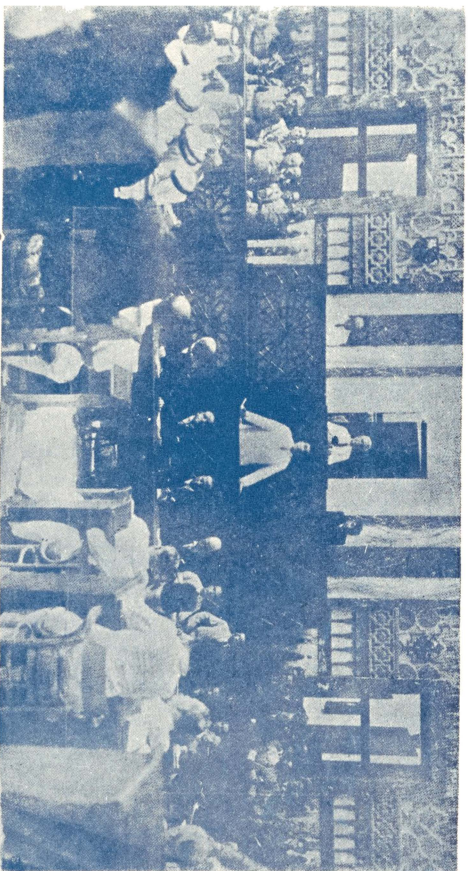
ولقد كان لهذا الاندماج فائدة عاجلة لسوريا لأن بغى فرنسا في مايس عام ١٩٤٥ على ما سوف نذكره بعد قد وقع بعده فتضامنت دول الجامعة مع سوريا تضامناً رائعاً كان له اثر عظيم في الاوساط السياسية العالمية كان من نتائجه جلاء فرنسا عن سوريا بعد قليل .

وبما لا ريب فيه ان الافرنسيين قد حنقوا اشد الحنق من هذا الاندماج وتمنوا لو استطاعوا ان يحولوا دونه كما فعلوا في ظروف مؤتمرات لندن العربية الرسمية

(١) ان اول تصريح انكليزي علني في هذا الباب كان في ٢٩ مايس ١٩٤٢ وقد صدر عن ايدن وزير الخارجية في اجتماع عام في لندن . وقد جاء فيه : « ان العالم العربي قد خطا خطوات واسعة منذ التسوية التي تمت في نهاية العام الماضي ، - بقصد قيام جمهوريتي سوريا ولبنان وتبادل العهد بين فرنسا الديغولية وبريطانيا على استقلالهما على ما ذكرناه سابقاً - فرغب كثيرون من مفكري العرب في أن يكون للشعب العربية نصيب من الوحدة أعظم مما تتمتع به الآن . وهم في سعيهم بلوغ هذه الوحدة يرجون عون بريطانيا وتأبيدها . فتل هذا النداء من اصدقائنا لا يمكن الا ان يلي . وانه يلوح ان من الطبيعي ومن الحق ان تعزز الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية بل والروابط السياسية ايضاً . فحكومة صاحب الجلالة من جانبها ستؤيد كل التأيد كل مشروع تتم الموافقة الاجماعية عليه . » ثم ادلى ايدن نفسه بتصريح ثان في ٢٤ شباط ١٩٤٣ امام مجلس النواب جاء فيه : ان الحكومة البريطانية كما اوضحت قبل تنظر بعين المطف الى كل حركة بين العرب لتعزز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم . وان من الجلي ان الخطوة الاولى لتحقيق اي مشروع يجب ان تأتي من العرب انفسهم .



شكري القزافي يستقبل وزراء الدول الأجنبية ومعه سعاد الله الجابري وجبل مردم



الجلسة الانتخابية التي انتخب فيها شكري القوطي

والبرلمانية بسبيل قضية فلسطين عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ على ما ذكرناه في مناسبة سابقة حيث كانوا يحرصون على ابقاء سوريا منعزلة عن الحركة العربية العامة ، لاسيما ان حركة المشاورات اشد خطورة من حركة تلك المؤتمرات كما هو واضح ، فضلا عن ما كان من ضلع بريطانيا في هذه الحركة بما كان يزيد في حقهم لما كانوا يتوجسونه من مقابل الانكليز لهم في هذه البلاد . ولكنهم كانوا عاجزين عن ذلك لان حركة ديفول كانت ما تزال ضعيفة وعالة في كل شيء على بريطانيا ، ولم تكن تمثل حتى حكومة في المنفى كما كان شأن حكومات بلجيكا وهولانده ويوغوسلافيا واليونان التي اكتسح الالمان بلادها ، وكل شأنها انها كانت لجنة باسم لجنة التحرير .

٢ -

تعليقات على نتائج مشاورات الوحدة وموقف سوريا

ونقول استطراداً ان صاحب الاردن قد حرص في ما استمر فيه من نشاط على التنبيه على ضرورة وحدة سوريا الطبيعية او اتحادها قبل كل شيء ، وعلى بيان الاعتبار السياسية والاقتصادية والجغرافية الوجيهة التي تحتم هذه الضرورة والتذكير بها في ما كان يصدر منه من رسائل ومذكرات ويقوم به من اتصالات ويتقدم به من حلول على ان يكون هو ملك سوريا الكبرى إذا كانت وحدة ورئيسها إذا كانت متحدة (١) ، وان ممثليه في مشاورات الوحدة العربية المذكورة آنفاً قد حرصوا على التنبيه كذلك على هذه الضرورة ، وان نوري السعيد ممثل العراق أراد ان تكون نتيجة هذه المشاورات اتحاداً فدرالياً بين الدول العربية وقدم بعض المشاريع التفصيلية في هذا الباب ، وان ممثلي سوريا اظهروا استعدادهم للموافقة على اي مشروع فيه وحدة او اتحاد عربي . منوهين ان ذلك من اهداف الفكرة والحركة العربية التي نشأت وترعرعت في بلادهم ومعلمين استعدادهم للتضحية بكل اعتبار في سبيل ذلك . على ان مصر ولبنان وابن السعود فضلوا ان تقوم

(١) كانت النقطة الشخصية نقطة الضعف في نشاط اهل عمان . وقد قطن لها فيها بمد فأخذ يقول ان نظام الحكم يترك لاستفتاء البلاد وان رآة الاتحاد تكون بالناوبة .

الرابعة على اساس احتفاظ كل دولة بكيانها واستقلالها وسيادتها ونظامها ، فتغلب هذا الرأي في النهاية وقامت الجامعة العربية على ميثاقها الراهن .

والسؤال المحير هو ما الذي جعل العراق والاردن وسوريا ينزلون على هذا الرأي ويرضون بهذه النتيجة التي جاءت اقل جدوى ومدى مما كانوا يرونه متسقاً مع اهدافهم القومية ومصالحهم الاقتصادية وغير الاقتصادية وهو النظام الاتحادي ، وما الذي حال بينهم وبين المضي في تحقيق هذا النظام فيما بينهم على الاقل ؟ ولا سيما ان صاحب عمان لم ينفذ يده من مشاريعه وظل ينشط بسبيلها بعد قيام الجامعة حتى جاء وقت كان يخرج فيه هذا النشاط من دائرة الدعوة الى ما كان يثير الأزمات الحادة والتوتر الشديد بين سوريا ولبنان من جهة والاردن من جهة وفي دوائر الجامعة من جهة كما وقع في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ ، وان نوري السعيد لم يرض عن ما أسفرت عنه المشاورات من نتائج فتتكر للجامعة ولم ين عن الدعوة الى مشروعه (١) بعد قيامها ، وان سوريا لم تكن مطمئنة البال إذ ذاك بسبب عودة الافرنسيين بحماية جديدة واخذهم باظهار مطامعهم وروحهم الاستعمارية والتحكيمية ، واعلان الانكليز اعترافهم بحقهم ورجحانهم فيها ، ولم يكن يرد حينذاك ما يرد اليوم من الخوف على استقلالها وسيادتها وجمهوريتها وانجرارها الى نطاق المعاهدات الانكليزية العرافية والاردنية والتزاماتها .

إن من الممكن ان تكون سوريا والعراق والاردن قد رأوا أن الجامعة التي تضم جميع الدول العربية وعلى رأسها مصر قد يكون لها من الاثر في مجال الحركة العربية ما يسد الفراغ وقد تتطور الى ما فيه القوة والغناء ولا سيما ان ميثاقها قد احتوى ابواباً وآفاقاً مفتوحة الى ذلك ، وان اتحاد الهلال الحبيب قد يكون سبباً للتباعد والتناكر بين دولة ودول العرب الجنوبية ولاستمساك نصاري لبنان بفرنسا اكثر من ذي قبل اندفاعاً وراء ما اثير في نفوسهم خلال المدة الطويلة من خوف من البعبع العربي والاسلامي مما يكون فيه ضرر كبير على الحركة العربية

(١) هذا المشروع هو الذي عرف بالكتاب الازرق . وقد قدم بشكل مذكرة من نوري السعيد الى المستر كايبي وزير بريطانيا في الشرق العربي عام ١٩٤٣ ويقوم على اساس توحيد اجزاء سوريا او اتحادها ثم قيام كيان عربي اتحادي نواته العراق وسوريا المتحدة او الموحدة . ويكون لليهود استقلال ذاتي في مناطق اكتظاظهم في فلسطين ويكون لهوارنة في لبنان الصغير مثل ذلك اذا رغبوا .

وشمولها ، وان تكون سوريا خاصة قد فضلت ذلك على الاندماج منفردة في
تشكيلة تبدو المطامح الشخصية والسلطان الفردي فيها قوية بارزة، فلم يسع العراق
والاردن إلا الدخول في ما دخل فيه الناس على مضض انتظاراً لفرص مواتية
اخرى .

غير ان هذا ليس في نظرنا كل التعليل والاسباب ، ونرجح ان للانكليز اثراً
في ما وصلت اليه المشاورات من نتائج وفي قيام الجامعة على الوجه الذي قامت
عليه ، حيث رأوا ذلك اكثر اتساقاً مع سياستهم القوية والبعيدة التي منها ان
لا يكون العرب ذوي كيان قوي متحد بالرغم مما كانوا يذيعونه من ان الوحدة هي
من شأن العرب وانهم يعطفون على كل حركة ويؤيدون كل مشروع من هذا
القبيل . ولقد اشار وزير خارجيتهم في تلك الظروف في تصريح من تصريحاته
إلى ما يكتنف موضوع الوحدة من مصاعب عربية ناشئة عن اتجاهات الامر
المالكة واثرها . ومع ما في ذلك من حقيقة الية فإننا نحسب ان هذه الاشارة
العلمية تنطوي على عدم التشجيع على خطوة اوسع مما كان وعلى تبرير ذلك . وفي
عبارات الوزير التي نقلناها سابقاً في تصريحاته شيء من هذا الباب حيث علق
تشجيع حكومته على شرط الاجماع ، ولا بد من انه يعرف ان هذا الاجماع لا
يكون ، بل ولا تستبعد ان تكون المعارضة نتيجة لايعاز إنكليزي بأسلوب ما إلى
جهة ما . واذا كان الانكليز تظاهروا في القول إن الامر يعني العرب وحدهم فإننا
لا نعتقد انهم تركوه يجري على سجيته ويصل الى نتيجة لا يرتضونها ، ولو كان لهم
رأي غير الذي تم لما عدموا الوسيلة الى الإيحاء بالاساليب اللبقة التي مهروا فيها ،
ولا سيما ان وجه الحرب في ذلك الظرف قد اخذ يبسم لهم بعد العبوس وإنهم كانوا
اصحاب الشأن الاول في الحرب والسياسة وفي حكومات البلاد العربية التي اشتركت
في المشاورات معاً ، وتصريح بلقيه وزير خارجيتهم يذكر فيه ان مصلحة العرب
ان يقوم بينهم نظام اتحادي في هذه الظروف او كلمة مثل هذه ينقلها وزيرهم كاف
لذلك . وحركة المشاورات نفسها قد كانت تجاوباً مباشراً تقريباً لتصريح هذا
الوزير عام ١٩٤٣ الذي ظل العرب بنوهون به في مختلف مناسبات المشاورات
ونائجها ويستمدون حركتهم منه ! وحتى لو فرضنا ان مصر وصاحب الرياض

ولبنان استطاعوا ان يقولوا على عدم السير وفق توجيه الانكليز في امر لا يريدونه لاعتباراتهم الخاصة المعروفة فإن هذا الغرض لا يرد بالنسبة للعراق والاردن أولاً وسوريا ثانياً على ما ذكرناه قبل قليل ، وكان من الممكن ان يقوم هذا النظام فيما بين هذه الاقاليم على الاقل لو اراده الانكليز . ولقد قال وزير الدولة البريطاني في مجلس العموم في تاريخ ٢٠ تشرين الاول ١٩٤٤ وبعد توقيع ميثاق الجامعة جواباً على سؤال : « اني استخلص ان المؤتمرين قد توصلوا الى اتفاقات تدعو الى الغبطة والرضى » ، وفي هذا ما فيه من معنى التطابق على ما نحسب . هذا الى ما يحتمل ان يكون للفرنسيين واليهود بل الاتراك دور ما في هذا الباب . فقد كان اليهود في هم وقلق دائمين في ظروف المشاورات وخاصة من تصريحات الانكليز بتشجيع الوحدة العربية ، وكانت صحفهم تحمل الحملات المستمرة ورجالهم دائبون على الحركة والنشاط . وما كان الا فرنسيون ليغضوا عن تكتل عربي اتحادي تندمج فيه لبنان وسوريا في ذلك الوقت الذي اخذوا يشعرون فيه بالحوية تعود اليهم وتعود معها اطماعهم وصلفهم وحسابهم أنفسهم أصحاب الشأن الأول فيها ، والذي كانوا يحرصون فيه في نفس الوقت عن مزالق السياسة الانكليزية ، بينما هم لا يغضون اليوم عن مثل ذلك بعد ان قوضوا خيامهم عنها املا في المستقبل واستمراداً في مزاعم مصالحهم التقليدية ، ففضلوا إذ ذاك ومسايرة للظروف العامة والخاصة ان يكون اساس هذا التكتل الاحتفاظ بكيان سوريا ولبنان ونظاميهما الراهنين اذا كان لا بد من اندماجها في تكتل عربي عام وبذلوا مساعيهم في هذا النطاق . ولم تكن السياسة التوكية الكيالية لترضى عن قيام كيان عربي قوي ومتحد فبذلواهم ايضاً مساعيهم . ونذكر ان رئيس الحكومة التركية ادلى بتصريح في ظروف تلك المشاورات قال فيه ان توكية متفاهمة مع انكلترا في صدد ومدى النشاط العربي الذي يبدو اليوم بما فيه الدلالة على ما نقول .

وقد يخطر بالبال ان رجال سوريا المسؤولين وخاصة رئيس جمهوريتها شكري القوتلي لو تجاوبوا مع عاهل الاردن او معه ومع العراق بعد ان خلصت سوريا من كابوس فرنسا واصبحت تتمتع بحريتها التامة لكان من المحتمل ان يقوم نظام اتحادي بين دول الهلال الحبيب ، او بين الدول السورية . وقد يكون هذا صحيحاً ،

ولكن الخوف من دخول سوريا في نطاق الالتزامات السياسية والعسكرية التي تقيد العراق والاردن مع بريطانيا بعد ان اصبحت حرة من كل قيد وعهد والالتزام أولاً ، ومن زوال النظام الجمهوري ، ثانياً صار عاملاً مهماً في عهد التجاوب .
ولقد كان يبدو خلال نشاط عاهل الاردن خاصة تصريحات وحركات كانت تصل احياناً الى اثاره البليدة والفتنة والهياج ، فكانت تحدث رد فعل نفسي شديداً في رجال سوريا وصارت عاملاً مهماً آخر في عدم التجاوب ايضاً ، بل ودفعت هؤلاء الى المقابلة بالمثل ، فكانت مشادات ومهازلات انتقلت الى المجالس الرسمية ، واشتد اندماج سوريا في ما سمي بالمحور المصري السعودي إزاء ما سمي بالمحور الهاشمي مما فيه مظهر من مظاهر اختلاف العرب في الاتجاهات والاعتبارات الشخصية ، وخيم التوتر والجفاء في سني ١٩٤٦ - ١٩٤٨ على ساحة الجامعة العربية وبين رؤساء ورجالات سوريا والاردن والعراق بنوع خاص :

على أننا نشك على كل حال في أن يكون الانكليز قدغيروا خططهم التي ذكرناها قبل وهي تفضيل بقاء العرب منفردين وعدم قيام كيان اتحادي قوي بينهم ، وأنهم قد غدوا حريصين على تحقيق المشاريع الاتحادية في أقطار الشام والعراق التي يدعي اليها ويسمى في سبيلها . وإذا كان ليح أو تلمح أحياناً أصابع انكليزية في ما كان من مساع ودعية فانها لا نحمل طابع جديد على تغيير الخطة المذكورة فيما نراه ؛ ولعلها من قبيل حرب الاعصاب لتضطر سوريا ولبنان الى عقد معاهدات مع الانكليز بدخولها في نطاقهم الذي تدور فيه الآن العراق ومصر وعلى النحو الذي يريدونه فتكمل بذلك حلقات السلسلة الانكليزية التي تطوي المشرق العربي والتي أخذت تمتد الى بعض انحاء المغرب العربي ايضاً مع بقاء الدول المرتبطة بها منفردة . ولعل من الدلائل على هذا ما كان يدار من الكلام على العزلة والانفراد وما في ذلك من خطر وضرر على سوريا ولبنان ، بل وعلى فائدة وضرورة التعاقد الاقتصادي والسياسي مع بريطانيا صراحة اثناء دوران الكلام

حول تلك المشاريع . ولعل من مقاصد حرب الاعصاب في ما كان يلوح من اصابع الانكيزر التشويش والبلبة بين العرب وفت الاعضاء فيهم ، ولا سيما ان الكلام حول سوريا الكبرى خاصة قد اشتد في وقت اشتدت فيه خطورة قضية فلسطين واشتدت فيه النقمة على بريطانيا لموقفها الغادر المتصل بسياستها اليهودية المركزية منذ البدء وفتحها باب الهجرة اليهودية والقضية اليهودية من جديد بعد ما اوصدته بيدها بالكتاب الابيض الذي قطعت على نفسها فيه العهد بالوقوف من تلك الهجرة والقضية في الحد الذي وصلت اليه وبانتهاء الانتداب على فلسطين وعلان استقلالها على اساس النسبة الراهنة من سكان . وقد المع الى هذا كثير من رجالات العرب الرسميين وغير الرسميين في مختلف المواقف خلال سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ . ولعل من الدلائل على عدم تغيير الانكليز خطتهم التي اشرنا اليها عدم قيام اتحاد بين العراق والاردن مع انه جرى حوله كثير من الكلام وجاء وقت قيل فيه انه تم او كاد ، وليس امامه أي مانع او اعتبار من تلك الموانع والاعتبارات .

ومن الاحداث المهمة التي ساعدت على تقوية العهد الوطني اندماج سوريا في ميثاق الاطلانطي وإعلانها الحرب على دول المحور حيث ادى هذا الى اشتراكها في تأسيس هيئة الامم وميثاقها في مؤتمر سان فرانسيسكو ثم اعتبارها عضواً مؤسساً في هيئة الامم المتحدة نتيجة لذلك .

وقد تم هذا الحادث نتيجة لرحلة قام بها رئيس الجمهورية في اوائل عام ١٩٤٥ الى المملكة العربية السعودية ومصر . وكانت هذه الرحلة في ظروف مؤتمر الأقطاب الاربعة ستالين وروزفلت وشرشل وشان كاي شاك في بوتسدام وتقريره ان الذين هم في حالة حرب مع المحور قبل نهاية مارس عام ١٩٤٥ هم الذين يدعون الى مؤتمر سان فرانسيسكو الذي يضع ميثاق هيئة الامم المتحدة وفي ظروف زيارة شرشل وروزفلت وشان كاي شاك لمصر ، حيث اجتمع رئيس الجمهورية بشرشل وابدى رغبته في انضمام سوريا للحلفاء في ميثاق الاطلانطي واعلان حالة الحرب مع المحور على اعتبار ان سوريا مشتركة في الحرب بكونها مركزاً من مراكز الحركات الحربية ومواصلاتها وقوميتها وبكون فصائلها مشتركة فعلاً في الجهود الحربية في سوريا وفي بعض الجبهات الحربية ولو كان بطريق التطوع . ومع ان شرشل ابدى شكه في دعوة سوريا الى مؤتمر سان فرانسيسكو فان رئيس الجمهورية حينما عاد القى خطاباً في المجلس النيابي عن رحلته وما جرى فيها وطلب اقرار اعلان الحرب والموافقة على اشتراك سوريا في ميثاق الاطلانطي فقرر المجلس ذلك واعلن الامر للحلفاء ثم بذلت المساعي في سبيل الاشتراك في المؤتمر وعرضتها انكليز فنجحت اخيراً وارسلت اليها الدعوة ، ولم يسع فرنسا إلا الموافقة على مضم . وارسلت سوريا مندوبها الى سان فرانسيسكو .

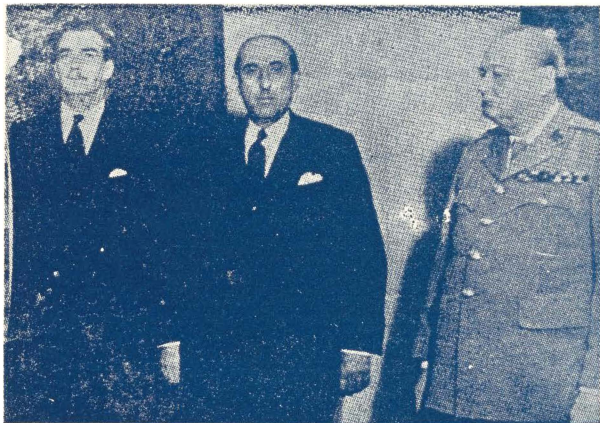
ولقد كان لهذا الاشتراك نتيجة عاجلة غير اعتبارها عضواً ذا سيادة وسقوط الانتداب عنها ؛ وهي استغلال هذا المؤتمر العالمي العظيم ضد فرنسا التي اقدمت في ظروف انعقاده على بغيتها اللئيم في مايس ١٩٤٥ فانثرت ضجة كبيرة فيه اندمغت بها فرنسا وخزيت وكان لها تأثير كبير في ما تم من جلالاتها نهائياً ، لأن المؤتمر كان

بسبيل وضع ميثاق السلم ومنع البغي والعدوان وحق الشعوب في السلامة والحرية
وتقرير المصير تحقيقاً للأهداف التي أعلنها الحلفاء وسجلها ميثاق الاطلانطي . .
وبما جرى بعد بضعة اشهر من قيام هذا العهد ان اجتمع المجلس النيابي وقرر
عدم شرعية وبطلان المادة (١١٦) في الدستور، وهي التي وضعها بونسو عام ١٩٣٠
وقيدها بممارسة سوريا لسيادتها وحقوق رئيس جمهوريتها وحكومتها على ما ذكرناه
في فصل سابق . ولم يكن رئيس الجمهورية والنواب اقساموا بالاخلاص للدستور
بسبب وجودها، وعقد المجلس جلسة خاصة في ٣٠ كانون الثاني من سنة ١٩٤٤ اقسام
فيها الرئيس والنواب للدستور بعد اعلان بطلان هذه المادة الانتدابية الحبيثة، وبلغ
ممثلو فرنسا هذه الصفة الشديدة التي ردت سوريا بها اعتبارها وكرامتها .

- ٣ -

ولقد اهتم رجال العهد منذ بدئه لاصلاح شؤون الدولة وتوسيع نطاق التعليم
والمنشآت العلمية والصحية والاقتصادية والزراعية والفنية ، فاستطاعوا بفضل الجور
الجديد السائد أن يخطوا في هذا المضمار خلال السنوات الثلاث الأولى خطوات
واسعة تمثلت في ما كان من مقررات موازنة المعارف وعدد طلابها ومدارسها وعدد
المصحات والمستشفيات وموازنة الاشغال العامة (١) ، وفي العدد العديد من
الأنظمة واللوائح والقوانين ، فضلاً عن ما هياه جو العهد من طمأنينة حملت رجال
المال على تأسيس الشركات الصناعية الكبيرة التي انشأت منشآت ومصانع تضاهي
أحدث وأكبر المنشآت الحديثة .

(١) كان المجموع الكلي للطلاب في اول سنة ١٩٤٣ (١٢٠) ألفاً فاصبح في سنة ١٩٤٦
(١٩٠) ألفاً وكان عدد المدارس (٦١٨) فاصبح (٨٥٧) وكان عدد طلاب الجامعة (٦٨٠)
فاصبح (١٨٠٠) وكانت موازنة المعارف سنة ملايين ليرة سورية فاصبحت اربعة عشر مليوناً .
واصبح في كل مركز قضاء مصح وفي كل مركز محافظة مستشفى بحيث تضاعف العدد عما كان سابقاً .
وكانت موازنة وزارة الاشغال العامة في اول سنة ١٩٤٣ نحو ثلاثة ملايين ونصف ليرة سورية
فاصبحت في سنة ١٩٤٦ عشرين مليوناً عدا ما خصص لمشروع الهاتف الالي العظيم من موازنة خاصة
بلغت نحو ستة وعشرين مليوناً . ولقد خصص وانفق لشؤون الاعمار والاشغال العامة في اثنين وعشرين
سنة من عهد الانتداب واحد وثلاثون مليون ليرة فأرسي ما خصص في السنوات الثلاث لهذه الشؤون
على سبعة واربعين مليون عدا مخصصات مشروع الهاتف !!



فخامة شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية السابق مع المستر ونستون تشرشل زعيم
حزب المحافظين ويبدو الى جانبيها المستر ايدن



مهالي الاساذ فارس الحوري في مجلس الامن عندما كان رئيساً له

وكان من أهم ما اهتموا له تخلص كتاب الجيش الأهلى وقوى الشرطة والدرك من السيطرة والقيادة الفرنسية ، واستلام الدوائر والمصالح المعروفة بالمصالح المشتركة التي كانت تدار من قبل السلطات الانتدابية مباشرة بما كان من المظاهر الصارخة للتحكم والاستعمار وانتقاص استقلال البلد وكرامته وسيادته . وقد كانت حكومة في قلب حكومة لها الأثر الأقوى في حياة البلاد وإيرادات الدولة وكثيرة كثرة عجيبة على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، تدل على ما كانت للفرنسيين من يد متغلغلة في كيان الدولة تغلغلاً واسعاً كان هو الذي أثار هلع الفرنسيين من توطد العهد الوطني الأول وعنادهم وسوء نياتهم من الناحية الشخصية أيضاً حيث كانت مرتعاً خصيباً لجيش كبير من موظفيهم ينعمون فيه بالرغد والثروة والجاه .

ولقد حاول الفرنسيون أن يجعلوا هذه المسألة وسيلة لتوطيد مركز ممتاز لهم في سوريا وأخذوا يجاذبون رجال العهد الوطني الجديد ويشادونهم حولها ، ويطالبون بعقد معاهدة توطد العلائق بينهم وبين سوريا يضمن لهم مركزهم الثقافي والاقتصادي والعسكري قبل النزول لهم عن هذه المصالح . ووقف رجال العهد إزاء ذلك موقفاً قوياً أساسه تفادي الارتباط بأي عهد يجعل لأي دولة مركزاً ممتازاً في بلادهم مع الاستعداد لاقامة الصلات بين سوريا والدول الأجنبية بما فيها فرنسا على أساس الممانعة وتبادل المنافع والمودة دون فرق ولا تمييز ، ووجوب تخلي فرنسا قبل كل شيء عن ما في يدها من المصالح لما في بقائها من المساس بالسيادة وتعطيل الأمور .

ولقد كان هذا الموقف مضافاً الى المواقف السابقة يثير ديفول وجماعته ويحملهم على إرسال التصريحات التي تعبر عن امتعاضهم من رجال العهد وتصلبهم او تعصبهم ، وتحمل روح التهديد والنيات المريبة نحو العهد ، واخذوا يتصلون بالحكومة البريطانية لتسوية الأمور معها ذهاباً منهم الى ان هذه الحكومة هي التي تدعم رجال العهد في موقفهم ؛ وعادت هذه الحكومة نتيجة لذلك فصرحت باعترافها بمصالح فرنسا في سوريا ولبنان واملها بقيام تفاهم حر بين الفريقين على هذه المصالح . غير ان رجال العهد ظلوا مصممين على موقفهم بوجوب تسليم دوائر المصالح

المشركة قبل كل شيء ودون ما قيد وشرط ، وتمكنوا بعد العناء والمشاقة والتضحيات المالية الجسيمة ، وبالتضامن الذي قام فيه عهد وطني والذي كان مشتركاً في هذه النكبة الانتدابية من حمل الافرنسيين على عقد إتفاق في تاريخ ٢٢ كانون الاول ١٩٤٣ بين ممثلي سوريا ولبنان من جهة والجنرال كاترو ممثل فرنسا من جهة على تسليم هذه المصالح تدريجياً وفي اوقات محددة خلال ستة أشهر ، وتنفيذه باستثناء ككتائب الجيوش المحلية . وقد اقيمت في سوريا ولبنان حفلات مشتركة لتوقيع اتفاقيات تسلم الصلاحيات فكان هذا إعلاناً بزلزلة اقدام فرنسا من البلدين

النقاد على تسليم الجيش الوطني وسكر فرنسا

اما الجيش فقد استبقاه الافرنسيون في ايديهم على ما بدا كرهينة على الحصول على المركز الثقافي والاقتصادي والاستراتيجي الممتاز الذي يطالبون بعقد المعاهدة الضامنة له ؛ وكان سبباً من اسباب المشاقات المضنية ثم الكارثة الدموية الباغية التي اوقعها الافرنسيون في البلاد حينما رأوا ان سوريا قد ثقلت من ايديهم وجن جنونهم . غير ان رجال العهد ظلوا ثابتين في تصميمهم على عدم الارتباط بأي معاهدة تمنح فرنسا او غيرها مركزاً ممتازاً ما ، وفي المطالبة بتسليم الجيش اسوة ببقية الدوائر والمصالح التي استلموها . وعادت الاتصالات بين فرنسا وبريطانيا وعادت التصريحات من جانب هذه بالاعتراف بمصالح تلك ، وعادت تهديدات ديغول وتصريحاته تحمل النيات المريبة والمقاصد العدوانية بما كان يجعل الموقف متوتراً والجو متلبداً .

وبما كان وفيه الدلالة على نيات فرنسا المريبة انما ظلت تعتبر ممثلاً مندوباً ولم تلقه بلقب -فير او وزير مفوض- ، وظل هو يعتبر نفسه كذلك رغماً عما كان يشهده هذا من المشادة والامتعاض والمواقف الحرجة . ولقد حاول ان يمارس سلطة المندوب السامي التشريعية في مناسبة ما فأصدر في حزيران عام ١٩٤٤ بعض القرارات ؛ ومع انها كانت تافهة وغير متصلة بشؤون سوريا ولبنان اتصالاتاً جوهرياً فقد رأى رجال العهد في البلدين ان يقفوا امام ذلك مهتماً كلفهم الامر فأصدرت

كلتا الحكومتين بياناً اشارت فيه الى هذه القرارات واعلنت انها لا تعترف لأحد بأي حق في إصدار قرارات تشريعية مهما كان موضوعها وانها تعتبر ما صدر من جانب المندوب الافرنسي من ذلك باطلاً ولاغياً وتعلن ان سلطة التشريع منحصرة بالدولة ومنظمتها الدستورية. وقد كظمت فرنسا على غير عاداتها غيظها من هذه الصفة، لأنها على ما بدا لم تكن في ظرف يمكنها من أن ترد عليها مهما كان في الرد حمق وسخف وطيش، فقابلتها بهدوء. وقد ظهر في ما بعد أن هودوها هو هدوء ما قبل العاصفة وانما كانت تسر في نفسها البطشة الكبرى حال ما يتم استعدادها لها .

- ٤ -

لمعة مايس ١٩٤٥ وفيها فرنسا

وقد كانت هذه البطشة الكبرى في مايس سنة ١٩٤٥ فكانت على سوريا كارثة مفعجة كلفتها كثيراً من الضحايا والخسائر ولكنها كانت في ذات الوقت انتفاضة المحتضر قبل لفظ نفسه الاخير بالنسبة لفرنسا في سوريا وفي لبنان معاً .

ولقد بدت مقدماتها العملية في اوائل السنة المذكورة حيث اخذ الافرنسيون يقوون انفسهم حربياً فيرسلون الامدادات المتواليه بينا ظلوا يماطلون في امر تسليم الجليش ؛ مما جعل الحكومة السورية ترتاب وتطلب تفسيراً لهذا الامر بالتضامن مع الحكومة اللبنانية . وقد اعتذر الافرنسيون بأنهم لا يقوون جيوشهم وانما يبدلون بعض كتابتها ؛ وكان عذراً زائفاً ، ولا سيما انه كان من المفروض ان تجلو هذه الجيوش عن البلاد في اول فرصة سانحة لان الحرب قد انتهت او كادت .

على انهم لم يلبثوا ان كشفوا عن نياتهم بعد ان اطمأنوا الى قوتهم وامكانهم ان يملوا مطالبهم املاءً ؛ حيث ارسل مندوبهم مذكرة للحكومتين السورية واللبنانية بتاريخ ١٨ مايس ١٩٤٥ دعا فيها الحكومتين الى المفاوضة في الاتفاقات التي تضمن لفرنسا مصالحها الجوهرية وعقدتها حتى يتم لها ممارسة شؤونها ممارسة استقلالية كاملة ؛ منها اتفاق ثقافي ، ومنها اتفاق قنصلي وتجاري ، ومنها اتفاق استراتيجي بحجة ضمان طرق مواصلات فرنسا وممتلكاتها في ما وراء البحار ؛ وختم مذكرته بقوله : « انه

عندما يتم التفاهم على هذه النقاط توافق الحكومة الافرنسية على نقل كذائب الجيوش الى الدولتين مع الاحتفاظ بأبقائها تحت القيادة الافرنسية مادامت الظروف لا تسمح بممارسة القيادة الوطنية بممارسة تامة .

وكان مفهوماً من المفاوضات والاحاديث الخاصة انهم يريدون ان يكون للغة الافرنسية والثقافة الافرنسية مركزاً متفوقاً في المدارس السورية فضلاً عن المركز المتفوق الذي يريدونه للمعاهد الافرنسية وان يكون لرعاياهم وتجارتهم واقتصادياتهم مثل هذا المركز ، وان يكون لهم مطارات وقواعد استراتيجية . ومن عجيب قحتهم وروحهم الحقاء انهم لم يكتفوا بهذا الثمن الفادح لتسليم مقاليد الجيش بل ارادوا أن تبقى قيادة هذا الجيش ايضاً في أيديهم ! وهذه النقطة لم تكن ترد في الأحاديث والمفاوضات الخاصة ولكنهم لم يروا بأساً في وضعها رسمياً في المذكرة زيادة للوزنة !

وقد رأت الحكومتان السورية واللبنانية الشطط والنية السيئة المبيتة فاجتمع رئيسا الجمهوريتين واركان حكومتيهما وقرروا رفض المذكرة وقطع المفاوضات والقاء جميع التبعات التي يمكن أن تنجم عن هذا الموقف على عاتق الحكومة الافرنسية كما قرروا توحيد الجهود والمساعي للدفاع عن سيادة البلدين واستقلالهما ، وأرسلوا لمندوب فرنسا مذكرة جوابية ضمنوها ذلك وطالبوا بانسحاب جميع القوات الاجنبية بما في ذلك القوات الافرنسية وجلائها عن اراضيها وتسليمها كذائب الجيش الوطنية في اقرب وقت وبدون قيد وشرط وقد أرسلوا مذكرة الى الدول الحليفة والصديقة سردوا فيها موقف فرنسا المتعنت وتبنيتها للعدوان بما ترسله من امدادات عسكرية لضرورة لها ومطالبتها بما يمس سيادتها واستقلالها اللذين اعترفت بهما ، وطالبوا بتدخلها واستعمال نفوذها لحملها على سحب جيوشها مع سائر القوات الاجنبية من البلاد .

ولقد كان الافرنسيون بدأوا منذ قدوم الامدادات بتصرفات استفزازية في مناطق ومناسبات عديدة من إطلاق النار وإقامة التحصينات وإزعاج الناس وسلبهم وتدمير فتن مسلحة يقوم بها انصارهم وأجورهم ، وكان كل ذلك يحدث رد فعل في الحكومة والشعب ويزيد من هياجهم ، فقابل الافرنسيون هذا بتحديات جديدة

في دمشق نفسها حتى انزلوا سرايا الجيش والفصائل السنغالية إلى الشوارع حيث أخذوا يتحرشون بالناس، وأخذت الحامية تزداد توتراً وحرراً، وأخذ الناس يدعون للجهاد ومجلس النواب يدرس قانوناً للتجنيد لتكوين جيش وطني يعتمد عليه، حتى إذا قارب شهر مايس نهايته كان التوتّر قد بلغ ذروته بين الطرفين، وانتقل البغي الافرنسي الى طور علني وجدي .

ولقد وقعت في يد الحكومة السورية وثيقة خطيرة تدل على ما كان الافرنسيون يضرّمونه من غيظ من العهد الوطني ورجاله وبييتونه له من نيات شريرة جنوبية، حيناً رأوا رجاله يقفون موقف الرفض البات من مطالبهم، والارض التي بذلوا الجهود الطويلة في سبيل توطيد اقدامهم الاستعمارية عليها تنسأخ من تحتهم . وقد ختمت الوثيقة بالعبارة التالية : اطلبوا من الافرنسيين ان يصبروا بضعة ايام وقد لا يتجاوز صبرهم بضعة ساعات ، وعند ذلك نشرع في المجزرة الكبرى. وليكن كل واحد مستعداً. وسنصفي الحساب كله في ضربة واحدة! وهناك وثيقة اخرى وزعت قبل هذه بأيام بصفة بيان سري من القيادة العامة في دمشق يعين فيها المواقع التي يجب أن ترابط بها القوات وتذكر ان واجب فرنسا وشرفها العسكري يقضي بآبادة جميع العناصر التي تريد إخراج فرنسا من سوريا ، وانه يجب احتلال جميع دوائر الحكومة السورية ومؤسساتها كما يجب منع سوريا من الاتصال بالدول العربية المجاورة؛ ويجب إدارة البلاد من قبل حاكم عسكري . وقد رسم البيان الخطة اللازمة لاحتلال دوائر الحكومة وقصر الرأسة ودور الوزراء والبرلمان السوري ودوائر الشرطة والدرك والبلدية ثم احتلال المدينة احتلالاً تاماً والقبض على خصوم فرنسا، وذكر في هذا البيان الخطير الذي وزع في دمشق ان تعليقات خاصة أرسلت الى باقي المدن السورية ليكون العمل مشتركاً والضربة شاملة في آن واحد . وهذا البيان مؤرخ في ٢٢ مايس ١٩٤٥ أي قبل المجزرة بأسبوع وبعده تقديم المطالب الافرنسي ورفضها بخمسة أيام ، وقد نقل في هذا الظرف نفسه نساء الفرنسيين وأطفالهم إلى المطار ، وكل هذا دليل ساطع على أنهم كانوا يسكرون في ما ينتوون عمله عن تديبر وبينة وتقام وان المجزرة قد رتب ترتيباً ولم تكن مرتجلة .

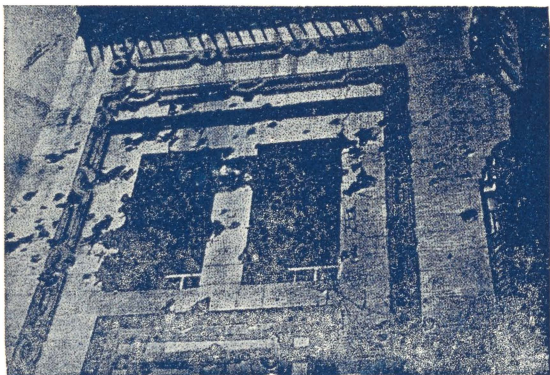
وفي تاريخ ٢٩ مايس بوغنت دمشق بقنابل المدفعايات تقصفها وتحاول دكها ،

وبوغت الناس بوابل من النار من اما كن متعددة ومستحكمة كانت في أيديهم ، واختصوا بعنايتهم دار البرلمان حيث كان من المتوقع ان تنعقد جلسة يشهدها الوزراء فتعمدوا قذفها واخذها بنطاق النار ، وقد ابيحت المدينة للفصائل الافرنسية والسفالية فأعملت فيها يد النهب والسلب والتحريق والتدمير ، واستمرت المجزرة نحو اربعين ساعة توقفت اثناءها قليلاً بطلب الممثلين السياسيين لنقل نساءهم واطفالهم ثم عادت الى شدتها كأن المعركة معركة حربية رسمية . وقد وقع مثل هذا في المدن السورية الاخرى بحيث كانت سوريا خلال هذه الساعات تموج بالنار والدماء والاشلاء والتحريق والتدمير . وقد تجاوز العدد المعروف من القتلى الستمائة ومن الجرحى الألفين ، وقدرت الخسائر بعدة ملايين ، وسجل المراقبون اعمال النهب الواسع ، واكتشفت جثث كثيرة تمثل فيها ابشع تمثيل .

وتكررت مأساة الأهمال والارتجال والبليلة وعدم الاستعداد التي كانت في العهد الوطني الأول وفي عهد فيصل قبله ، فلم تكن الحكومة والشعب على استعداد للدفاع المجدي والوقوف في وجه العدوان في اكثر المواقف ، ولم تقدر الاحداث السابقة عبرة وعظة ما ، على ان قوات الدرك والشرطة وكثيراً من الشباب في دمشق وحماه وحلب وغيرها قد سجلوا مواقف بطولة واستبسال في سبيل رد العدوان . وقد سلم متطوعة الدروز في الجيش سلاحهم وامكن اعتقال الضباط والقوات الافرنسية الاخرى في الجبل كما امكن حصر واعتقال القوات الافرنسية في درعا وبعض الاماكن الاخرى .

الترفض الانكليزي

ولقد كانت الحكومة السورية دائبة الاتصال بالدول الحليفة وخاصة ببريطانيا التي كانت ضمنّت لسوريا تحقيق استقلالها وحكمها الوطني ؛ ولقد نصحتها هذه بالتفاهم مع فرنسا كما نصحت فرنسا بعدم الغلو ، غير ان الحالة ظلت تشد توتراً ، فلما بلغ الموقف ذروته واشتدت المجزرة ناشدت الحكومة السورية بريطانيا مساعدتها ووفاءها بوعدها ، فسارعت هذه الى اصدار امرها الى قواتها بالتدخل واعادة



رصاص الافرنسيين في البرلمان السوداني

النظام ورد الافرنسيين الى ثكناتهم كما ارسلت مذكرة الى ديفول تحبّره باضطرارها الى ما قرّره وتطلب منه اصدار الاوامر اللازمة تقادياً من الاصطدام بين القوى الانكليزية والقوى الافرنسية . وقد نفذت القيادة الانكليزية الأمر بما تحت يدها من قوى في سوريا وبما جلبته من قوى مساعدة من فلسطين في ٣١ مايس وما تلاه من أيام حتى غدت القوى الافرنسية كالأسيرة في ثكناتها ووقفت المجزرة عند الحد الذي وصلت اليه .

- ٥ -

اهتمام الانكليز والاميرلانه للمحادث

ولقد كان اهتمام الحكومة البريطانية بالغاً أثناء الازمة واشتد الى درجة الخطورة في لحظاتها الاخيرة ، حتى لقد عقدت الوزارة جلستها في الليل في مجلس النواب حيث كان منعقداً ، وكان وزير الخارجية يتردد بين غرفة الوزارة وقاعة المجلس لينقل للأعضاء تطور الازمة ، وكان الاعضاء يقابلون خبر قصف الافرنسيين دمشق بالاستنكار كما قابلوا خبر صدور الامر بالتدخل العسكري بالهتاف .

وكذلك كان اهتمام الحكومة الاميركية ، حيث كانت المشارارات مستمرة بينها وبين الحكومة البريطانية خلال الازمة إلى أن وصلت إلى ذروتها .

وقد صدر عن وزارة الخارجية الاميركية تصريحات تنديدية بموقف فرنسا وما لاختلال الامن في الشرق الاوسط من تأثير في الجهود الحربية في الشرق الأقصى .

ولقد كان اهتمام الصحافة الانكليزية بالغاً منذ اخذت الامور تتأزم ، وكانت توجه التنديدات القارصة الى فرنسا لتجاهلها ذهنية العالم الجديدة وإصرارها على الاستمرار في ذهنيها العتيقة ؛ كما كانت تطالب الحكومة بالوقوف موقف الحزم واسعار سوريا بصدق ضمان بريطانيا لاستقلالها ووفائها بوعداتها .

كذلك اهتمت الحكومة السوفيتية اهتماماً كبيراً للموقف وارسلت الى الحكومات الاربع الكبرى انكاثرا واميركا وفرنسا والصين مذكرات لفتت

نظرها إلى ما كان من عدوان القوى الافرنسية على المدن السورية وسكانها بالمدافع والطائرات والجنود واستنكرته اشد الاستنكار وطلبت العمل المشترك في إيقافه، وحملت محطات الاذاعة الروسية عليه حملات شديدة .

ولقد كانت وقود الأمم تعقد اجتماعاتها في سان فرانسيسكو من أجل توطيد نظام هيئة الأمم ومناقها ، فاستغل العرب الذين كانوا قد جمعوا شملهم في تشكيلة الجامعة العربية هذه الاجتماعات ، وأثاروا القضية وأذاعوا أخبار العدوان الباغي ، فكان لذلك رد فعل استنكاري شديد في مختلف أوساط العالم السياسية والصحافية ، ولا سيما إن سوريا كانت قد انضمت إلى صفوف هذه الأمم وكان مندوبوها في سان فرانسيسكو يشتركون مع مندوبي الدول الاخرى في وضع نظام العالم الجديد القائم على الحق والحرية ، وأصبحت بذلك معترفاً باستقلالها وسيادتها واقعياً وطبيعياً ومتخلصة من صفة الانتداب دولياً .

تمهيد فرنسا ومعتقها

وطبيعي أن تدخل الانكليز على الوجه الذي تدخلوا به ووقوف اميركا الى جانبهم والضجة التي أثارها صحافتهم قد أحدثت استياءً شديداً في نفس ديفول والأوساط العسكرية والاستعمارية الافرنسية ؛ وإذ لم يكن في إمكانهم أن يمنعوا التدخل الانكليزي بالقوة فقد رضخوا له ؛ ولكنهم أخذوا يقابلون الهجوم بهجوم معاكس ، فيعززون صراحة حيناً وتلميحاً حيناً آخر ما كانت من الانكليز الى ما يبيتونه من نية باخراج فرنسا من سوريا والحلول محلها بالرغم عن تظاهرم ، كما أخذوا يبدون دهشتهم من مناصرة الانكليز لموقف سوريا المتعنت وتأليبهم عليهم العالم بينما لم تكن المطالب الافرنسية إلا مثل ما يتمتعون به أنفسهم في مصر والعراق والأردن . وأخذوا في ذات الوقت يذيعون أن ما كان في سوريا إنما هو من عناصر شغب لا تمثل الشعب وأن ما يطلبونه لا يتعارض مع استقلال سوريا وسيادتها وإنه نتيجة لما كانت تحمله من التزامات دولية لم تلقها عنها بعد الى آخر الاسطوانة السمجة التي إعتادوها دون مبالاة بما تنطوي عليه من حق ووجه وتناقض .

ولا يملك الانسان نفسه من الدهشة من صلف فرنسا ومكابرتها وعنادها وحققها وروحها الاستعمارية الباغية دون تقريب في الاشخاص والادوار والأمكنة بالرغم بما ذاقته من مرارة كأس الاحتلال والهوان . وما كان من انهيارها الحربي والحلقي والاقتصادي ، وبالرغم مما وقع عليها من لطمة قاسية حينما بغت على حكومة لبنان في خريف عام ١٩٤٣ على ما سوف نذكره بعد وما أثاره بغيها من دهشة العالم واستنكاره وتقريعه .

ومع أن من الصعب أن يؤمن المرء باخلاص الانكليز في موقفهم وفي دعواهم بأن لا مطمع لهم في سوريا ولبنان، ولا سيما إنه قد كانت لهم بعض مظاهر ومواقف مثيرة للريب ذكرناها في حينها كما كان مثل ذلك في حادث لبنان الذي أشرنا اليه آنفاً ، ثم إنه قد كان بينهم وبين الافرنسيين تشاد قديم وحديث عليها ، مما يجعل المرء يتوقع أن يتقاضوا غنم موقفهم بشكل من الأشكال وفي وقت عاجل أو آجل فان تدخلهم أثار موجة ارتياح وشكر عظيمة في سوريا حكومة وشعباً ، وجعلهم ينظرون اليهم في وقته الذي جاء فيه كالنقذ لهم من اللجة الهائلة التي سقطوا فيها وكادت تبتلعهم .

تضامن البلاد العربية في الحادث

ولقد كان للبغي الواقع رد فعل شديد في البلاد العربية فأضربت فلسطين والأردن والعراق تضامناً مع سوريا ، وحملت صحافتها حملات شعواء على فرنسا وطالبت الحكومات العربية بقطع علائقها بها وإعلان المقاطعة الاقتصادية عليها ؛ وقدمت الحكومات احتجاجاتها الشديدة وقامت باتصالات سياسية متنوعة بسبيل ذلك ، وتناولت البرلمانات العربية المسألة منذدةً محتجة ؛ وانهقد بعد ايام قليلة مجلس الجامعة العربية فكان موضوع سوريا وكرارثتها موضوعاً رئيسياً فيه . وقد أرسل الملك فاروق رسالة قوية تليت في الاجتماع جاء فيها فيما جاء « لقد اصبحت مدن سوريا العزيزة في الحوادث الأخيرة إصابة مفجعة أحرزنتني وأحزنت شعبي ، ويعزبني فيها أنني أعلم أن النضال عن الحق شرف ولذة . فلنعمل لاستقلال

سوريا ولبنان وسيادتها الكاملين ولنعمل لاستقرار الامن والسلام فيها ، وليكن
 لجامعة الدول العربية المقام الذي نوده لها وتربده الامة العربية كلها . فان في قوة
 الجامعة قوة لجميع اعضائها . وقد شرح سعد الله الجابري أدوار الموقف وتطورات
 ومطامع فرنسا وتمحلاتها ثم صفحات بغيها اللئيم ووحشيتها فيه ، ومن جملة ما ذكره
 أن ممثلي اميركا وإنكلتوا اندهشا بما قاله لهما من مطالب فرنسا الثقافية
 والاقتصادية والعسكرية ولم يصدقا ذلك إلا بعد أن قرأوا المذكرة الافرنسية ، وأن
 ممثل اميركا قال له إن الاذاعة الافرنسية كانت تذيع والعدوان في شدته أن القوى
 الافرنسية لن تكف حتى ترضخ الحكومة السورية للمطالب وتوقع على الاتفاقيات
 المعروضة . وقد خطب رؤساء الوفود خطباً قوية استنكروا فيها عدوان فرنسا
 وأعلنوا تضامنهم مع سوريا الى النهاية ، ثم قرر المجلس تأييد سوريا ولبنان في طلب
 الجلاء العاجل لجميع القوات الافرنسية من اراضي الجمهوريتين وتحجبل القوات
 الافرنسية تبعة الحسائر والضحايا التي أوقعتها في سوريا واعتبارها في موقف المعتدي .
 وبذل الجهود المشتركة في سبيل تحقيق الجلاء العاجل .

موقف بنائه الإيجابي ونضامه مع سوريا

ولقد حرصت سوريا على أن يكون لبنان بنوع خاص متضامناً معها في الموقف
 لانه موقف مشترك يتصل بلبنان بمثل ما يتصل بسوريا ، ولأن فرنسا تطالب لبنان
 وتقف منه بمثل ما تطالب سوريا وتقف منها من أجله ، ولا سيما لأنها تعلم ما لفرنسا
 في لبنان من انعطاف قوي وأن أي استقرار افرنسي فيه يهدد أمنها ومستقبلها .
 ولقد كان لبنان والحق يقال مستجيباً استجابة تامة حكومة وشعباً ، ولا سيما كان
 يقوم فيه عهد وطني ، وكان اكتوي بنار كارثة باغية قبل مدة قليلة كانت من آثارها
 إراقة دماء واعتقال رئيس الجمهورية ووزرائه وبعض نوابه ، وكان من آثارها ولادة
 لبنان العربي القومي على ما سوف نذكره بعد ، فوقفت الحكومة منذ البدء مع
 سوريا موقفاً واحداً في رفض المطالب ، وأضربت بيروت والمدن الرئيسية أياماً
 عديدة ، وعقدت الهبات الوطنية على مختلف ميولها مؤتمراً قومياً متسقاً مع المنهج

الاستقلالي الوطني الجديد الذي انتهجه لبنان ، ودعا الى التطوع بسبيل الاستعداد للطوارئ ، وفعل مثل هذا المجلس النيابي ؛ وحاول أنصار فرنسا تخفيف حدة التضامن اللبناني السوري فكان نصيبهم الاخفاق .

- ٦ -

الجهود في سبيل فطه الجلاء ونجاعتها

ولقد تكثفت الجهود بعدئذ في سبيل الخطوة الحاسمة وهي الجلاء التام دون تقيد بمعاهدة ومنح مركز ممتاز ؛ وكان هذا التصميم سابقاً على البغي فزاده هذا قوة وشدة . وقد سنحت الفرصة الملائمة في أواخر عام ١٩٤٥ ؛ فقد عقدت الحكومتان الانكليزية والفرنسية اتفاقاً على تنظيم انتقال جيوشها في سوريا ولبنان ، رأت فيه الحكومتان اللبنانية والسورية افتئاثاً على استقلالهما وسيادتهما وفرصة لاثارة قضية وجود جيوش أجنبية في بلادهما والمطالبة بجلائها عنها؛ فاحتجتا على الاتفاق من جهة لدى الحكومتين وسارعنا من جهة أخرى إلى عرض القضية على مجلس الأمن مطالبين بالجلاء ولم يسع بريطانيا وفرنسا إلا ان تصرحاً عزمهما على الجلاء، وقالت بريطانيان دخول الجيوش البريطانية الفرنسية الى سوريا ولبنان لم يكن القصد منه إلا منع الألمان من اتخاذهما قاعدة أو لآوتأمين مواصلات الحرب الى الشرق الأقصى ثانياً. وأيات أمير كما مطلب سوريا ولبنان وقالت ان السياسة التي أقرتها هي جلاء الجيوش الأجنبية عن جميع بلدان الأمم المتحدة فور طلبها وإبداء رغبتها في ذلك كما أبدت الطلب روسيا والصين ودول أخرى في المجلس . ثم اقترحت أميركا صيغة قرار بنصيحة الدول الأربع اي انكلترا وفرنسا وسوريا ولبنان بالاتفاق على الجلاء وتنفيذه في أسرع وقت ممكن ، ووافقت اكثرية المجلس الساحقة على القرار غدير أنه لم يكتسب الصفة القانونية لأن روسيا امتنعت عن التصويت بسبب عدم تحديد موعد حاسم للجلاء وتعليقه على مفاوضات . ومع ذلك فإن بريطانيا وفرنسا لم يسعها إلا ان يعدا استعداداً لتنفيذه في أسرع وقت ممكن ما دام ان اكدية المجلس أقرته . ثم تم الاتفاق بينها على ان يكون جلاء جيوشها معاً عن سوريا في ١٧ نيسان عام ١٩٤٦

المصادف ليوم الاربعاء ١٦ جمادى الأولى ١٣٦٥ . وفي الموعد المذكور تم الجلاء عن أراضي سوريا واقامت بمناسبة ذلك صباح اليوم التالي حفلة عرض عظمى اشتركت فيها وفود الحكومات العربية وفصائل من جيوشها ، وكان عيداً قومياً رائعاً دامت حفلاته المتنوعة اياماً والقي رئيس الجمهورية في بعضها خطاباً جامعاً على الجماهير عن حلقات الحركة العربية والنضال وعن العهد السوري العربي الجديد كما القيت في بعضها الخطب والقائدات عن الحركة العربية وسيرها ، وفاضت فيه دموع الفرح من عيون العرب لهذه النهاية السعيدة بعد كفاح طويل استمر خمسة وعشرين عاماً لم يفتر ولم يهن ، وقاست سوريا فيها ما قاست من عظيم المحن ، وتحملت ما تحملت من جسيم التضحيات . وكان من تمام فرحة سوريا انها أولى البلاد العربية - في غير جزيرة العرب - التي تمت لها هذه السعادة بعد هذه الحقبة ، وتكللت فيها الحركة العربية القومية بالنجاح ، وأخذ علمها يخفق وحده في سماءها غير مقيدة بأي قيد . وكان هذا حقها لأنها البلد الذي نشأت فيه الحركة العربية الحديثة وترعرعت وساهم رجالها بالنصيب الأوفى من الجهود والتضحيات في سبيلها .

ولقد انفتحت أمام سوريا بهذه النهاية السعيدة الآفاق لتنتقل منها في سبيل انمام ما ترشحت له من رسالة الحركة العربية الحديثة ؛ بما سبيله ان تتيسر لها حياة مستقرة وقيادة صالحة مرشدة قوية ألمعية يكون لها من ايمانها وعقلها وقلبها وحزمها وتجربتها ومثلها العليا وافقها الواسع ودعوتها الاصلاحية ، ونزعها التجديدية او الانقلابية ما يجعلها تنسق مع الدور الايجابي الذي تستقبله البلاد وتستطيع أن تنظم وتستغل الامكانيات والمواهب العظمى الكامنة في البلاد والشعب ، وان تغلب على مظاهر الضعف الموروثة من جهل وفقر وفوضى في ظل ما نالته من حرية من كل شائبة وزوال أي عائق خارجي لذلك الانطلاق .

الباب الثاني

فرنا ولبنان

الفصل الأول

العهد الاتحادي

١٩١٨ - ١٩٤٣

- ١ -

قوة أثر وسروره مناوأة فرنسا للحركة العربية في لبنان وظروف لبنانه الخاصة المساعدة

إن مناوأة فرنسا للفكرة والحركة العربية في لبنان كانت وظلت أشد أثراً وأبرز مظهراً وأكثر يسراً . وكانت طبيعة لبنان الاجتماعية والروحية والدينية وما مر بلبنان من أحداث لفرنسا فيها أصابع وآثار بما ساعد على ذلك مساعدة كبيرة .

فأكثرية لبنان القديم (الصغير) نصرانية مارونية ، ولموارنة لبنان تقاليد تاريخية ودينية ترجع إلى آماة بعيدة . ووحدة المذهب قد جمعت بين الموارنة وفرنسا حيث يدين الفريقان بالكنيسة ورأسه البابا الروحية . وفي لبنان طائفة كاثوليكية غير مارونية كبيرة العدد أيضاً تجمع وحدة المذهب كذلك بينها وبين فرنسا . وكان ما حصلت عليه فرنسا منذ القرن السادس عشر من الدولة العثمانية من منح تجازية وثقافية وملاحية ، قد انقلبت مع الزمن الى امتيازات اضطرت الدولة المذكورة الى احترامها في عهود ضعفها الاخيرة وجعل فرنسا تعتبر نفسها حامية النصارى وخاصة الكاثوليك الذين يدخل في عدادهم الموارنة .

ولقد اقتصرت فرنسا كاثوليك لبنان وموارنته بعطف أو بتعبير أصح رأت أن تحتصم بذلك للآرب استعمارية . فأخذت البعثات الافرنسية تنشئ المعاهد والمدارس في ظل تلك الامتيازات في مختلف انحاء لبنان تعلم أطفال النصارى فيها تاريخ فرنسا ولغة فرنسا وحب فرنسا ، وتلقنهم أنهم ليسوا من العروبة في شيء وأن العروبة بيعع إسلامي وبدواة متوحشة . وجاء فريق الرهبان اليسوعيين الجزويت الذين

طردوا تقريباً من فرنسا نتيجة لثورتها الكبرى الى لبنان واستقروا فيه وانشأوا المدارس كما انشأوا الجامعة الافرنسية المعروفة باليسوعية ، وقالوا من حمایه فرنسا ومددها ومساعدتها ما حرموه في وطنهم لأن دعوتهم متسقة مع المنهج الذي كانت تترسمه .

فنشأ من كل هذا مع الزمن روابط وعواطف متبادلة بين فرنسا والكاثوليك والموارنة في لبنان ؛ حتى لقد صارت اللغة الافرنسية لغة الموارنة والكاثوليك في البيوت والاعمال وصارت الاسماء الافرنسية اسماء بنات هذه الطوائف وابنائها في بيروت وأنحاء لبنان الأخرى تقريباً، وحتى صار هؤلاء يرون في فرنسا حاضياً أو كما يسمونه « اما حنوناً » ويتمنون ان يكونوا ضمن حمايتها الفعلية ، وحتى صارت فرنسا ترى فيهم الأبناء الأبرار وينعتهم ساستها وكتائبها بافرنسي الشرق ، وترى لنفسها بسببه حقوقاً وتقاليده ومصالح تبعث فيها الطمع في بسط سيطرتها أو نفوذها على بلاد الشام وخاصة على لبنان ؛ مما ظهرت آثاره أولاً في بعض الوثائق المصادرة من دار القنصلية الافرنسية في بيروت وفي بعض المواقف التي بدا فيها موارنة لبنان وكاثوليكه في أثناء الحرب كانت نكاة للاتحاديين في التكتيل برجال الحركة العربية الشاميين دون تفريق ، وثانياً في مراسلات الحسين - مكماهون ، وثالثاً في موافق فرنسا وسلطانها من الحركة العربية في العهد الفيصلي على مـسا ذكرناه في الفصول السابقة من الكتاب .

وأكد هذه الروابط والعواطف بصورة قوية ومستمرة حوادث لبنان وسوريا الطائفية الدموية التي أخذت تقبع عقب جلاء حملة ابراهيم باشا المصري في اواسط القرن التاسع عشر ، والتي بلغت ذروتها عام ١٨٦٠ حيث تدخلت فرنسا كوكيلة عن الدول الأوروبية العظمى تدخلا فعلياً وأرسلت حملة عسكرية الى بلاد الشام لحماية أرواح المسيحيين . ونتج عن هذا التدخل وتلك الفتن نظام لبنان الصغير الاستقلالي والاداري الذي امتد الى منتصف الحرب العالمية الأولى ، والذي كان في الحقيقة شبه دولة ضمن الدولة العثمانية . حتى كان الشخص الذي يقترب جريمة في بيروت وغيرها فيفر الى لبنان ينجو ولا تجرأ سلطات الدولة العثمانية على مطاردته . وبلاضافة الى الكتلة الكاثوليكية المؤلفة من الموارنة والكاثوليك الآخرين

ففي المنطقة الساحلية والغربية بما فيها لبنان التي احتلتها القوى الفرنسية عام ١٩١٨ وصارت تسمى لبنان الكبير بعد ذلك أقليات مسيحية أخرى يجمع بينها وبين فرنسا وحدة الدين مهما اختلفت المذاهب كان اندماج كثير منها في رغبات ومناهج ودعايات فرنسية سهلاً، لأن تأثير الدين في الشرق كان وما يزال هو العامل الأقوى في الترابط والتكتل، ولأن ما كان يتسع من فتن بين النصارى والمسلمين وما كان للمسلمين من تفوق مادي وعددي ومعنوي في بلاد الشام قين بأن يجعل أغلبية النصارى على اختلاف المذاهب يرون أنفسهم أقرب إلى فرنسا ويرونها أجدر بمجاوبتهم.

استدراكات في صدر مظاهر العروبة الحديثة في لبنان

هذا مع التنبيه أولاً على أن صف التاريخ والتقاليد التي ما زالت مذكورة تذكر أن لبنان فلماً عرف المنازعات الدينية قبل أصابع فرنسا، وأن منازعاته إنما كانت منازعات سياسية حزبية عربية ومحلية مما يعرف بالقيسية والبنية والتي كان يندمج في كل منها أناس من مختلف الطوائف في حزب أو صف واحد فيكون فيه الماروني والكاثوليكي والأرثوذكسي والمسلم والشيعي والدرزي، وتكون الخصومة بينهم وبين الحزب الآخر الذي يكون فيه كذلك أناس من مختلف الطوائف المذكورة. وثانياً على أن محاضر تحقيق تلك المنازعات والفتن كانت تقع في أواسط القرن التاسع عشر ومشاهدات معاصريها المدونة تدل بصرحة على أن أصابع الأجانب ومنها أصابع فرنسا كانت تلعب في النصارى والدروز وكانت من أسباب ما يقع ويشد من منازعات وفتن بين الطائفتين في لبنان، والذي امتد أثره إلى دمشق وكان منه الصدام بين مسلميها ونصارها، وثالثاً على أن النصارى في لبنان لم يكونوا بمعزل تام عن الفكرة العربية الحديثة والحركة بسبيلها فقد كان بعضهم من أوائل الذين اعتنقوا الفكرة في عهد الدولة العثمانية وقبل إعلان الدستور العثماني، وتضامنوا في الحركة في سبيلها مع بعض المسلمين وأسسوا بعض الجمعيات التي قامت ببعض النشاط على ما ذكرناه في الجزء الأول من الكتاب، كما أن من نصارى لبنان من استغرق بالعروبة وإجادها واللغة العربية وأدائها

ومفاخرها استغراقاً عظيماً في الحقب الاخيرة من عهد تلك الدولة فضلاً عن الأولى وصاروا من اعلامها المشهورين وفرسانها المبرزين ، ومنهم من كان ينظم القصائد والأنشيد منذ أربعين عاماً بدعوة العرب الى اليقظة والعمل على إستعادة مجدهم كالشيخ ابراهيم اليازجي المشهور . اما المسلمون في هذه المنطقة فمع انهم كثرة كبيرة قد تعدل في عددها عدد المسيحيين من مختلف الطوائف ان لم تزد عنه ، ومع ان ميولهم المستلزمة من ظروف لبنان ذكرياته ومنازعاته وعلاقة نصاراه بالأجانب ثم من دينهم العربي واروماتهم العربية وتاريخهم العربي الممتد في اعماق الحقب الطويلة متسقة مع الفكرة العربية فإنهم مقسومون الى طوائف اعتاد بعضها ان ينظر الى بعض نظرة غير مستحبة من الناحية العقائدية جعلته يعيش عيشة انعزالية تقريباً في نطاق طائفته وتقاليدته الخاصة .

ومها يكن من امر فمن الحق ان يقال ان غير المسلمين السنيين من سكان هذه المنطقة كانوا في الحقبة الاخيرة من عهد الدولة العثمانية يعيشون كل منهم في جوه وتقاليدته ونزغاته ونزغاته . وقد استندنا المسلمين السنيين لأن صفتهم هذه التي تجمع بينهم وبين غالبية سكان بلاد الشام أولاً وبلاد العرب ثانياً وبلاد الدولة العثمانية ثالثاً والبلاد الاسلامية الاخرى رابعاً كانت تجعل مجال حيويتهم ونشاطهم واتصالهم ومشاركتهم اوسع .

الامال في انبثاق طوائف لبنانية في بؤقعة العرب وبمساعده

ومع ذلك فلقد كان من الممكن بل ومن الطبيعي أن تضعف آثار هذه الروح الانكماشية وبواعثها ، وان تخف حدة تلك الفوارق والتزعات حتى تزول من الحياة العامة الدينية وان ينتهي الامر الى مستقره الطبيعي من قيام الفكرة القومية والأخوة الوطنية الشاملة مقامها ، وان تنسبك فيها هذه الطوائف والعناصر لو لم تبتل سوريا ولبنان بفرنسا المستعمرة الطامعة المفسدة المفرقة .

فهما كان من تعدد في الطوائف في لبنان فإن هناك حقيقة لا يمكن حجبها وهي وحدة اللغة والتاريخ والمصلحة والبيئة بل والارومة التي توحد سكان لبنان اولا وتوحد مع سكان سوريا ثانياً ومع العرب في سائر اقطارهم ثالثاً ، وان هذه

الوحدة من اقوى العناصر على نجاح الفكرة القومية وانسباك الناطقين بالضاد فيها وازالة ما بينهم من آثار الاهواء والدسائس التي وقعت قبل بزوغ الفكرة العربية الحديثة اذا ما تيسرت وحدة التربية والتعليم في نطاق الروح القومية الذي كان حقيقاً ان يكون في ظل سلطان عربي يستمد كيانه ومناهجه من الفكرة القومية الحديثة وانكفت سموم الدسائس عن النفث فيها ، ومثل هذا قد كان في امم واوطان اخرى سكانها مختلفون في مذاهبهم واروماتهم بل ولغاتهم اكثر بكثير من هذا الاختلاف .

ولست دعوى هذه الوحدة تلقى جزافاً حتى بالنسبة لمن يدعى ان موارنة لبنان فينيقيون . حيث ان من الثابت علمياً ان الفينيقيين او الكنعانيين الذين هم الفينيقيون او منهم ليسوا الا موجة من موجات الجزيرة العربية التي ينتسب الى اروامها الدروز والشيعيون وغيرهم من المسلمين . هذا فضلاً عن ان القرون الطويلة المتصلة التي عاش سكان لبنان فيها معاً قمينه بتوطيد هذه الوحدة الموطن مثلها في الشعوب الأوروبية الحاضرة في مدى أقصر ومع الاختلاف الأشد في الدماء والارومات واللغات .

- ٢ -

خطة المناوأة الافرنسية للحركة العربية ونبأاتها منذ سنة ١٩١٨

وحينما انهارت الجبهة التركية في فلسطين ودخلت حملة فيصل الشام وسارع هذا الى ارسال شكري الابوبي ليقم الحكم العربي في بيروت بالنيابة عنه وقف الافرنسيون في وجه هذا الامتداد الذي حاوله فيصل ، وتمكنوا بالتآمر مع الانكليز وتنفيذاً للاتفاق الغادر بينهم من اعادة هذا النائب الى دمشق وطبي اعلام الثورة العربية من سماء هذه المنطقة التي خفق فيها ، لأنهم رأوا في هذا الامتداد خطراً على منهجهم الاستعماري الذي اختطوه من قبل نحو بلاد الشام وخاصة نحو لبنان والساحل الشامي ، ثم اخذوا يعملون منذ حلولهم في هذه المنطقة على توطيد اقدامهم وتحقيق منهجهم ، فعينوا حاكماً افرنسيا عسكرياً ، وحكموها حكماً

عسكريا واسع الشمول ، وظلت هذه الصفة في الحكم قائمة طيلة العهد الفيصلي ، وملأوا دوائر الحكومة بالفرنسيين وبمن يثقون بولائهم وفنائهم فيهم وخاصة من الموارد ، وشرعوا من جهة أخرى في تسيير تيارات دعاياتهم وتلقيناتهم وخططهم في مختلف الجهات التي تضمن لهم توطيد القدم وتحقيق المنهج ، وكانوا يتوسلون الى ذلك بكل وسيلة من رشار واغراء حيناً وتهديد وارهاب حيناً آخر .

وكان في ما توخوه من ذلك أن تكون هذه المنطقة بالإضافة الى ما رسموه لها من اطار استعماري خاص مناري. للفكرة العربية فيها وحائل دوت تدفق تيارها إليها مقرأً للدعاية ضدها في الداخل ، وميداناً لاعداد الوسائل المتنوعة الدعاية والحربية والسياسية التي تساعدهم في قفزتهم الى هذا الداخل وتوطيد قدمهم وتحقيق منهجهم فيه ، بما كانت آثاره تظهر في جبل الدروز وفي دمشق والبلاد السورية الداخلية الاخرى أثناء المواقف والاحداث والأزمات المتنوعة في العهد الفيصلي على ما ذكرناه في الفصول السابقة .

ولقد سارت الدعاية المعاكسة للفكرة العربية في لبنان في مجار متنوعة ؛ منها ما كان موجهاً ضدها مباشرة ومنها ما كان موجهاً بصورة غير مباشرة وعن طريق التفريق بين العرب وتفكيك عرى وحدتهم وروابطهم وتحويل اتجاههم عنها وإشغالهم بأنفسهم ومنافعهم العاجلة . وقد كان هذا كله يجري في آن واحد .

فمن جهة أخذت 'تثبت في النصارى وخاصة في الموارد الذين كانوا عمود لبنان الصغير الفقري والذين هم المنصر الاكبر المعتر بكيـان وعنعات وتقاليد خاصة أكثر من غيره فكرة أنهم ليسوا عرباً وانما هم أنسال الفينيقيين ، وأن العرب ليسوا الاغزاة كسائر الغزاة الذين طرأوا على بلاد الشام ، وقد عبروا في التاريخ كما عبر غيرهم وإن كانوا أبقوا لغتهم ودينهم ، وأن الفينيقية هي الاصل الذي يجب أن ينتسب إليه اللبنانيون وأن يتمسكوا به ، وأن الفكرة العربية العنصرية لا تقوم على أساس صحيح بالنسبة الى سكان سوريا عامة واليهيم بصورة خاصة ، كما أنها تجعل ربطاً غير طبيعي بين اللبنانيين خاصة والسوريين عامة وبين سكان جزيرة العرب البدو المتغلغلين في مجاهل الجهل والوحشية بعد ما قطع أولئك ما قطعوا من المراحل الشاسعة في طريق المدنية والحضارة والثقافة .

ومن جهة أخذت تُثبت في نصارى لبنان بنوع خاص أن الفكرة العربية والوحدة العربية السورية والوحدة العربية الجامعة اللتين تستهدفهما هذه الفكرة ليست إلا ستاراً يخفي وراءه فكرة السيطرة الاسلامية وإخضاع النصارى لها ، وأن في هذا عودة العهد الذي كانوا يقاسون فيه ما يقاسون من مهانة وما جرى عليهم فيه من حيف وجنف ، وإن واجبههم ومصالحهم وعاطفتهم تقضي عليهم أن يتضامنوا مع الافرنسيين أبناء دينهم ، وأن يتمسكوا بهم كحماة منقذين لهم من شر مثل ذلك العهد البغيض .

ومن جهة أخذت تثار ذكريات القرن التاسع عشر الدموية وأنها إنما كانت بسبب التعصب الشديد الذي يشعر به المسلمون ضدهم ويذكرون بما كاب من فرنسا نحوهم من عطف ومساعدة للحماية والانقاذ في حوادث ١٨٦٠ وتقوي فيهم فكرة فرنسا الحامية الطبيعية لهم .

ومن جهة أخذت تُثبت فيهم مغالطات وسوم متنوعة باسم البحوث العلمية والوطنية والمنطقية والتاريخية والثقافية ، فأولاً إن الديانة الاسلامية ليست ديانة وطنية وإنما هي دخيلة والديانة الوطنية الحقيقية هي المسيحية لأنها نشأت في بلاد الشام ! وثانياً إن الفكرة العربية لا تقوم على اساس علمي لان سكان سوريا وإن تكلموا اللغة العربية فهم مزيج من عناصر ودماء متنوعة واكثرهم يمت الى أصل غير عربي ، ولأن الفكرة تشمل العراق وجزيرة العرب ، وبين سوريا ولبنان خاصة وبين العراق أولاً ثم بينها وبين جزيرة العرب ثانياً من الفروق الجغرافية وغير الجغرافية ما يجعل الانسجام مستحيلًا وغير طبيعي ، فضلاً عن أن اللبنانيين الذين قطعوا شوطاً بعيداً في مضمار الحضارة والثقافة والاقتصاد والعلوم والفنون يتأثرون كأقلية وسط هذه الكثرة العظيمة بتأخرها الثقافي والاقتصادي والمدني فيتأخرون معها بدلاً من أن يستمروا في خطواتهم المتقدمة في ذلك المضمار ! وثالثاً إن لسوريا ولبنان فروقاً مميزة عن سائر البلاد العربية من حيث الثقافة والمدنية والمناخ الجغرافي ومن حيث سير التاريخ والصلات بعالم الحضارة ؛ وهذه الفروق لا تسوغ شمول الفكرة القومية العربية ولا تجعلها قائمة على اساس ومنطق ومصلحة ورابعاً إن الفكرة القومية العربية فكرة رجعية وغير إنسانية حيث تستمد من

العصور المظلمة المتوحشه وترتكز على الانانية والآثرة في حين ان الواجب يقضي بالانطلاق من الأفكار العتيقة والاندفاع بسرعة الى ساحة الاخاء الانساني العام والأنمية التي تجمع جميع البشر في جامعة واحدة دون تفريق بين جنس ودين وعرب وغير عرب وشرق وغرب .

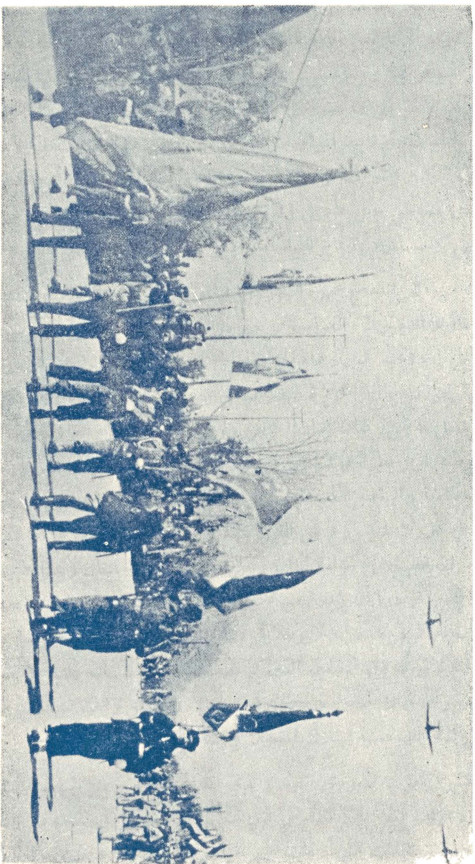
ومن جهة أخذ يلوح لهم بالمطامع والمنافع، فعدم اندماجهم في الفكرة العربية والوحدة السورية سيعود عليهم بأحسن العوائد ، فتكون السيادة في لبنان لهم ، وتكون لهم في حكومته ودوائره المناصب والمراتب ، ويخلصون نهائياً من مركز الأقلية المحكومة المزدراة المهيضة الجناح، ويتبوؤن مركز الاكثية الحاكمة فتكون لهم العزة والكرامة .

ومن جهة أخذت تبث في الشيعيين والدروز في جبل عامل وبلبك وجبل لبنان دعايات متنوعة ايضا ؛ فالفكرة القومية العربية هي فكرة السنين المسلمين ، ونجاحها يعني نجاح السنة وفوزها ، فاذا اندجوا فيها ضاعت مميزاتهم وبلغتهم الاكثية ، ووقعوا تحت سيطرتها واحتقارها كما كانوا في السابق في حين أنهم إذا ظلوا في نجوة منها احتفظوا بشخصيتهم وتقاليدهم وحافظوا على مصالحهم وتمتعوا بما تتمتع به الطوائف الاخرى ذات الكيان المتميز في الوظائف والمناصب والرأي والوجاهة والمراسم ومختلف شؤون البلاد العامة والخاصة .

- ٣ -

آثار هذه الخطط والبيارات المبكرة

وهكذا أخذت تيارات هذه الدسائس والمغالطات البارعة التي لم يخل بعضها من صلة بأحداث التاريخ وذكرياته البغيضة تتلاطم في بحيرة لبنان الصغيرة وتقلع فعلها في طوائف لبنان المتنوعة ، ومنه ما آتى أكله باكراً حيث استجاب النصارى وبنوع خاص جمهرة الموارنة والكاثوليك اليها حالاً وكان من آثار هذه الاستجابة رحمة البطرك الماروني الى باريس عام ١٩١٩ لتوثيق الصلات من جديد بين فرنسا والموارنة واللاحاح على فرنسا في الثبات على موقف الحامي لهم ولكيان لبناني



عرض البعثات العربية العسكرية في حفلة الجلاء الكبرى في دمشق ١٧ نيسان ١٩٤٦

مستقل تحت إشرافهم حيث أسنرت الرحلة عن تعاطي الرسائل بين البطررك وكليمنصو في توكيد اهداف الرحلة ونشيتها والتطابق فيها ، ثم رحلة الوفد الذي رأسه داود عمون الى باريس لمارضة مطالب فيصل في مؤتمر الصلح وللمطالبة بلبنان الكبير بإشراف فرنسا ومساعدتها ، ثم الاحتجاجات التي كان يرسلها البطررك الماروني من آن لآخر على ما يتقرر في دمشق من قرارات تهدف الى استقلال بلاد الشام ، بما فيها لبنان ، ثم تأييد الموارنة والكنوليك وبعض الفئات المسيحية الأخرى لفكرة لبنان الكبير بإشراف فرنسا ومساعدتها أمام لجنة الاستفتاء الأميركية ، ثم استجابة بعض مسيحيي جبل عامل والموارنة الى الافرنسيين وحملهم السلاح ضد العصابات التي كانت تقوم بازعاج السلطات الافرنسية في العهد الفيصلي الخ .

ولقد كان من آثار اندماج جمهرة الكاثوليك والموارنة في هذه الدعايات والنقلينات أن صار زعماءهم الدينيون والسياسيون يصرحون بها في مختلف المناسبات ؛ ومن ذلك تصريح لأميل إده أحد كبار زعماء الموارنة جاء فيه أن لبنان ليس عربياً وأن ثقافته عربية إفرنسية وأنه الجزيرة النصرانية في بحر العرب المسلمين ؛ وأن ظل هذا المعنى وما يتصل به من كيان لبنان الخاص ووجوب تحفظه إزاء العروبة وحركاتها ووجوب توطيد الروابط التقليدية التي تربطهم بفرنسا سياسياً وثقافياً واعتبار فرنسا هي الحامية والرعاية الطبيعية لهم شعار سياستهم ومنهجهم . حتى إن مطران الكاثوليك في بيروت لم يتورع من القول سنة ١٩٤٩ وبعد أن كان من فرنسا ما كان من عدوان فظيع على كرامة لبنان وحرية واستقلاله واعتقال رئيس جمهوريته وحكومته الذين أرادوا أن يزيلوا من الدستور المواد الانتدابية البغيضة عام ١٩٤٣ على ما سوف نذكره بعد « إنه لا يوجد في لبنان قلب لا ينبض بحب فرنسا مع أنه يعرف أنه لا يوجد بين المسلمين الذين هم نصف سكان لبنان قلب لا ينبض بكره فرنسا وأن فئات نصرانية كثيرة منها الأرثوذكس والبروتستانت الذين يزدون على المئة ألف نسمة تشارك المسلمين في ذلك !

ولعل نشوء الحزب السوري القومي الذي اندمج فيه كثير من شباب النصارى والمسلمين في مختلف أنحاء بلاد الشام والذي نشأ في عهد مبكر في لبنان قد كان في بدء أمره وقبل التعديلات التي أدخلت على منهاجه من أصداء هذه المغالطات

والدعايات حيث كان يردد أعضاؤه الفروق المميّزة لسوريا عن بلاد العرب من ثقافة واقتصادية وتفكيرية وجغرافية ومدنية ويدعون الى قومية سورية ووحدة سوريا خاصة وبنائون دعاية العروبة الشاملة ويرونها غير طبيعية وغير منطقية وفي غير مصلحة بلاد الشام .

- ٤ -

ضعف أثر تلك الخطط في المسلمين خاصة في العهد الفيصلي

ولقد كان العهد الفيصلي منذ قيامه ينشط من ناحيته ايضاً في الدعاية في منطقة الاحتلال الافرنسي المذكورة بسبيل العروبة والقومية العربية وقيام وحدة سورية عربية تشمل هذه المنطقة ، فكان الافرنسيون يقفون من هذا النشاط موقف المتروص ويبدلون جهدهم في الوقوف في وجهه وتأليب انصارهم ومواليهم عليه ، ويشددون النكير على كل من يتظاهر بالاندماج فيه والاستجابة اليه ويضيقون عليه الحناق .

ومن الحق ان نقول ان السلطات الافرنسية لم تصب نجاحاً في العهد الفيصلي في ما كانت تنهجه من مناوأة الحركة العربية في منطقة احتلالها مع ما كانت تفعله إلا في الطوائف المسيحية وخاصة في الموارنة والكتوليك ؛ حيث ظلت الكتيرة الساحقة من المسلمين السنيين والشيعيين والدروز متسقة مع دمشق في ذلك العهد باليول والرغائب، ومندمجة في نشاطه، بل ولقد كان لنشاط الدعاية العربية وأنصار العروبة في لبنان آثار ايجابية في فريق من ابناء الطوائف المسيحية بما فيها المارونية والكتوليكية ظهرت أثناء الاستفتاء الاميركي عام ١٩١٩ حيث اعرب فئات من المسيحيين عن الرغبة في الاستقلال والوحدة السورية او الاتحاد مع سوريا فضلاً عن اعلان الكتيرة الساحقة من الطوائف الاسلامية رغبتها في الاستقلال والوحدة السورية العربية بالرغم مما اتخذته السلطات الافرنسية من اجراءات ارهابية في طرابلس الشام وصيدا وصور وبيروت وجبل عامل والمناطق الدرزية في لبنان ، وظهرت كذلك في قدوم عدد من رجال نصارى المنطقة الافرنسية الداهين الى

دمشق مع عدد غير قليل من مختلف الطوائف الاسلامية فيها واشتراكهم في حررتها الجياشة ، واشترك اكثر من عشرين منهم في المؤتمر السوري وكانوا يحملون التوكيلات الموقعة من وجوه طوائفهم وأعيانها ونابهيها ، وكذلك ظهرت في القرار الجريء الذي اتخذته اكثرية أعضاء مجلس إدارة لبنان الذي كان يمثل الجبل على اختلاف طوائفه بطلب استقلال لبنان مجرداً عن إشراف فرنسا ومساعدتها ومتحدداً مع سوريا

- ٥ -

أثر انهزام عهده فيصل في الحركة العربية وانصارها في بنانه

ولقد كان لانهدام عهد فيصل ووقوع سوريا الداخلية بين مغالب الاحتلال الافرنسي وتقاذفها في مختلف التجارب والدسائس والمطامع ، وحرص الافرنسيين على ابقاء سوريا في نطاقها الضيق المحلي وأشغالها بما حل فيها ، وتفرق القائمين بذلك العهد أيدي سبا ، واصلات السيف فوق رؤوس القوميين الواعين واضطرارهم الى السكون او المسايرة ، وعدم تنظيم حركة دعوة قومية مستمرة تحارب في الوقت ذاته الدعايات المتنوعة أثر اليم في لبنان استغلتها السلطات الافرنسية استغلالاً واسعاً ، حيث ضاعفت جهودها ونشاطها في صدد منع أي حركة قومية والحيولة دون أي دعوة عربية ، ونشرت رقابة شديدة على الصحف ، ومنعت تشكيل الاحزاب والجمعيات وعقد الاجتماعات ، وأصلت سيف الارهاب فوق الرؤوس ، فاستولى على القوميين الواعين وعلى الطوائف الاسلامية بنوع خاص في السنين الأولى التي أعقبت الانهدام شيء من الخوف والانكماش من الحركة العربية والدعوة العربية أو السورية العربية .

اعلامه بنانه الكبير وهزمه

ومن اول ما فعلته بعد ذلك الانهدام اعلان ضم المناطق التي لم تكن من لبنان وهي مدن بيروت وصيدا ومرجعيون والنبطية وطرابلس الشام وحصن الاكراد

وبعلبك وراشيا وحاصبيا والبقاع وما يتبعها من قرى وأراض الى لبنان القديم وتسميته بلبنان الكبير وعلان استقلاله تحت انتدابها . والاقضية الاربعة الأخيرة كانت تابعة لولاية سوريا والبقية كانت تابعة لولاية بيروت . وكان ذلك في آخر شهر ايلول عام ١٩٢٠ . وقد قصدت بذلك فصل هذه البلاد التي كان يسكنها أكثرية ساحقة اسلامية سنية وشيعية عن بلاد الشام وقد كانت ابدت رغبتها في الاستفتاء في الانضمام اليها، وقطعها عن مجال العروبة وحركتها في الشام من جهة ومنح لبنان مساحات زراعية واسعة كان محروماً منها وكانت حياته الاقتصادية بسبب ذلك حرجة جداً ، حيث لم يكن لبنان الصغير إلا جبلاً أكثر ما يستطيع الاستغلال الزراعي فيه هو الفاكهة وشجر التوت لتربية دود القز .

ولقد كان هذا الضم بالرغم من السكان الذين هم من انصار الوحدة السورية والعروبة الطبيعيين ، ومن تمام السخرية أن يمثل فرنسا الذين يعلمون هذا حق العلم لم يتورعوا عن الكذب والقول انهم يفعلون ذلك تحقيقاً لرغبة الاهلين . . وقد كان وقع هذا الضم ذا تأثير أليم في نفوسهم ، ولم يرضوا به قط ، وكانت لهم مواقف عديدة بسبيل الاحتجاج عليه وخاصة إبان الحركة الدستورية السورية ، حيث عقد ممثلوهم مؤتمراً في دمشق رفعوا فيه الصوت عالياً بطلب الانضمام الى سوريا على ما ذكرناه في الفصول السابقة ثم إبان حركة المعاهدة الاستقلالية التي كانت نتيجة لما جرى في سوريا سنة ١٩٣٦ على ما سوف نشير اليه بعد . وقد كان من الموجه لهم في هذا الضم ان غدوا يعتبرون اقلية في لبنان بالنسبة للكتلة المارونية ، لأن فرنسا ظلت تعتبر كلاً من السنيين والشيعة والدروز طوائف مستقلة وكان عدد تلك الكتلة على هذا الاعتبار يفوق عدد كل طائفة على حدها، ومن ثم صار المنصب الرئيسي في الدولة للموارنة وكاد لبنان يصطبغ بسبب ذلك بالصبغة المسيحية المارونية من الوجهة الرسمية حيث يكون رئيس الدولة فيه مارونياً ، مع أن الطوائف الاسلامية في لبنان لو احصيت احصاءً دقيقاً واعتبرت كلها مسلمة لا تقل بعددها عن الطوائف المسيحية مجتمعة وزيادتها عليها مؤكدة بسبب تفوقها في النسل .

مهارة الدولة بعد اعلاسه لبنانه الكبير

وقد عين الافرنسيون أحد زعماء الموارنة وهو حبيب السعد رئيساً للبنان

الكبير باسم حاكم عام ؛ فكان ذلك إيداناً عملياً بصبغ لبنان الجديد بالصبغة المارونية ، ومكافأة للموارنة الذين كانوا عماد موقفهم وسلطانهم . ثم ساروا بعد ذلك على سياسة توسيد مناصب الدولة ووظائف الحكومة للأنصار والموالين والمائعين والمستسلمين والطامعين والمنشعبين بالتعصب الطائفي وبالفكرة التي غرسوها وظلوا يتعهدونها وهي عدم الصلة بين لبنان والعروبة وأن لبنان بأكثرية المسيحية يجب أن يكون دولة مسيحية يقوم فيها كيان المسيحيين بارزاً قوياً ، وينتهي به عهد عزلتهم الطائفية الذي كانوا يعيشون فيه في زمن الدولة العثمانية ، والذي كان المفروض أن يظلوا يعيشون فيه في وحدة سورية وعربية بما كان له تأثير قوي فيهم جعلهم يحرصون عليه كل الحرص ويتذكرون لكل حركة أو دعاية عربية رغماً عما في هذا التلقين من مغالطة في قياس الماضي بالمستقبل الذي يكون العرب فيه إخواناً متساوين في الوطن والدولة والعروبة دون أن يكون للفروق الدينية والمذهبية والطائفية أي دخل وتأثير .

ومات هذا الرئيس بعد حقبة غير طويلة فأقيم وكيل عنه ضابط إفرنسي اسمه القومندان ترابو فتقبل لبنان ذلك بدون مبالاة ، بل إن مجلس لبنان التمثيلي أقر هذا القومندان حاكماً عاماً أصيلاً؛ نتيجة لتأثير السلطان الافرنسي من جهة ومصداقاً لما قلناه من الانسجام التام بين النصارى الذين اعتبروا أكثرية لبنان وبين فرنسا بحيث كانوا وظلوا يعتبرون حكم فرنسا للبنان طبيعياً بأي شكل جاء هذا الحكم .

- ٦ -

دور رؤساء الديمة في لبنانه

ولقد كان لرؤساء الدين دور خطير في السياسة التي ترسمها الافرنسيون . فان طبيعة الأقليات الدينية جعلت هؤلاء الرؤساء منذ عهد الدولة العثمانية بمثابة رؤساء طوائفهم السياسيين والاجتماعيين أيضاً ؛ وكانوا يمثلونها أمام الحكومة وفي مجالسها وحائز مراسمها العامة ويسعون في دفع ما يقع عليها من حيف وبديرون شؤون أوقافها ومنشآتها الثقافية والخيرية ؛ وجعلت طوائفهم ترى فيهم الأقطاب الذين

تلتف حولهم والمرشدين الذين تسترشد بهم في المهات والخطوب ، والحماة الذين يرعون مصالحها ؛ بحيث كانت كلمتهم فيها هي النافذة وأمرهم هو المطاع ؛ فساد على هذا وذاك نظام الكهنوت المسيحي المستقر الذي يجعل الرئيس الديني كياناً لا بد منه في شؤون الطائفة الدينية والمدنية . فكل هذا جعل لرؤساء الدين مركزاً خطيراً نافذاً عرف الافرنسيون كيف يستغلونه في تنفيذ سياستهم بما وثقوه بينهم وبين هؤلاء الرؤساء من روابط وأمدوم به من نفوذ، وأظهروه لهم من احترام ، ومنحوم إياه من منافع ، وحققوه لهم من مطالب .

دور رؤساء الموارد الدينية خاصة

وكان دور الرؤساء الموارد أقوى الأدوار في هذه السياسة لأن الطائفة المارونية أكثر الطوائف عدداً فضلاً عن أنها تعتبر نفسها العنصر الاصيل في لبنان الضارب في أعماق تاريخه وجوداً وتقاليد، حيث تطابق هؤلاء الرؤساء مع السلطات الافرنسية في موضوع طبيعة لبنان وكيان لبنان وصبغة مسيحية لبنان ووجوب الاحتفاظ للبنان بكل ذلك ، والانسجام التام مع الافرنسيين وسياسة فرنسا وممثلها والتمسك بها واعتبارها الحامية التي لا بد منها للبنان ونصرانيته وموارنته والأم الحنون التي ارتضع لبنان ونصاراه وموارنته منها لبن الثقافة والحضارة ، ثم النأي به عن الاندماج في سوريا والعروبة ؛ حتى لقد صار للبطرك الماروني في هذه المواضيع وغيرها من شؤون لبنان العامة سياسية وغير سياسية المركز الممتاز على غيره والكلمة النافذة والصوت الداوي ، وحتى صار يعتبر نفسه ويعتبره المورد حامياً كيان لبنان ، بل وحتى صارت حكومة لبنان تقره على ذلك (١) ،

١ - للدلالة على هذا نورد كتاباً ارسله البطرك الى رئيس الجمهورية اللبنانية بشأن المصالح المشتركة حينما استلمتها حكومتا لبنان وسوريا من الافرنسيين واتفقتا على ابقائها مشتركة بينهما تدار بنظام اتحادي :

« لقد كنا ولا تزال نطالب باستقلال لبنان الناجز والآن اطلعنا على اتفاقية المصالح المشتركة بين لبنان وسوريا وتعين مجلس اعلى له اختصاص مستقل عن الحكومة وعن مجلس النواب في التشريع والتعيين والادارة. فنجبنا لهذا الاتفاق الذي لم يسمع بمثله بين الدول المستقلة اذ قد يفضي الى الاضرار

وحتى صار له تقاليد مراسمية فيزوره المندوب السامي الافرنسي عقب مجيئه لتلقي التهنئة منه وتزوره الحكومات اللبنانية فور تأليفها كأنما تسعى اليه لتقديم اليه الولاء وتحصل منه على البركة ، وحتى صار من تقاليد أن يزار ولا يزور تقريباً وان يزار أولاً على كل حال مهما كانت صفة الزائر ، وأن لا يستقبل أي زائر حتى ولا رئيس الجمهورية على باب قصره بل تستقبله الحاشية ويدخل الى حضرته في البهو حيث يكون في انتظاره (١) ؛ وأن ينقل من مقره الصيفي الى مقره الشتوي وبالعكس بموكب ، وأن ينزل الى بيروت إذا نزل في الظروف الهامة بموكب ، الخ ..

بالمصالح اللبنانية فضلاً عن تأثيره في استقلال لبنان الناجز . وعليه نرجو فحاشكم أن توقفوا المشروع ونرغب الى مجلس النواب أن لا يوافق عليه مع رغبتنا الدائمة في أن تكون العلاقات بين سوريا ولبنان ودية قائمة على أساس الثقة المتبادلة .

وقد أجاب رئيس الجمهورية البطريرك بما يأتي :

« ان ما ذكر من الاتفاق المتعدد بين الدولتين بشأن سلطة التشريع لا يخلو فعلاً من بعض التباس . ولهذا عمدت الحكومة الى الصراحة فقدمت مشروع قانون الى مجلس النواب يخولها حق الاشتراع الذي كان يمارسه الافرنسيون كما أن المجلس السوري وافق في جلسته الأخيرة على نص مماثل تماماً للنص الذي عرض على المجلس اللبناني . فزال بذلك كل لبس أو غموض . وستتولى الحكومات حق التشريع فيما يتعلق بالمصالح المشتركة . واني أنتهز هذه الفرصة لأندم الى غبطتكم شكري . وشكر الحكومة اللبنانية على سهركم الدائم على استقلال لبنان الذي هو هدفنا الأول في جميع الأعمال . »

وهذان الكتابان تودلا في اواسط ١٩٤٤ أي في العهد الوطني الاستقلالي الذي كان يمثل الشعب فيه حكومة وطنية ومجلس نيابي منتخب .

والمصالح المشتركة بين سوريا ولبنان ظلت أربعة وعشرين عاماً ١٩٢٠ - ١٩٤٤ تدار من قبل الافرنسيين مباشرة وبشروع لها فلم يكن البطريرك يرى في هذا خطراً على لبنان ولا عبئاً للاعتراض والاحتجاج فضلاً عن أنه كان راضياً كل الرضاء عن الساطات الانتدابية التي كانت تجمع في يدها كل شيء وتلمع في كل شيء في لبنان وتحجب عنه أي معنى من معاني الاستقلال الناجز ، ولكنه لم يلبث أن رأى الخطر ، ألا الآن لأن يد فرنسا قد ارتفعت وشيئاً من الاتحاد الاقتصادي الذي فيه حياة لبنان بالدرجة الأولى قد ظل قائماً بينه وبين سوريا مما يمت الى ما نحن في صدد تقريره !

١ - تنقل النبذة التالية عن جريدة الحياة عدد ٢٤٦ وتاريخ ٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٧ في صدد زيارة رئيس الجمهورية والوزارة للبطريرك بمناسبة عيد الجلاء ، فالبطريرك دعاهم الى وليمة غداء في قصره ليهنئهم بالجلاء وفقاً للتقاليد التي ذكرناها . وفي النبذة صورة ثابته مما تقدم :

« لبي فخامة رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء والوزراء دعوة غبطة البطريرك الماروني

ولقد زار البطرك الماروني بباريس عام ١٩١٩ فاستقبل فيها استقبالا حافلا ورسمياً وتبادل الرسائل مع كليمنصو في صدد كيان لبنان وصلة فرنسا الوثقى به فكان ذلك تدشيناً لما اخذ يجري بعده بما ذكرناه من تقاليد .

ولقد كان قوة تأثير فكرة كيان لبنان وصفته المسيحية أو المارونية والخوف من إنغماره بأكثرية إسلامية أن صار بعض زعماء الموارنة ورؤسائهم الدينيين يعتقدون فكرة فائدة إنسلاخ المناطق العديدة التي ضمت إلى لبنان والتي يسكنها أكثرية إسلامية ساحقة والتي ذكرناها في مناسبة سابقة ليصبح لبنان وطناً قومياً مسيحياً يأوي إليه من يشاء من نصارى سوريا أيضاً ، وبصرحون بها أحياناً ، بل لم يتورع أحد كبار رؤسائهم الدينيين وهو المطران مبارك الذي يتمتع بنفوذ عظيم في طائفته عن تقديم مذكرة إلى لجنة تحقيق فلسطين رجب فيها بقيام وطن قومي يهودي في فلسطين متحدية كل عربي على وجه الأرض إلى جانب وطن قومي مسيحي في لبنان وتحالف الشعبين في سبيل حماية أنفسهم من غزوات المجاورين - أي العرب ! - ومطامعهم وكان ذلك في سنة ١٩٤٦ أي في العهد الوطني الاستقلالي ... ولا يذكر أن هذه المذكرة وبعض تصريحات مثيرة من بابها أثارت الاوساط العربية والحكومة في لبنان وشنت بعض الصحف وبعض النواب حملة عليه فانبهرت صحف مارونية وإفرنسية تدافع جبهة عنه وعن حريته في الاعراب عن رأيه ورأي طائفته ، ثم سافر في رحلة إلى باريس فلما عاد استقبل استقبالا عظيماً حتى كانت الزينات منصوبة له من باب بيروت إلى مقره في إحدى الضواحي وتزاحمت على السلام عليه الوفود للتبرك منه ونظمت القوائد والقيت الخطب الاشادة بوطنيته وشجاعته وجهاده ... ومن تمام الصورة أن المجلس النيابي اللبناني كان منعقداً في ذلك النهار يتناقش في الخطر العظيم الذي يهدد لبنان وشعب لبنان من جرّاء انتصار الغزوة الصهيونية .

فذهبوا الى الصرح البطريركي حيث اقيمت لهم مأدبة غداء فاخرة . وقد غادر الموكب بيروت في الساعة الواحدة من بعد ظهر أمس واقامت لهم اقواس النصر في الطريق وكان السكان يستقبلونه بالتصفيق ايّناً مرّة . وقد رحب بهم على مدخل الصرح أصحاب السيادة المطارنة ثم استقبلهم غبطة البطريك في هو الدار استقبالا حاراً . ومن ثم دلفوا الى المائدة المعدة لهم فوقف البطريك والقى خطاباً هائلاً فيه فخامة رئيس الجمهورية واعضاء الحكومة بعبدي رأس السنة والجلالة وذكر الجهود المباركة التي بذلها ويبدلها فخامة اللبناني الأول في سبيل تحرير بلاده وايصالها الى المركز الممد لها بين الأمم الراقية . ثم شرب نخب المدعوين ونخب لبنان ودعا لفخامة الرئيس بالتوفيق والبركة . ورد عليه فخامة الرئيس بخطاب عدد فيه موقف البطريركية في مختلف الظروف والازمات من اجل الاستقلال ومساعبها للحصول عليه وأثنى على موقف غبطة البطريك الحالي الذي كان وما يزال غدو الاستعمار الاجني بمختلف ألوانه . الخ

استغلال الافرنسيين للطائفة في خططهم ومناوئتهم واثره في الطوائف الاسلامية

ولقد ظلت الدعاية الافرنسية المغربية التي أخذت تُبث في الدروز والشيعيين في العهد الفيصلي ضيقة نطاق الاستجابة طيلة قيام هذا العهد ، كما ظل نشاط هذه الدعاية واهتمامها موجهاً بقوة في الدرجة الأولى إلى الطوائف المسيحية وظلت الاستجابة اليها فيها بما يتسق مع الميول والرغائب والمطامح والذكريات لكل من الفريقين . غير أن انهدام العهد الفيصلي جعل الطوائف الاسلامية بما فيها المسلمون تقف أمام السلطات الافرنسية وجهاً لوجه دون أمل وسند .

ولقد استغلت هذه السلطات منذ البدء الطائفية في السكان وحرصت على تدعيمها لما تعرفه من التنافس والتناظر بينها منذ أمد بعيد ، فجعلت وظائف الحكومة ومراسمها واعتبارات الحياة العامة من مختلف مناحيها قائمة عليها ، وكان هذا من أشد الأعمال الافرنسية نكاية وبعد مدى في حياة لبنان والحركة العربية فيه . وقد قواه الافرنسيون في سكان لبنان ، فقوي قوة عجيبة حتى شغل الحيز الأول في النفوس ، لان فيه إرضاء شهوات ومطامع الافراد الذين يملأون عادة مبداء الحركة والحياة العامة في الامة العربية في معزل عن الشعب الغافل المستغل ، وكان من قوته أن البطرك الماروني جعل الاحتفاظ به واجباً لا مندوحة عنه لحفظ التوازن بين السكان ، ونادى به في كل مناسبة ودافع عنه بكل شدة هادفاً بهذا إلى الهدف الذي ذكرناه قبل وهو إبقاء صفة الاكثرية للطائفة المارونية وإبقاء المارونية صفة لرأس الدولة في لبنان .

فكان هذا وذلك مما اضطر أبناء الطوائف الاسلامية إلى مجازاة الموقف والاهتمام بأنصبتها في تلك الوظائف والمراسم والاعتبارات على الأساس الطائفي حفظاً لكيانها ومصالحها . واستجاب إلى هذا بنوع خاص المستوظفون والوجهاء وأصحاب الثروات والزعامات من أبناء هذه الطوائف الذين رأوا في هذا الأساس باباً وتوطيداً للوجاهة والكسب ، وغدت هذه الامور تشغل أفكارهم وتدفعهم إلى التزلف للسلطات من جهة وبث الدعوة بين أبناء طوائفهم إلى المطالبة بحقوقهم

وأنصبتهم من جهة أخرى .

وهكذا وجدت الدعاية والتوجيهات الافرنسية المغرية والاستعمارية معاً صداها في هذه الطوائف ، واستطاعت أن تثير فيها العصبية الطائفية ، وأن تكاد أن تجعلها تستغرق في اهوائها ومنافساتها ويرصد بعضها بعضاً ، وتفسد ما بينها من صلات الاخاء والتشارك في العواطف والمفهومـات الوطنية والقومية ، وكادت الروح القومية العربية أن تمتد بشيء من الفتور بين أنصارها الطبيعيين الذين اندمج كثير منهم في فكرة كيان لبناني مستقل والتمسك بها بل والدفاع عنها وكاد يغدو قصارى همهم الدفاع عن حقوق طوائفهم وكفالة مصالحهم ومنافعهم وكرامتهم في نطاقها الضيق .

- ٧ -

سير الافرنسيين في لبنانه كسبرهم في سوريا

ولم يكن سير الافرنسيين في لبنان ليختلف عنه في سوريا في العهد الانتدائي ، بل كان هنا أقوى أثراً وأبعد مدى وأبسر سيراً بسبب ما كان من الانسجام بينهم وبين أكتورية السكان ، وبسبب الطائفية المقيمة التي قووها وجعلوها عماد كل شيء ، وضمنوا بها أكثر رؤساء الطوائف وزعمائها ونابغها والطامحين فيها ؛ حتى أفد رأى بونسو أن يقول في تقريره أمام لجنة الانتدابات عام ١٩٣٠ إن لبنان راض عن نظام الانتداب ومندمج فيه وإن سوريا فقط هي التي ترفضه وإنه ليس هناك مشكلة من هذا النوع بين فرنسا ولبنان !

ولقد كان الموظفون الافرنسيون يملأون دوائر الحكومة اللبنانية ومصالحها فضلاً عن إدارتهم المباشرة للمصالح المشتركة بين سوريا ولبنان على ما ذكرناه في الباب الأول ؛ وكان المستشارون الافرنسيون أصحاب الشأن الأول في أعمال الحكومة ومشاريعها ومصالح أصحاب المصالح فيها ، وكان الموظفون الافرنسيون يتقاضون المرتبات والعلاوات الضخمة ، وكانت الرشاوى والمحسوبيات والشفاعات هي الوسائل الناجعة الى قضاء المصالح والمطالب ، وكان المندوب السامي هو

المشرع والمنفذ والمرجع الأول والآخر في كل أمر ، وقد اتخذ بيروت مركزاً دائماً وأحاط نفسه فيها بمظاهر السلطان الفخمة وابتنى قصرًا ذا حدائق غناء لا يقل في ابهته ومراسمه عن قصور الملوك ، وكانت الشفاعات والمحسوبيات والرشاوى تعمل عملها الناجع كذلك في دار المفوضية التي كانت تتدخل في كل شيء أيضاً حتى في تعيين صغار الموظفين بل والمحامين والنواب ، وغدا المصرف اللبناني السوري الذي أنشئ في بيروت وأخذ يصدر أوراق العملة قبل انهزام العهد الفيصلي كما غدت الشركات الفرنسية والمصالح الفرنسية والتجارة الفرنسية هي الحاكمة المسيطرة على اقتصاد لبنان وثروته ومشاريعه ، والمتمتعة بالامتيازات المتنوعة على حساب مصالح وشركات وتجارة لبنان وأهلها .

- ٨ -

أثر سوء الإدارة والاستغلال في اهل لبنان ومصالحهم وعواطفهم

ومن الجدير بالقيد أنه بالرغم مما قلناه من انسجام أكثرية سكان لبنان في الانتداب الفرنسي واندماجها في التوجيهات والتلقينات والدعائيات الفرنسية وإساعتها الحكم الفرنسي المباشر تقريباً بهدوء وسكون بل برضاء فإن ما كانت من تميز الاقتصاد الفرنسي وتأثيره في تعطيل مصالح أهل البلاد وشل صناعاتهم وتجاراتهم وشركاتهم أولاً وما كان من صلف الفرنسيين وحقهم وغلطتهم الشديدة الفظيعة ثانياً ، وما كان من سوء استغلال الموظفين الفرنسيين لمناصبهم وسلطانهم والاستغراق في رغبة الاثراء بأي طريق وإفترافهم بسبيل ذلك كل عسف وشذوذ ثالثاً ، أحدث رد فعل شديد في نفوس كثير من هذه الأثرية وحتى في نفوس كثير من الموارنة حيث أدرك الواعون من مختلف الطوائف نظرة الازدراء التي ينظر الفرنسيون بها الى الجميع ، واستخفافهم بهم وترغمهم عنهم ، وحيث رأوا أن تظاهر فرنسا بحب لبنان وأهله وإشادتها بتقاليدها فيه ودعائيتها الطويلة العريضة في صده لم يكن لسواد عيون لبنان وأهله وإنما كانت وسيلة لبسط السيطرة على لبنان وسائر بلاد الشام بطريقه وجعلها مجال فرنسا الاستعماري على حساب مصالحها

واقتصادياتها ، وأن الروح الاستعمارية والاستغلالية والمتغطرة هي المسيطرة على السياسة الافرنسية من جهة والمسيرة للافرنسيين كأشخاص واتتهم الفرصة من جهة اخرى .

ولقد قاسى أهل لبنان صغيره و كبيره من جراء ذلك الشيء الكثير من العنت والمهانة والارهاق وتعطيل المصالح واخفاق الشركات والصناعات المحلية فضلاً عن سوء الادارة وفساد الجهاز الحكومي وامتلائه بالمحاسبين والجواسيس والآلات والادوات الضارة المستغلة بدورها ، وسيطرة الرشوة على كل شأن من شؤون الناس مما أوجد فيهم تياراً من الاستياء والتذمر والحيرة والألم كانت تظهر آثاره في بعض الصحف غير المأجورة وفي بعض المناسبات ، كما كان من عطف كثير منهم على حركات سوريا الوطنية والثورية حتى خشي الافرنسيون عواقب ذلك فجردوا المسلمين السنين والشيعيين والدروز بما قد يوجد في ايديهم من سلاح أثناء الثورة السورية الكبرى ، وكما كان من حركات اهل المناطق المنضمة للبنان بسبيل الانضمام الى سوريا والمغالبة بالوحدة السورية على ما ذكرناه في مناسبات سابقة ، بل لقد كان بندمج في هذه الحركات أحياناً غير سكان هذه المناطق وغير مسلمين أي فئات من الطوائف النصرانية وخاصة الأرثوذكس ولم يكن يندر ان يكون بينها موارد وكاثوليك كما جرى في عام ١٩٣٦ بمناسبة حركة تجديد المعاهدة على أساس جديد استقلالي بعض الشيء اسوة بسوريا حيث اجتمع فريق من ناهي مختلف الطوائف في بيروت ومجثوا في ما آل اليه حال لبنان فأروا ان الوحدة السورية خير علاج لذلك . وقد سبق هذا حركة قوية في بيروت وصيدا وطرابلس الشام بالمطالبة بالوحدة السورية حينما اخذت السلطات الافرنسية تهيم وفدأ بإيهم وفد مفاوضة ليذهب الى باريس ويوقع على معاهدة الاستقلال أسوة بما تم لسوريا حيث رفع حملة الفكرة العربية وخاصة الطوائف الاسلامية اصواتهم بهذا الطلب وقامت المظاهرات الصاخبة احتجاجاً على اقضاء ممثلي المسلمين الحقيقيين عن الميدان وادخال بعض المنافقين المتزلفين لفرنسا منهم ، وأدت الى اشتباكات دموية في مدينتي صيدا وطرابلس وأضربت المدينتان إضراباً طويلاً استمر في طرابلس نحو ثلاثة اسابيع ، وكما جرى شيء من هذا في عام ١٩٤٠ حيث اتفق فريق من زعماء

الطوائف المختلفة على منهج وطني قومي عربي يهدف الى الاتحاد مع سوريا ثم مع الاقطار العربية الاخرى ، وكان هذا بمثابة نواة لانضمام لبنان الى جامعة الدول العربية ، ويمكن ان تعد حركة الحزب القومي السوري الذي سبقت الاشارة اليه والذي اندمج فيه كثير من شباب لبنان على اختلاف طوائفه وخاصة طوائفه النصرانية من هذا القبيل من ناحية ما، حيث كانت تهدف الى وحدة سوريا الطبيعية واستقلالها والتمرد بشكل من الاشكال على وضع لبنان وحالاته وعزله وفنائه في فرنسا ، وهذا غير الجمعيات اللبنانية العديدة او الجمعيات العربية او الجمعيات السورية التي كانت تضم رجالاً وزعماء ونابهن لبنانيين من مختلف الطوائف والتي كانت تبذل نشاطها خارج لبنان وفي مصر والمهاجر واوروباً ضد الاستعمار والانتداب الافرنسي والتصرفات الافرنسية وفي سبيل الاستقلال والوحدة السورية بما يدل على ان احرار لبنان الذين كانوا خارج نطاق السيطرة والتأثير كانوا استقاليين واتحاديين وقوميين .

- ٩ -

اسطال الحكم الوطني المزيف في لبنانه واستغاثتها وطوائفها

اما الحكم الوطني فقد كان لبنان وظل الى عهده الوطني عام ١٩٤٣ محروماً من حقيقته حتى حيناً اراد الافرنسيون ان يتظاهروا في مسايرة الرغبة فيه حيث كان مظاهرة لا اكثر ، يبقى فيه الافرنسيون اصحاب الشأن والسلطان الحقيقي. وكانت هذه الالوان من الحكم المزيف تقوم تبعاً لما يقوم من مثله في سوريا نتيجة للحركات والمطالب والثورات التي لم تكن تقف وان كانت تشد حيناً وتضعف حيناً ونتيجة كذلك لفكرة التجارب والحلول النقصية . فكان الافرنسيون كلما تراءى لهم اقامة شكل من اشكال الحكم المحلي اوكلما رأوا ضرورة او فائدة في التنفيس او المسايرة او التحذير واقاموا في سوريا شكلاً من اشكال الحكم المحلي او لوناً من الوان الحكم الوطني عمدوا الى اقامة مثله في لبنان قبله او عقبه . فحين أعلن لبنان الكبير جعلوا حاكمه العام وطنياً مارونياً على ما ذكرنا قبل

وكانوا أحدثوا قبل ذلك في سوريا نظام رئيس الدولة او الحاكم العام في دويلاتها . وحينما اعيد نظام الدولة السورية الموحدة ومجلس الوزارة الادارية بعد اخفاق تجربة التجزئة والدويلات قام مثل هذا النظام في لبنان ، وحينما أخذ بونسو يسير في خطواته في سبيل وضع دستور سوري عقب خمود الثورة الكبرى ، وقيام حكومه نيابية تتعاقد مع فرنسا لتحل المعاهدة محل الانتداب على ما كان يطالب به السوريون فعل مثل ذلك في لبنان فاصدر دستوراً له وأجرى انتخابات نيابية وقام نتيجة لذلك جمهورية لبنان الاولى ؛ مع التنبيه على أنه لم يرد ضرورة لانتخاب جمعية تأسيسية تضع الدستور كما كان الحال في سوريا حيث كان يستساغ في لبنان كل ما يفعله الافرنسيون دون اهتمام بالشكل والمبدأ ، حتى لقد احتوى دستور لبنان الافرنسي مواد عجيبة خلدت طابع الانتداب الافرنسي الصريح كما خلدت «مفة الطائفية وأساسيتها في توزيع الوظائف ، وكانت الراية التي تقررت في هذا العهد الراية الافرنسية وفي قرنة من قرنها الارزة بما ينطوي فيه ذلك الطابع الصريح المستساغ ، وقد نفذ دستور لبنان قراراً بما كان من انتخابات نيابية وقيام الجمهورية في حين طال الاخذ والرد بين بونسو وبين رجال سوريا في صدد الدستور ولم يصدر على الوجه المشوه الذي صدر إلا بعد سنتين ثم لم يطبق وتجرى وفاقه الانتخابات النيابية وتقوم الجمهورية السورية الاولى إلا بعد سنتين ثانيتين على ما ذكرناه في الباب الاول ، وما جرى ان الافرنسيين مع كل ما كان من استساغة لبنان لخطواتهم وسياساتهم تدخلوا في الانتخابات النيابية المذكورة تدخلا فظيماً بحيث لم ينبجج إلا مرشحوها ، وسقط غيرهم الذين لم يكونوا في عداد هؤلاء المرشحين بالرغم من أنهم ليسوا أعداءً أو مضادين لسياساتهم وتوجهاتهم .

ولما عرض على سوريا في عهد جمهوريتها الأولى عام ١٩٣٢ المعاهدة التي وضعت لتقوم مقام صك الانتداب والتي كان فيها الكثير من محتويات هذا الصك والالتزامات التي يفرضها عرض مثلها على لبنان حكومة ومجلساً فأقرت بدون عناء مع ما كان من رفض سوريا لها .

ولقد كان في مطلع هذا العهد حادث يدل على ما كان ينظر اليه الافرنسيون من نظرة الازدراء والسخرية والاستهتار إلى ما يقوم في لبنان من أوضاع دستورية

ويتخذ من قرارات نيابية وهو ان الشيخ محمد الجسر المسلم ولم يكن ضد الانتداب بل يصح أن يقال عنه انه من موالي فرنسا قد رشح نفسه في انتخابات رئاسة الجمهورية واستطاع أن ينال الاكثريّة ، فما كان من المندوب السامي إلاّ أن ألغى الانتخاب والمجلس النيابي والدستور معاً بجرّة فلم لأنه كان يتوخى أن يكون هذا المنصب لمسيحي ماروني ولم يكن الدستور ينص على ذلك ، ثم عدّل الدستور وجمّد الانتخابات النيابية بجرّة فلم كذلك وتدخل بصورة سافرة ومخجلة حتى تمّ انتخاب المرشح الذي أَرادَه !! .

ولما ثارت دمشق عام ١٩٣٥ وانتهى الأمر بالمعاهدة الجديدة التي قامت بها في سوريا الجمهورية الثانية والعهد الوطني عام ١٩٣٦ نتيجة لمفاوضات باريس جرى مثل هذا في لبنان حيث أرسل وفد الى باريس ووقع فيها على المعاهدة وقامت حكومة جديدة وجرّت انتخابات نيابية جديدة وأنوا بأميل اده هذه المرة رئيساً للجمهورية الثانية . ولما سحب المندوب السامي بيو المعاهدة السورية وأعلن عودته الى ممارسة صلاحياته الانتدابية فعل مثل ذلك في لبنان ، ولما انهارت فرنسا وأعيد شكل الوزارة في سوريا من قبل الجنرال داتز مثل فيشي جرى مثل ذلك في لبنان ، ولما قامت الجمهورية الثالثة الانتدابية في سوريا بعد الغزوة الديغولية الانكليزية عام ١٩٤١ قام مثلها في لبنان . وقد قام كاترو هنا أيضاً بجرّة استفتاء بهلوانية كما فعل في سوريا حيث عين بعدها الفرد نقاش رئيساً للجمهورية الثالثة وأعلن استقلال لبنان في حفلة عامة خطب فيها هو والرئيس نقاش ومن في خطابه على لبنان بمنحه الاستقلال من قبل فرنسا كما فعل في سوريا .

وبما جرى وفيه الدلالة كذلك على تلك النظرة أن كاترو حاول أن يظل يمارس السلطات الانتدابية في لبنان قائلاً إن فرنسا الحرة قد ورنّتها مع أن فرنسا الحرة لم تكن إلاّ حركة تحريرية تتمثل في لجنة ولم يكن قد اعترف بها كحكومة فرنسا الرسمية ، ومع أن كاترو صرح في خطابه الذي ألقاه في حفلة إعلان الاستقلال أن لبنان أصبح دولة مستقلة ذات سيادة . وقد احتج الرئيس النقاش على كاترو بسبب محاولته فما كان من هذا إلاّ أن أقاله وعين الدكتور ثابت محله !! وقد حاول هذا بتعريض الافرنسيين تكثير عدد النواب المسيحيين حتى يكونوا اكثرية كبيرة

مسيطرة فأثار فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين اشتد التوتر بين الطائفتين بسببها وكاد يقع وقائع أليمة لولا تدخل الإنكليز وحسمهم الموقف بحل وسط بما حمل الدكتور ثابت على الانسحاب فحل محله بترو طراد .

وهكذا يصح أن يقال إن ما كان يجري في لبنان من تجارب الحكم وما أقيم فيه من ألوان وطنية لهذا الحكم على ما كانت عليه من زيف إنما كان تبعاً لما كان يجري في سوريا و كنتيجة للحركات والمطالبات والثورات الوطنية التي لم تكن تقف فيها ، ومكافأة على هدره لبنان وانسجامه وبالأصح انسجام أكثريته مع فرنسا وعدم اندماجه بما كان يقوم في سوريا من تلك الأعمال التي كان الافرنسيون يسمونها أعمال شعب من عناصر شعب . حيث لم ير هؤلاء من المنطق ان يقوم في سوريا نتيجة لهذه الأعمال لون من الحكم الوطني ولا يقوم مثله في لبنان المهادي العاقل المنسجم .

وباستثناء ما ذكرناه قبل قليل من موقف الرئيس النقاش عام ١٩٤١ وجراًة الشيخ الجسر على ترشيح نفسه في دور الدستور الأول ١٩٢٨ ثم باستثناء ما كان يقوم في الأوساط الاسلامية والمدن الاسلامية المنضمة الى لبنان بالرغم منها من حركات احتجاجية تصل أحياناً الى حد الثورة على نطاق ضيق بما ذكرناه سابقاً فإنه لم يكذب يقع في لبنان وتعبير أصح من قبل جمهرة النصارى وموارنتهم أي رد فعل حيوي له صلة بالأهداف والمبادئ الوطنية الاستقلالية لكل ما كان يقوم من تجارب في الحكم تصل أحياناً الى الحكم الافرنسي المباشر ممثلاً في حاكم افرنسي عام أو يجري فيه من تبديل وتغيير وإلغاء كما كان يقع في سوريا ، فقد كانت يستساغ كل ما يقع كأنه شأن عادي يقع في حدود أوضاع دستورية موطبة ، وكان يوافق على كل ما يقترح وبطلب وقد رأينا أنه لما طلب من مجلس لبنان التمثيلي عام ١٩٢٣ إقرار توسيد منصب الحاكم العام للقومندان ترابو وافق على ذلك دون ما عناء . بل لقد وقع حادث عكسي طريف حيث تأمر فريق من النصارى بزعامة شخص اسمه الدكتور شلفوت ضد عهد المعاهدة الاستقلالية عام ١٩٣٦ - ١٩٣٨ هادفاً إلغاء هذا العهد وقيام حكم افرنسي مباشر في لبنان ! وكان ذلك في أوائل عام ١٩٣٨ حيث خطا الدكتور ورفاقه خطواتهم الأولى



صاحب الفخامة الشيخ بشاره الحوري
رئيس الجمهورية اللبنانية



رياض الصلح يلقي بيانه الوزاري الاول



عرض عسكري في العهد الوطني بلبنان

بحركة تختم مضابط تطالب بذلك ، ثم خطوا خطواتهم الثانية بعد قليل لتحقيق هذا الهدف بالقوة ، وكان عدد المتآمرين نحو ثلاثة آلاف مزودين بالسلاح والعنصر ، وكانت خطتهم احتلال دوائر الحكومة واعتقال الوزراء والنواب وإعلان إلغاء الحكم الوطني وعدم رضاء لبنان عنه وتفضيله الحكم الافرنسي المباشر عليه . غير ان الحكومة اكتشفت الحركة قبل نضوجها واستطاعت أن تقضي عليها في ١٧ مايس ١٩٣٨ حيث اغتلت الدكتور وعدداً كبيراً من المتآمرين معه وصادرت ما لديهم من أسلحة ووثائق . وهذا من عجائب الحوادث الأليمة التي كانت نتيجة لدعايات فرنسا وتغلغلها في لبنان والتي انقلبت بها المناهج أبشع انقلاب وأغربه .. ومن تمام العجب المؤيد لما قلناه قبل قليل من أن حركة شلقون في تختم المضابط كانت تجري مكشوفة وتذكر في الصحف ويتحدث عنها في المجالس دون مسا غضاة ولا سخط ، كأنه لم يكن حكم استقلالي وطني قائم ، وكأنه لم يكن في مفهومات الاكثوية اللبنانية في هذا الوقت أي فارق كبير بين قيام حكم وطني استقلالي يقوم على معاهدة وبين حكم افرنسي مباشر ، وكأن الثورة في سبيل هذا ضد ذلك يصح أن تكون من الأعمال الوطنية أو السائغة في حوصلة هذه الجمهرة ...

وبما لا ريب فيه أن هذه الحركة لم تكن لتخلو من أصابع افرنسية بدليل الهدف والكثرة والسلاح والحركة الجهرية الاولى . والراجح أنها كانت من قبيل ما كان الموظفون الافرنسيون يقومون به في سوريا من مختلف الدسائس اللثيمة لاجباط العهد الوطني بما كان من جملة تخويف الدروز والعلميين ونصارى الجزيرة من العهد الاستقلالي وتشجيعهم على التمرد عليه بل ودفع عناصر الشعب منهم الى استعمال السلاح ضد ممثليه وموظفيه وفاقا لخطة عامة مرسومة في باريس من قبل الأوساط الاستعمارية والعسكرية التي كانت ضد قيام عهد المعاهدة على الأساس الذي قام عليه على ما ذكرناه في الباب السابق ، مع ما كان من فارق عظيم بين سوريا ولبنان ، حيث كان على رأس عهد لبنان أصدقاء فرنسا والقانون فيها الذين يرون فيها الأم الحنون الحامية التي لا يمكن الاستغناء عنها في أي حال ، وحيث ظل ممثلوها يتمتعون كذلك بكل ما يتمتعون به من جاه ومال وسلطان وأمر ونهي دون ما تشاد ولا غناء ولا نجهم ولا اعتراض .

ولكن الطبيعة الاستعمارية والاستغلالية الافرنسية كانت أشد تغلفاً في الافرنسيين من ملاحظة ذلك وحملهم على هضم التخلي عن السيطرة الشاملة ولو في الظاهر ...

سير الافرنسيين في لبنانه مثله في سوريا

هذا، ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن كل ما كان في سوريا من الافرنسيين في عهد الانتداب ثم في أثناء الحرب الى قيام العهد الوطني الثاني من سوء استعمال وسوء استغلال ومطاردة من يوصفون بأعداء فرنسا وملء المعتقلات بهم أثناء الحرب وتشريد باقيهم قد جرى مثله في لبنان . وقد اشترك الانكليز الذين غزوا لبنان وسوريا مع الديغوليين في هذه المطاردة والاعتقالات والتشريدات في لبنان كما اشتركوا فيها في سوريا ، ولا نرى حاجة الى الافاضة فيه هنا مكتفين بما قلناه فيه في الباب الاول .



الفصل الثاني

العهد الوطني

١٩٤٣ - ١٩٤٦

- ١ -

الحياة النيابية الجديدة وابتداء العهد الوطني الاول

ان العهد الذي يصح ان يسمى عهداً وطنياً في لبنان قد قام في عام ١٩٤٣ كما قام مثيله في سوريا وبنفس العوامل والخطوات التي انتجته هناك ، حيث تقرر بالتفاهم بين الانكليز والافرنسيين او بالأحرى بضغط الانكليز بالنسبة للبنان خاصة تحقيقاً لتصاريجهم عن غاية الحرب التحريرية اعادة الحياة النيابية الدستورية وامناع لبنان وسوريا باستقلالهما وسيادتهما ، وقد جرت الانتخابات في منتصف عام ١٩٤٣ وبعد قليل من انتخابات سوريا جريا على العادة في متابعة لبنان لخطوات سوريا في احداثه . وقد كانت روح الجو والظروف التي املت هذه الخطوة مشجعة ، وكانت دعوة العروبة قوية الصوت في البلاد العربية والمشاورات في سبيل الوحدة العربية جارية في مصر فأفاد كل هذا انصار العروبة والاستقلال في لبنان وامدم حيوية ، وكان مـ ـ ـ ـ نتائج ذلك ان فاز في الانتخابات الشيخ بشارة الحوري ورباض الصلح وفريق كبير من جماعاتهم الذين كانوا يستشعرون بمعنى الحرية والاستقلال الصحيح والفكرة العربية قليلاً او كثيراً بالرغم عن مابذله الافرنسيون من جهود وتوسلوا به من وسائل متنوعة من رشاء وارهاب واغراء ودس في سبيل فوز انصارهم لضمان استمرار الحال في لبنان على الاقل على ما يرغبون ، ولقد أساءتهم النتائج الى درجة كبيرة واتهموا الانكليز بها .

الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح على رأس العهد وأثر ذلك على الافرنسيين

واشتد استيائهم وحققهم بل وتشاؤمهم حيناً تم انتخاب الشيخ بشارة رئيساً للجمهورية التي تعد في سلسلة العدد الجمهورية الرابعة ، واختيار هذا رياض الصلح رئيساً للوزراء ، فقد كان رياض بمثابة الرمز الاول للحركة العربية في لبنان ومن رجالها القديمين الذين ناضلوا نضالاً متصلاً مدى ثلاثين عاماً في سبيلها وقضى اكثر مدة العهود الانتدابية مشرداً يناضل ويكافح في اوروبا ومصر والبلاد العربية الاخرى ، وكان الافرنسيون يعدونه عدوهم الاول ، وكان له ضلع في حادث قرار مجلس ادارة لبنان عام ١٩٢٠ ومحاولة فرار اعضائه الذين وقعوا القرار ، وهو الحادث الذي اثار الافرنسيين ايما اثاره اذ كان يعني تمرد لبنان الممثل في مجلس ادارته على الانتداب الافرنسي ، وكان ذلك في شهر ايلول من عام ١٩٤٣

حيوية الحركة العربية في هذا العهد

ولقد كان العهد الجديد فاتحة خير للحركة العربية في لبنان حيث اخذ انصارها يتنفسون الصعداء ويستعيدون حيويتهم وآمالهم ونشاطهم ، واخذت الصحف التي يدبرونها تدعو الى تدعيم العهد الجديد ومناصرته ليسير قدماً في توطيد حرية لبنان واستقلاله وخلصه من الكابوس الاستعماري الافرنسي الشديد الذي جثم على صدره والذي كاد ان ينطبع بطابع الخلود فيه ، واطهار وجهه العربي الذي يمثله في الحقيقة اكثر من نصف سكانه .

وقد صدف ان كانت دعوة العروبة في هذا الظرف تشتد قوة وصوتا والآمال تتضاعف في مستقبلها والمشاورات في سبيل الوحدة العربية تجري في مصر فزاد هذا في حيوية العهد الجديد وقوته وآماله .

- ٢ -

توطيد الاستقلال وتعميق الدستور وعروبة لبنان في هذا العهد

ولقد كان من اهم ما اهتم له رئيس الوزارة ازالة كل ما يناقض استقلال لبنان

وسيادته . وقد اعلن رئيس الوزارة في البيان الوزاري الذي القاه في مجلس النواب في ١٧ ايلول من عام ١٩٤٣ عزم وزارته على توطيد استقلال لبنان وسيادته الكاملة ، ونيته في تعديل الدستور ورفع المواد التي تتناقض مع ذلك ، وحمل حملة شديدة على الطائفية وذهنيته ، واعلن عزمه كذلك على العمل على توطيد بنيان امة والقضاء على هذه الذهنية ، وقال ان لبنان متمسك بمجوده واستقلال كيانه ، وانه على هذا الاساس عربي يمت الى العروبة بأوثق المظاهر والصفات ، وانه يجب ان يتعاون مع شقيقاته اشد التعاون على ذلك الاساس ، وانه يعتقد ان هذه الشقائى تريد فقط ان لا يكون لبنان مقراً للاستعمار ولا ممرآ له ، وانه سيحقق هذه الرغبة فيوطد للبنان عزته وكرامته ، وانذركل موظف يسير على ما كان يسير عليه بمحدد مرجعية غير مرجعية الحكومة اللبنانية وتلقي وحيه من غيرها ، وواجب استعمال اللغة العربية وحدها في مصالح الحكومة ، وقطع على نفسه عهداً بتنفيذ هذا المنهج وعدم البقاء في الدست اذا ما ظهر له استحالة ذلك . فقول البيان بالهتاف الطويل من اعضاء مجلس النواب الذين كانت اكثريتهم مسيحية ، وكان نواب الموارنة منهم اكثر نواب الطوائف الاخرى عدداً ، كما شارك آلاف المستمعين في داخل البرلمان وخارجه في هذا الهتاف وسطر عاصفة من الحماس والابتهاج والاغبط ، ونالت الوزارة ثقة تكاد ان تكون اجماعية على اساسه ، حيث لم يشذ عن ذلك الا اميل اده صاحب فكرة الوطن القومي المسيحي اللبناني والقاني في السياسة الافرنسية .

براعة رياض في يانه وأثرها

ولقد كان رياض بارعاً في إعلائه تمسكه بمجود لبنان وكيانه وتعاونه مع الاقطار العربية الاخرى بصفته قطراً عربياً على هذا الأساس ؛ حيث ارضى غير المتعصبين من عقلاء النصارى وخاصة موارنتهم الذين كان اشد ما يحشونه من الحركة العربية ان يندمج لبنان في وحدة سورية او وحدة عربية فيفقدوا شخصيتهم ويعودوا اقلية مهيضة كما كانوا في عهد الدولة العثمانية . وقد حرصت الدعاية الافرنسية على

بث الخوف الدائم من هذه الناحية خاصة وتصويرهم العرب والاسلام الذي يابن به
 اكثرية العرب العظمى لهم بعبهم الاكبر ليضمنوا تمسكهم بهم وفنائهم فيهم
 وتطلعهم الى فرنسا كحامية لهم ؛ كما كانوا يخشون أن تؤدي قوة الحركة العربية
 الى انسلاخ المناطق الواسعة التي ضمت الى لبنان القديم فيعود صغيراً لا يستطيع ان
 يقوم بأوده ولا تكون له إمكانية ما إلى الحياة بمفرده ، على ما ذكرناه في مناسبة
 سابقة . ونقول استطراداً ان رجال الحركة العربية قد لمسوا هذه النقطة الحساسة
 فيهم وسهولة نفوذ الدعاية الافرنسية منها اليهم فقرروا منذ البدء مراعاتها ، وكان
 أول تسجيل رسمي منهم لها في قرارات المؤتمر السوري العام سنة ١٩١٩ حيث
 قالوا ان للبنان الحق في اختيار شكل الحكم الذي يرغب فيه شريطة ان يكون في
 منأى عن الاستعمار ؛ ثم ظلوا يراعونها في كل مناسبة ، وآخر ما كان من هذا ميثاق
 جامعة الدول العربية الذي الحق به ملحق خاص بلبنان بسبيل تأكيد احترام كيان
 لبنان وحدوده . كذلك فان رياضاً في براعته ارضى أنصار العربوة لأن المهم عندهم
 ان يظهر وجه لبنان العربي وأن يندمج في الحركة العربية العامة ، وأن يكون
 في منأى عن الاستعمار الافرنسي .

ولقد كان البيان الذي كان بطبيعة الحال بالتطابق مع رئيس الجمهورية الماروني
 وأعضاء الوزارة الذين ينتسبون الى مختلف الطوائف والمقابلة الحارة التي قوبل بها
 من النواب والشعب مفاجأة عظمى للعالم العربي الذي كان يرى في لبنان المعصم
 المنيع لفرنسا وسلطانها الاستعماري في الشرق العربي ، واعلاناً صارخاً لتمرد ممثلي
 الطوائف اللبنانية على هذا السلطان الذي استهتر طيلة خمس وعشرين عاماً بمصالح
 لبنان وكرامة اهله وخدعهم بالتصليب لمآربه وجشعه واستغلاله ، وبرهاناً
 على ما كان من تطور في الأفكار اللبنانية ، وصدى لما بدا من النشاط العربي
 ومشاورات القاهرة في سبيل الوحدة او الاتحاد العربي والآمال القومية العربية .

موقف الافرنسيين منه التعديل وعدم اعراؤهم بالواقع

ولقد كان ينبغي أن يرى الافرنسيون وقد اصبحوا يمثلون حركة التحرير
 الافرنسية هذا الامر طبيعياً ، واثراً من آثار تطور العالم وهاثفات الحرب

والاستقلال وحقوق الشعوب المستضعفة وقصد حماية العالم من ديكتاتور النازيين والفاشين التي ظل الحلفاء يهتفون بها اربع سنين طويلة ، وان يرحبوا به ؛ ولا سيما انهم أعلنوا بالاتفاق مع بريطانيا ان هدف الغزو الجديد هو تحرير بلاد الشام ومنح سوريا ولبنان استقلالهما وسيادتهما ، وانهم يمثلون فرنسا الحرة متمردين على استسلام فرنسا وخضوعها للامان ووقوعها تحت سناجهم لتشرب من ايديهم كأس المهانة والاحتلال ، وانهم اضطلعوا بقيادة حركة النضال في سبيل انقاذها ، وان يدركوا ان تلك المواد اذا ساغ ان تكون في دستور وضع في ظل الانتداب الرسمي القائم فان من الطبيعي ان لا تبقى في العهد الاستقلالي الجديد الذي لم يبق للانتداب الرسمي فيه قائمة ، ولكن الروح الاستعمارية المتعسفة المتغلغلة فيهم لم تكن لتهم هذا ، ورأوا في البيان الوزاري وما قوبل به من حماس وترحيب في داخل المجلس وخارجه مفاجأة عظمي لهم ، ومحاولة لزلزلة سلطانهم الاستعماري الذي ظنوه منبعاً خالداً قوي الاساس في لبنان واللبنانيين على الاقل ، واعتبروا ذلك حركة من حركات رياض الصلح عدوهم الأول فحسب ، وظنوا أنهم إذا أعلنوا معارضتهم لها حولوا الناس عن موقفهم وجردوا رياضاً من التأييد فأذاع هيللو مندوب لجنة التحرير الفرنسية الديغولية التي كانت اتخذت الجزائر مركزاً لها بياناً تحذيرياً قال فيه مغالطاً ان الدستور اللبناني بمثابة عقد بين طرفين لا يحق لطرف ان ينفرد في تعديله وان النصوص المراد تعديلها تنطوي على ماعلى فرنسا من التزامات انتدابية موكولة لها من عصبة الامم لا يمكنها التخلي عنها، وان احترام العقود أساس استقلال الامم وكرامتها، وانه واثق من أن اللبنانيين سيتروون في اتخاذ اي خطوة تتناقض مع ذلك ، فرد رياض عليه مذكراً ان في الدستور مادة صريحة تجعل لمجلس النواب الحق في التعديل

التعديلات الدستورية المقترحة

ثم قدم مشروع التعديل الى المجلس . وكان يتضمن الغاء خمس مواد لا يمكن أن تأتلف مع أي معنى من معاني الاستقلال والسيادة وتهدف الى تخليد طابع الانتداب وسultan الدولة المنتدبة بما لا يعقل أن يرد في صلب دستور الدولة ، وبما

يدل في الوقت ذاته على نظرة السخرية والازدراء التي ينظر بها الافرنسيون الى الأوضاع الدستورية وأشكال الحكم الوطني في لبنان وعلى روح الفطسة والسيطرة المتغلغلة فيهم ؛ وكان يتضمن كذلك تعديل خمس مواد اخرى تعديلاً يكفل ذلك المعنى ويرفع القيود التي قيدت بها صلاحيات رئيس الجمهورية ، ويجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة . وهذه هي المواد الخمس التي اقترح الغاؤها :

المادة (٩) ان الاحكام المقررة في هذا الدستور يعمل بها مع الاحتفاظ بما للدولة المنتدبة من الحقوق والواجبات الناتجة عن المادة (٢٢) من عهد جمعية الامم وعن صك الانتداب .

المادة (٩٢) تؤكد الجمهورية اللبنانية في هذا الدستور حسن قصدها في المحافظة على روح السلام والوفاق مع الدول الاخرى وخصوصاً الدول المجاورة الواقعة ضمن نطاق الانتداب الفرنسي التي يرغب لبنان في توفيق عرى الولاة معها في جو هادئ من الوثام على شرط المعاملة بالمثل .

المادة (٩٣) تتعهد الجمهورية اللبنانية بمقتضى هذا الدستور تعهداً رسمياً أن تحكم الدولة المنتدبة بتسوية الخلافات التي من شأنها أن تعكر جو الامن بينها وبين جيرانها وكل الدول الاخرى الراغبة في الاتفاق معها على ان تتضمن هذه الاتفاقات نصاً صريحاً يقضي بالزام الدول المتعاقدة بالتحكيم الاجباري في كل خلاف .

المادة (٩٤) تتفق الحكومة اللبنانية في ما بعد مع ممثل الدولة المنتدبة على إنشاء وكالة لبنانية في باريس ووظائف ملحقين لبنانيين بدور الاعتماد السياسية والقنصليات الفرنسية في البلاد الأجنبية حيث تدعو الحاجة الى ذلك بالنسبة الى عدد اللبنانيين المقيمين فيها . وتبذل الحكومة الفرنسية كل ما في وسعها في سبيل توثيق العرى التي تربط اللبنانيين المهاجرين بوطنهم الاصلي .

أما المواد المقترحة تعديلها في (٣٥٢ و ٣٥٣ و ٣٥٤) حيث رفع منها عبارات الدولة المنتدبة وصك الانتداب كما رفعت القيود التي قيدت رئيس الجمهورية في

المفاوضات في عقد المعاهدات الدولية وإبرامها، وأوجبت على رئيس الجمهورية عرض المعاهدات المتعلقة بالمسائل المالية والتجارية الملزمة على المجلس وحيث رفع الإيجاب اعتبار اللغة الافرنسية لغة رسمية ثانية وجعل استعمال هذه اللغة منوطاً بقانونت يحدد الاحوال التي تستعمل فيها .

ومن الجدير بالذكر أن الدستور السوري لم يكن فيه مثل هذه المواد الانتدابية ولم يدخل فيه الاّ ما يتصل بكيان الدولة ونظامها وفاقاً لدساتير الدول لأنه من وضع الجمعية التأسيسية ، وإن كان بنسوق الحق به المادة السادسة عشرة وأدخل على بعض مواد التعديلات على ما ذكرناه في مناسبه، في حين أن الدستور اللبناني هو من وضع الافرنسيين فقط قبله اللبنانيون أو قبلوه كما كانوا يتقبلون كل ما يعرضه الافرنسيون دون تشاد ولا عناء، ولهذا كانت مغالطة هيللو مفضحة حيناً قال ان الدستور عقديين طرفين .. ولكن الافرنسيين لم يكونوا ليالوا بمثل هذه النقائص، ولا بما هو أخطر منها... وقد قرر المجلس النيابي النظر في التعديل على وجه الاستعجال بالرغم من محاولة اميل اده بالتأجيل ، وكان جو لبنان قد توتر من الموقف المتجهم الانذاري الذي وقفه المندوب الافرنسي باسم لجنة التحرير فزاد هذا التوتر من حماس المجلس الذي أقر التعديل بالاجماع تقريباً ووسط مظاهرة حماس بالغة ، وانسحب إده ورفيقه قبل التصويت ، وخطب فريق من النواب يمثلون مختلف الطوائف الاسلامية والمسيحية في سياق التصديق خطباً قوية في صدد الاستقلال والسيادة والعروبة .

- ٣ -

اغتيال رئيسي الجمهورية والوزارة ورفاقهم

وقد كان هيللو سافر الى الجزائر لبحث الموقف مع اللجنة وعلم بما تم فعاد مسرعاً ليحول دون نشر قرار التعديل في الصحف ؛ وفي صباح اليوم التالي أي بتاريخ ١١ تشرين الثاني من سنة ١٩٤٣ الباكر ؛ وكان هذا اليوم يوم ذكرى الهدنة وكان الافرنسيون دعوا إلى حفلة استعراضية بمناسبةها ، ارسل قوة فاعتقلت رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ورئيس مجلس النواب وبعض الوزراء والنواب الآخرين ، وبعث بهم مخفورين إلى قلعة راشيا رغماً عن وعده لوزير بريطانيا

المفوض الذي شعر بالجو المتكهرب بشرفه انه لن يفعل شيئاً مثيلاً ، وأصدر قراراً بأقالة رئيس الجمهورية والوزارة وحل مجلس النواب وتعيين إدارته رئيساً للدولة، وقال إن التدابير المتخذة هي للوقوف امام مؤامرة عداوية ضد فرنسا، وإنه لا خوف على استقلال لبنان وسيادته ... وهذا هو ما أراد الافرنسيون ان يسيغوه من معنى الاستقلال والسيادة للبنان وسوريا . فاعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة والوزراء والنواب واقالتهم وحل مجلس النواب من قبل موظف افرنسي ليس من شأنه أن يتعارض مع الاستقلال والسيادة ! . وقبل اداء المنصب وأصدر بلاغاً طلب فيه الاخلاص للسكينة وهدد من يحاول الاخلال بالامن بالعقاب الشديد !

وقبل يوم الاعتقال أعلن هيلو الحكومة اللبنانية سحبه دعوتها الى حفلة الاستعراض المنوي إقامتها في اليوم التالي باستثناء رئيس الجمهورية ولكن هذا اعلته رفض دعوته فلم يسمع وزراء الدول الحليفة إلا بإعلانه رفض الدعوة . وكان هذا بما زاد في توتر الجو واشعر الوزير البريطاني بشيء مثير مبيت حاول هيلو تطمينه بنفيه اثلا ينسد له تدبيره وأقسم له على ذلك بشرفه الكريم !

ولقد استعملت القوة التي ذهبت للاعتقال وكان يقودها ضباط افرنسيون كل مظاهر الاعانة والارهاب والتشفي مع رجال الدولة حيث دخلوا عليهم في غرف نومهم التي كان بعض الزوجات يشاركن أزواجهن فيها ، وحيث كسروا الابواب والشبابيك ومزقوا الستائر عن بعضها ، وحيث كانوا يدفعون رئيس الجمهورية دفعا شديداً ويشتمونه ناعتين إياه بالرجل الوضع ، وحيث لكموا عبد الحميد كرامي لكلمات عديدة واعتقلوه بتياب نومه ، بما يدل على شدة الغبط الذي استولى على السلطات الفرنسية وروح الحقد والصلف المتغلغلة في نفوسهم .

انفجار الشعب صهر أثر الحوادث

ولم يكد القرار يذاع ويعرف الناس بأمر الاعتقالات حتى انفجر الهياج في لبنان كشرارة مست برميل البارود . فقامت المظاهرات واعلن الاضراب العام

في بيروت ثم عم لبنان وأنزل الافرنسيون فصائل السنغاليين للشوارع كما سيروا فيها الدبابات لارهاب الناس ، فأخذت الاشتباكات تقع بين الاهلين وبين القوات الافرنسية السنغالية، واستشهد وجرح عدد كبير من الناس بينهم عدد من الاطفال دبسوا بالدبابات دوسا اندفاعا بما اعتاد الافرنسيون تكراره في مثل هذه الفرص من أن السوريين واللبنانيين كلاب يجب أن قداس ، كما اعتقل عدد كبير من مختلف الطوائف في بيروت وطرابلس وصيدا خاصة ، وتوترت الاعصاب وتوتراً شديداً ، واجتمع فريق من النواب مع الوزراء الذين لم يعتقلوا وقرروا تأليف حكومة طوارئ وطنية ، تمثلت فيها الطوائف ، كما عين نائب عن رئيس الجمهورية وأخذت الحكومة التي اتخذت بشامون احدى قرى الجبل المنبوعة مقرّاً لها تصدر البلاغات للموظفين وتذرم بعدم اعتبار حكومة إذه والتمرد عليها ، واستجاب الى نداءها جمهرة الموظفين فانشلت حكومة إذه الذي لم يستطع أن يجد من يتعاون معه في تشكيل حكومة رئيسية أو وزارة ، وشرعت في اتخاذ التدابير للنضال الوطني ، وبدأت تشكل بعض العصابات المسلحة ويقع بعض اصطدامات بينها وبين قوى الافرنسيين ، واحتج البطريرك الماروني والبطاركة الآخرون ورؤساء الدين الاسلامي على العدوان ، وأعلنوا تضامن المسلمين والنصارى في الموقف، واتفقت منظمتا النجادة الاسلامية والكتائب النصرانية - وهما منظمتان كشفيتان من جهة وتشته بعض التشكيلات العسكرية الحزبية من جهة اخرى - على الاندماج في بعض ، وذهب المسلمون للمساجد لصلاة الجمعة فحاولت السلطات منهم لثلاثين مخرجوا بالمظاهرات فاقتحموا النطاق ووقف شباب النصارى يحرسون الأبواب، واتحدت الصحف الاسلامية والنصرانية في الحملات القارعة ضد الافرنسيين، واحتج وزراء الدول المفوضون احتجاجاً شديداً على البغي وخاصة على رئيس الدولة الذي هم مفوضون لديه وأخذوا يجتمعون حول الوزير البريطاني سبيرس لمعالجة الموقف. وكان في ما جرى مظاهرة نسائية اشتركت فيها نساء مختلف الطوائف فأثار هذا الافرنسيين حتى صوبوا عليهم النار ، وقد هتفت بهن احدهن قائلة انه الأجدر بهم ان يظهروا بطولتهم في انقاذ فرنسا المهينة التي ترسف تحت ذل الالمان واحتلالهم بدلاً من اظهارها أمام نساء لبنان وشعب لبنان الاعزل من السلاح القليل الضعيف الذي لم يفعل شيئاً إلا انه أراد حريته واستقلاله ...

ولادة لبنان العربي

وهكذا ولد لبنان ولادة عربية وطنية نضالية رائعة ولو انها تأخرت والتحق بقافلة النضال العربي في سبيل اهداف الحركة العربية من الاستقلال والسيادة ، وضد المستعمرين وأساليبهم الباغية وتزلزلت من تحت اقدام الأمم الحنون ارض كانت تظنها أرضها المستقرة ، ووقفت تتمرد عليها امة كانت تظن انها من لحمها ودمها ، ونصت الصبغة الافرنسية المموهة وظهرت صبغة لبنان العربية الطبيعية بفضل حق الافرنسيين وروحهم الاستغلالية المتغطسة وعمائتهم عن وزن الامور والظروف ...

وقد احيط أميل اده الذي وقف شاذاً بجو من الارهاب حتى انه لم يكن ينتقل بين دار الحكومة وبينه الاتحت الحراسة الشديدة ، وقد اطلق الرصاص على موكبهِ اكثر من مرة كما القيت على بيته عدة قنابل ..

- ٤ -

أثر العرواح في الامة العربية ونضالها الرابع

ولقد كان للحادث رد فعل شديد وسريع في البلاد العربية ، فأعلن الاضراب العام في المدن السورية والفلسطينية والعراقية والأردنية ، وقامت المظاهرات الصاخبة فيها ، واستدعى الملك فاروق وزراء اميركا وانكلترا وحدثها في الأمر منذراً طالباً الوقوف من بغي فرنسا موقف الحزم المناسب مع هتافات الحرية والاستقلال ومبادئ ميثاق الاطلنطي التي بشروا العالم وخاصة الشعوب الصغيرة بها ، وحملت الصحافة المصرية حملات قارعة ، وكتب بعض الكتاب البارزين والمعروفين بحب فرنسا وتشبعهم بروحها وثقافتها قطعاً تقريرية لازعة ، وقد جاء في قطعة لتوفيق الحكيم مثلاً: خاب أملي في فرنسا انا الذي احب ثقافتها ونشردعوها وصدق كلامها في الحرية والمساواة والاخاء ، انا الذي بكى لحنيتها وتفجع لنكبتها وظن ان الحرية الانسانية انهارت بانهارها وأن العدالة البشرية اندكت بتحطيم

جيشها . هل كان يحظر لنا على بال ان في هذا الجيش بقية من حمية تهب يوماً لا لكي تطرد من ارضها العدو المغير بل لتطأ بأقدامها استقلال شعب صغير ! بأي حق تتحدث فرنسا بعد اليوم عن حريتها وحرية الشعوب ؟ وبأي صفة تطالب الحلفاء بمقعد في هيئة الامم المشرفة على تحقيق العدالة الدولية ، من ذا يتطلع بعد اليوم الى فرنسا الرافعة علم الحريات ؟ لقد قدمت فرنسا الدليل على انها فقدت روحها القديم الذي جذب اليها الافئدة ! لقد ماتت في فرنسا تلك المعاني الرائعة التي نثرت سمات الامل في النفوس (١) ! واثكلناه عليك يا فرنسا ! إن فجيعة فيك اليوم يوم انهارك لتضائل الى جانب فجيعة فيك اليوم وانت تحنقين بيديك الواهنتين المرتعشتين حرية شعب ضعيف ناهض ! وارسلت هيئات مصر وشخصياتها البارزة احتجاجاً جاثماً ورفعت اصوات استنكارها ، وارسل الملك فاروق برقية عظيمة مملئة بالعواطف والتشجيع الى الشيخ بشاره لتقوم مقام مهمة بعثة التهنئة على رأسه التي كانت مزمعة على الرحلة الى بيروت من قبله ، وقد جاء فيها فيما جاء : ولا شك في ان شعب لبنان يتمتع باستقلاله وانه بالغ في ظل الحرية والعدالة والشرف ما هو جدير به من سيادة ومجد . ولست في حاجة الى ان أوءد كد لفخامتكم ان الشعب اللبناني يستطيع ان يعتمد على صداقتنا وصداقة حكومتنا وشعبنا في ساعات الشدة والخرج ، ففي هذه الساعات وبها تتأكد العواطف وتتمكن المحبة . ان الساعات تمر بالشعوب وتمضي وتبقى الشعوب برجالها وسبقى شعب لبنان .. » وارسل رئيس الوزارة المصرية وكا : التحاس باشا برقيات احتجاجية شديدة الى انكلترا واميركا وفرنسا ، وكانت برقية للجنرال ديغول لاذعة التقرير ، واعلن البرلمان المصري استنكاره الشديد ، وصدف افتتاح هذا البرلمان في هذا الظرف فدخلت قضية لبنان في خطاب العرش معلناً فيه الاستنكار والتضامن . ومثل هذا جرى في العراق وفي سوريا ، حيث حدثت وصي العراق ورئيس سوريا وزيري بريطانيا واميركا ، وحيث احتجت الحكومات احتجاجات شديدة ، وحيث حملت الصحافة حملات قارعة ، وحيث شارك البرلمان السوري والعراقي الحكومة والشعب في الاحتجاج والاستنكار والتضامن .

(١) وفي هذا الكلام اثر من آثار اسطورة نصر فرنسا لحرية الشعوب وغفلة عن الدلائل التي قدمتها فرنسا المرة بعد المرة على انها في خارج فرنسا باغية ظالمة استعمارية عدوة للحرية والعدالة والاخاء والمساواة .

موقف الانكليز من الحادث

ولقد كان موقف الانكليز مدهشاً عظيماً . فالحكومة أعلنت استنكارها الشديد وأظهرت اهتمامها البالغ ، واحتجت على فرنسا وموقفها الباغي ، وقالت إنها لا يحق لها أن تفعل ما فعلت بدون علمها ، وهي شريكها في الموقف وضامنة لاستقلال لبنان وسيادته ، وإن ما فعلته من شأنه أن يضر بالغ الضرر بالجهود الحربية ، وأن فرنسا مدينة لها بوجودها في سوريا ولبنان ، وكان من أوجب واجباتها أن تفكر في ذلك قبل أن تقدم على ما أقدمت عليه . وأبدى البرلمان قلقه وخطب خطبائه مستكرين منددين . وحملت الصحافة الانكليزية حملات شديدة ونعتت فرنسا الحرة بأقبح النعوت ، وذكرتها بحالة فرنسا ومهانتها الحاضرة ، وقالت إنه كان يجدر بها بدلاً من عدوانها على استقلال شعب ضعيف وكرامته أن تقوم بواجبها في إنقاذ وطنها المهين وكسب عطف العالم بسبيل ذلك . وجاء كايي وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط الى بيروت مرتين واحتج بشدة على تصرفات هيللو وقال له بصراحة إنه ارنكب أفظع خطأ ، وإن عمله من شأنه أن يثير مشاكل عظيمة في سبيل الجهود الحربية بسبب اختلال الأمن في الشرق الأوسط الذي سيحدث من جرائه ، واهتمت الولايات المتحدة الأميركية للموقف وأبدى روزفلت قلقه من تفاقم الحال وضرر اضطراب الامن في الشرق العربي في الجهود والحركات الحربية التي كانت في أشد أدوار احتدامها ، وقال إن ما فعلته فرنسا مخالف لميثاق الأطلانطي ومناقض لما يهدف به الحلفاء من حرية الشعوب واستقلالها والقضاء على الروح الاستعمارية الديكتاتورية .

نشاط الجنرال سبيرز

ولقد كان الجنرال سبيرز المفوض البريطاني عظيم النشاط في الأزمة ، وحاول أن يحول دونها ، فلما أخلف هيللو بوعدده وأخل بالقسم الذي أقسمه له بشرفه على

أن لا يقدم على عمل مثير ازداد نشاطه واهتمامه حتى وكأنه اعتبر العمل صفقة مهيبة له ؛ ولقد غدت دار المفاوضات البريطانية منذ صباح الاعتقالات قطب حركة شديدة حيث كانت الوفود تتوى عليها من مختلف الطوائف محتجة صاخبة مطالبة بالتدخل والحماية ؛ فكان يطمئن الناس ويبيدي عطفاً شديداً على رجال الحكومة وقضيتهم ، ويتصل بحكومته اتصالاً مباشراً في صدد سرعة تدخلها بما جعل هذه الحكومة تبدي ذلك الاهتمام العظيم الذي أحبط عمل الافرنسيين وأرغمهم على التراجع عن بغيهم في النهاية ؛ ولذلك كان حقدهم في بيروت والجزائر مصوباً في الدرجة الاولى عليه حتى وصل الأمر بهم في بيروت الى التآمر على حياته وإطلاق النار على الجماعات التي كانت تقي دأره وإغراء الصبيان برجم سيارة زوجته حينما جاءت تزور زوجة رياض الصلح ، وإهانتها بعد سنتين حينما جاءت الى باريس بصفتها رئيسة البعثة الصحية التي كانت تألفت في سبيل فرنسا وجنودها !

٦ -

التجار الشعب وفضيل الانكليز في اللجنة الدبلوماسية وعملها

واستاءت اللجنة الدبلوماسية بطبيعة الحال أعظم استياء من اهتمام العالم العربي والانكلو أميركي لما حدث ؛ لأنها رأت فيه تفويتاً للفرصة المتاحة لها للقضاء على حركة التحرر والعروبة التي قادها رياض الصلح ؛ وامتنعت خاصة من حملات الانكليز، وأرادت أن ترى فيها نيات مبيتة ضد مركز فرنسا وحقوقها، كما اتهمت سبيوز بالتهبيج والتآمر ضدها ؛ ولم تتخل عن حقها وصلفها وروحها الاستعمارية ومغالطاتها ، ولم تفكر لحظة في فظاعة العمل الذي أقدمت عليه فأخذت تبرره بحجة أن حكومة لبنان أرادت أن تتحدى فرنسا وتجعلها أمام أمر واقع ، وتتآمر على حقوقها ومصالحها التي لا يمكن أن تتخلى عنها ، كما أخذت تهاجم الدول التي تتدخل في امور لبنان التي لا تهم إلا فرنسا ولبنان ، والتي يجب أن تترك لها وحدها لتسويتها فيما بينها ! وبما قالته إن مركز انكلترا ليس إلا عسكرياً بسائق الحرب ، وإنما ليس لها أن تدس أنفها في شؤون لبنان وترغم نفسها ضمان استقلاله ، وإن

حرية لبنان منوطة بفرنسا بما يصدق عليه بسبب ظروفها التي قالت فيها هذا القول المثل العربي القديم « است في الماء وأنف في السماء » ؛ وقد اهتم رياض الصلح خاصة بسوء النية والتهبيج والاستعانة بعناصر الشعب للضغط على الأفكار وتبييته خطة عداوية صريحة نحو فرنسا .

نراجعها مرغمه عما فعلت

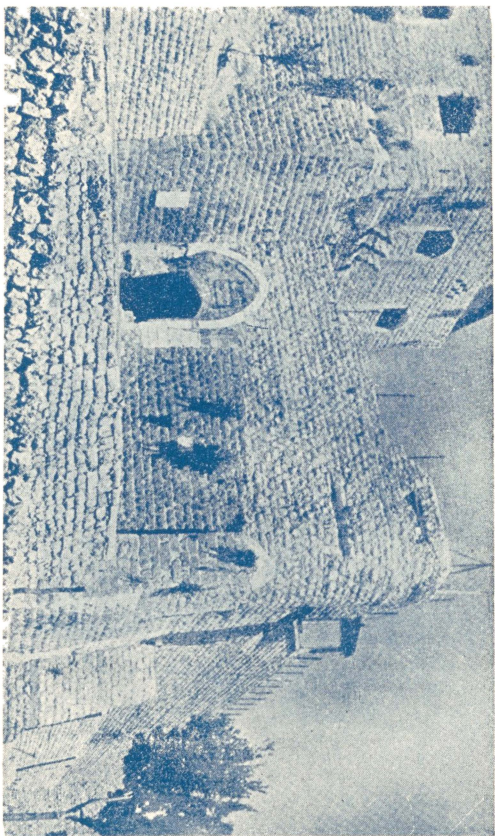
على انها لم تر بداً وقد ساقها العالم بالسنة حداد ، وتضامن العرب تضامناً قوياً مع لبنان من التراجع ؛ ولعلها خشيت أن يتفاقم الامر وتشتد اصابع الانكليز بالحركة فيصل الموقف الى التشطيب عليها ، ولا سيما انها لم تكن بعد شيئاً مذكوراً في الحرب والقوة وكانت شبه لاجئة في الجزائر ومدينة لبريطانيا بكل شيء حتى الحزب الذي تأكله هي وموظفوها والقوى التابعة لها ، دون أن تدرك أن عملها الاحق قد اسكت أنصارها ومواليها وكان من العوامل التي قضت على وجودها في لبنان ونسفت كل الجهود الجبارة في سبيل خاودها فيه ؛ فأوفدت الجنرال كاترو حل المشكلة على الوجه المناسب ، وجاء هذا الى القاهرة فاجتمع بكليسي ثم الى بيروت ، وأخذ يتصل بمختلف الأوساط المسيحية والاسلامية ، وزار دمشق وتحدث مع رجالها في الموقف . ولم يلبث هيللو أن تلقى أمراً بالعودة الى الجزائر ، وأن اقبل بعض الموظفين الافرنسيين وارسلوا كذلك الى الجزائر ، وان اطلق سراح المعتقلين ، وان صدر من القائم بالاعمال قرار بالغاء القرار السابق مع اعتبار التعديل الدستوري لاغياً ، فعاد رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء الى مناصبهم ، والمجلس النيابي الى اجتماعاته ، وقامت مظاهرات الابتهاج قوية صارخة في بيروت حتى ان النواب رفعوا رئيس الجمهورية على اكتافهم وأدخلوه الى قصره كذلك . وشارك بلاد العرب لبنان في ابتهاجه وفرحه وحماسة وانهاالت منها عليه بروقيات التهنئة الفياضة بعواطف الاخوة المبتهجة بولادة لبنان العربي . وجاءت بعثة الملك فاروق للتهنئة ، ورأس رياض الصلح بعثة الشكر رمعه غرسة من الارز لتغرس في ساحة قصر عابدين كرمز لهذا الشكر وخلوده فكان له استقبال عظيم متناسب مع تلك العواطف .



مشهد من .شاهد الاحتفالات بيوم الجلاء عن لبنان



الاثر التذكاري لجلاء فرنسه عن لبنان



قلعة راسينا



صاحب القبطة البطريرك أنطون عريضة



مشهد من مشاهد مراكب الجلاء في بيروت
الشيخ بشاره الحوري ورياض الصلح وجميل مردم ومحسن البرازي

وقد اختفى اده عن العيون عندما رأى بوادر تراجع الافرنسيين ، وخصه المجلس النيابي في اولى جلساته وباقتراح من زعيم مسيحي فيه بقرار الاستنكار والاشتمزاز ثم ما لبث ان طرده من بين أعضائه ، فكان في هذا درس بليغ يلقيه لـبنان في ولادته الجديدة على زعيم من زعماء الموارنة بل من كبارهم تولى رئاسة دولة لبنان وكان له الأنصار والأتباع والمؤيدون الكثول لشذوذه المعيب في موقف وطني عصيب.

محاولات ومساومات لأترو

وبما كان ان كاترو احاول ان يساوم ليحفظ لفرنسا شيئاً من الهيبة فاستحضر الشيخ بشارة الخوري من راشيا مخفوراً وعرض عليه بعض العروض فرفضها فاعيد الى معتقله مخفوراً كذلك، وفعل مثل هذا مع رياض الصلح فأخفق، فلم يردأ من الحل المرضي، وأرسل اليه بعد أيام كتاباً يقول فيه ان لجنة الجزائر وافقت على منح لبنان جميع مطالبه وان التحفظات التي ابدتها قد الغيت . ومن عجيب ما يذكر من أدلة حق الافرنسيين وسوء نياتهم وشدة الغيظ الذي ثار في نفوسهم ان كاترو رغم محاولاته هذه غدا موضع حقد شديد من قبل الموظفين الافرنسيين لما كان منه من تسليم حتى ان بعضهم حاول التآمر على حياته على ما نشرته بعض الصحف في حينه . وعلى كل حال فقد كان التراجع الافرنسي تاماً متناسباً مع ولادة لـبنان العربية الوطنية النضالية ومع الصلف والغطرسة والغرور والحق الذي رافق الافرنسيين في جميع تصرفاتهم وفي موقفهم الباغي الاخير والذي ظل يعيهم عن ادراك حقائق واقعهم وواقع العالم ، وعدم ارعائهم عن الغي واتعاظهم بالأحداث ، وكان من ذلك ان صرحوا عن ما في قلوبهم من غيظ وحسرة على انهم لم يتمكنوا من ازالة بطشتهم الكبرى في اللبنانيين الذين خانوهم ، وان دفعهم هذا الغيظ والحسرة الى موقف غادر لثيم في سوريا بعد سنة ونصف مما كان سبباً في التشطيب لهم في لبنان وسوريا واقتلاع جذورهم منها . . .

لبنان بعد انكشاف الفهم

وخرج لبنان من محنته قاتراً منصوراً يتبخر بمجلته العربية الوطنية النضالية .
وقد اجتمع المجلس النيابي فكان اجتماعه مظاهرة وطنية عربية كبرى تبارى فيها خطباء النواب بالاشادة بالحرية والاستقلال والكرامة والتضامن العربي .
ولقد كان النواب وحكومة الطواريء قرروا إبدال العلم واخراج الارزة من حضانة العلم الافرنسي وجعله متسقاً مع ألوان العلم العربي ، فرفع العلم على دار المجلس في اجتماعه الاول فكان ذلك تدشيناً رسمياً رائعاً لتقويض اركان فرنسا ومزاعمها في لبنان واستقلال لبنان عنها بكيانه العربي الجديد .
ولقد أقام البطريرك الماروني ولبنة لرئيس الجمهورية والوزارة فألقى خطبة بدأها بالبيت العربي المشهور :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم
ثم قال فيما قال : أما وقد أريق الدم في سبيل الاستقلال فلا شك في انه سيظل قائماً مستقراً .

وتبادل المسلمون والنصارى الزيارات في المساجد والكنائس بمظاهرات شعبية اخوية جياشة ، وقد انشد بعض المسيحيين في احدى الكنائس قصيدة جاء فيها :
إني بقرآني عرفت مسيحكم ورأيت في الانجيل وجه محمد
حيث كان كل هذا مشاهد جديدة سارة في حياة لبنان دعمت ولادته العربية ، وفقت في عين المستعمر الباغي الذي مثل على مسرحه ابشع الأدوار ، واستغل خلاف طوائفه خاصة الأمم استغلال ، وكان مطمئناً بمر كره وخلوده وحيزه الشامل في لبنان كل الاطشنان .

واقامت حفلة تكريمية في صيدا خطب فيها رياض الصلح فقال ان شروط استقلال لبنان ثلاثة وهي ان يرغب فيه المسيحيون ويقبله المسلمون وتعترف به الاقطار العربية ، وقد تحققت هذه الشروط الثلاثة . فكان في هذا الاجازة تلخيص للوقائع وتدعيم لها .

وبدا ان الافرنسيين ظلوا يظنون ان اعلانهم لالغاء التعديل الدستوري ما يزال هو المعتبر ، فقطع رياض هذا الظن بتصريح في البرلمان قال فيه ان اعلان الالغاء ليس شرعياً فلا قيمة له ، وان ما تم قد تم وفقاً للدستور وهو المرعي المعتبر . وقد اثار هذا التصريح الافرنسيين ثانية وكادت ان تحدث ازمة جديدة ، واجتمع الوزراء في بيت رئيس الجمهورية واحضروا ما امكنهم من قوة استعداداً للطوارئ وتصبياً على الدفاع ، فكان ذلك باعثاً للفرنسيين على التراجع ثانية وبلعهم الشربة كرهاً بصورة الطوع . على انهم بعد خمسة اشهر حرضوا بعض انصارهم فجاءوا في مظاهرة الى البرلمان في احدى المناسبات وحاولوا ازالة العلم الجديد ورفع العلم الافرنسي محله ودوت النار ، وكان مصير المحاولة الاخفاق .

- ٩ -

قوة العهد اللبناني العربي بعد الحادث

ومنذ انكشاف الغمة عن لبنان العربي الجديد اخذت تنهياً له اسباب توطيد استقلاله وسيادته ، فاخذت تتوالى اعترافات الدول به ، واندمج في مشاورات الوحدة العربية في القاهرة التي انتهت بقيام جامعة الدول العربية وغدوه عضواً فيها ، واندمج كذلك بالتضامن والتشاور مع سوريا في ميثاق الاطلانطي وعلان حالة الحرب رسمياً مع دول المحور وبذل المساعي الناجحة في الاشتراك في مؤتمر سان فرانسيسكو وغدوه كذلك عضواً مؤسساً في هيئة الامم معترفاً باستقلاله وسيادته محرراً من اغلال الانتداب ووزره على الوجه الذي فصلنا الكلام عنه في الباب الأول .

تضامن لبنان وسوريا في نصبة مركز فرنسا وائره

ولقد اختط رجال العهدين في سوريا ولبنان خطة التضامن التام فيما بينهما في صدد نصبة الموقف مع فرنسا ، فامكن بذلك النجاح في استلام المصالح المشتركة

التي كانت في يد السلطات الانتدابية الفرنسية مباشرة . وسار رجال العهد في هذه الحطة إزاء مطالب فرنسا التي تقدمت بها كشرط لتسليم الجيوش فرفضها لبنان كما رفضتها سوريا ، ووقف لبنان الى جانب سوريا موقفاً قويا في محنة مايس ١٩٤٥ ، وتضامن معها في الشكوى الى مجلس الامن وطلب الجلاء وتحقيقه أخيراً على ما ذكرناه كذلك في الباب الأول .

جلاء فرنسا عنه لبنان

وفي ٣١ كانون الاول من عام ١٩٤٦ تم جلاء آخر جندي اجنبي عن لبنان ، وخفق العلم اللبناني العربي وحده في سماءه ، وكان ثاني بلد عربي تزول عنه غمة الاستعمار والاحتلال دون ما قيد ولا شرط ولا عهد . وقد سجلت ذكرى الجلاء عن لبنان على صخرة من صخور نهر الكلب التي سجلت عليها بعض احداث التاريخ اللبناني الكبرى بمركب حافل اشترك فيه وفود العرب .

الامال بالمستقبل بالرغم من بعض المشاهد الحاضرة

وهكذا استوفى لبنان لقاء موقفه الوطني العربي هذا الثمن العظيم الذي كان يشك كل الشك في بلوغه حتى ولو بلغته سوريا بدون ذلك الموقف الذي كانت الفكرة العربية والحركة العربية ورجالها اصحاب الاثر الاقوى فيه ، لما كان من رسوخ قدم فرنسا في لبنان ماديا ومعنويا واعتبارها نفسها انها في ارضها ولما كان من الصلات الوثيقة والعواطف العميقة المتبادلة بينها وبين كثرة كبيرة من سكانه، الامر الذي كان يقض من مضجع سوريا خاصة، لأن خطرهما يظل سيفاً مصلتا فوق رأسها بسبب ذلك ، فضلاً عن انه كان يقض من مضجع اصحاب الفكرة العربية ورجال حركتها خشية من ان تقوى فرنسا على لبنان فيغدو إفرنسيا او بمثابة ذلك ، ويكون مقراً للاستعمار وممرأ له الى غيره ..

ومع اننا لانجهل ان تلك الكثرة من سكان لبنان ما زالت تحت تأثير تلك الصلات والعواطف ، وتحت تأثير العصبية اللبنانية المسيحية الضيقة المتجهة للعرب

والعروبة نتيجة لدسائس فرنسا ودعايتها بسبيل توطيد قدمها الاستعمارية في الشرق العربي ، ومع ان آثار ذلك تظهر حيناً بعد حين قوية اليمّة مرة تبعث في النفس الحسرة والتشاؤم وضعيفة مرة اخرى على السنة بعض رؤساء الدين والزعماء المارونيين والكاثوليك عامة وبعض الصحف والمنظمات المسيحية والمارونية خاصة حيث يصل الامر احياناً الى الخروج عن كل منطق وكرامة والاساءه لبني لبنان ولبني سوريا وللعرب عامة بدون إثارة او استفزاز مما يظهر فيه اصابع فرنسا الدساسة أحياناً ومما ذكرنا بعض امثلة منه في مناسبة سابقة فإن الأمل غير ضعيف في ان يخف ذلك التأثير رويداً رويداً حتى يزول ، وحتى تتوطد الفكرة العربية في مسيحيي لبنان ومسلميه على السواء ، ويدرك الجميع ان في ذلك كرامة وطنهم وامتهم وعزتهم وقوتهم ومصالحهم معا ، ولا سيما إن رجال الحركة العربية قدروا منذ الاصل وما يزالون يقدرون بواعث الفكرة المستحكمة في نصارى لبنان وخاصة مواردته وهي ضرورة احتفاظ لبنان باستقلاله وكيانه واحترموها بسبيل تطمين نصاراه والتحاقه بقافلة العروبة التي تسير فيها بلاد العرب جمعاء والتحرر من اصابع فرنسا ومطامعها . بل وانه ليسرنا ان نسجل ان بواذر ذلك آخذة بالقوة والنمو يوماً بعد يوم باتساع نطاق الفكرة العربية القومية والاستشعار بكرامة الاستقلال والسيادة وعزتها مما يبشر بالوصول الى الغاية المرجوة التي يتم فيها النصر للفكرة والحركة العربية واهدافها ان شاء الله .

الباب الثالث

فرنسا والمغرب العربي

محمّد

ظروف بلاء المغرب بفرنسا

إن ابتلاء سوريا ولبنان والحركة العربية فيها بفرنسا قد جاءت من حيث الفعل بعد ابتلاء المغرب العربي بها. ومن المؤسف أن الظروف التي ساعدت سوريا ولبنان والحركة العربية فيها على النجاة من بلائها لم تسنح بعد لهذا المغرب العزيز فظل الى الآن يقاسي الشدائد المريعة منه.

ولقد بليت سوريا ولبنان ببلائها عقب يقظة الروح القومية والحركة العربية وما كان من رجالها من نشاط وما بذلوه من جهود وقدموه من ضحايا قبيل الحرب العالمية الاولى؛ ثم نشبت هذه الحرب التي كانت مبادئ التحرير وحق الشعوب الضعيفة وحريتها والقضاء على الروح الاستعمارية وحق الفتح وسائل دعائية مهمة فيها. وقد قطع الحلفاء بلسان انكسار للعرب الذين كانوا في حكم الدولة العثمانية عهوداً بالحرية والاستقلال واشتركوا بسببها في الحرب المذكورة الى جانبهم، فكان هذا بما قوى موقف العرب في سوريا ولبنان وساعدهم على النجاة بعد محنة شديدة استغرقت أكثر من ربع قرن مع ذلك؛ فضلاً عن ما كان من ظروف دولية أخرى واتتهم أثناء الحرب العالمية الثانية على ما فصلناه في البابين الأولين من هذا الجزء؛ هذا في حين أن المغرب العربي قد ابتلي بفرنسا في تواريخ سابقة تيسر لها فيها توطيد قدمها فيه واختطاط سيرة من شأنها أن تجعل البلاء مزماً مستعصياً.

قصة المغرب الالحمّة

والحق إن قصة فرنسا في أقطار المغرب العربي أليمة جداً لأنها تقص ما قاسته هذه البلاد من فرنسا بأسلوب من شأنه أن تهلع له القلوب وتدمى له العيون وتقشعر منه الأبدان لفظاعته وقسوته بحيث يصح أن يقال إنّ ما قاسته سوريا ولبنان على شديد ما قاسته ليس إلا ظلاً لما قاساه ولا يزال يقاسيه ذلك الجزء الكبير من

الوطن العربي ؛ حتى إنه لا يكاد يصدق وقوعه في أشد أدوار الظلم والقسوة المهيبة التي يمكن أن تكون انعدمت فيها معاني الرحمة والانسانية والعدل والمنطق؛ وبحيث يشير الاشفاق والرافة في أشد القلوب قسوة ، ويبعث أشد العجب من موت الضمير العالمي وسكوته على هذه المآسي والجرائم التي تمثل منذ عشرات السنين على مسرح هذه البلاد الشهيدة التي هي في سرّة أوروبا بل وتكاد تكون في صميم نطاقها ، مما يعد وصمة عار لا تمحي عن جبين الحضارة الغربية ومثيلها ؛ وبحيث يزداد المرء يقيناً بخرافة تلازم مبادئ الحرية وحقوق الانسان لفرنسا وثورتها الكبرى تجاه أي بلد أو شعب آخر ، ويزداد نقمة على أولئك العرب الجغرافيين خاصة الذين لا يفتأون دون ما خجل يقررون هذا التلازم ويشيدون بإنسانية فرنسا وعدلها وحريتها ضاللا وتضليلاً بينا يكون وجهها الاستعماري الكالح الكريه بارزاً كل البوز وفي أشنع مناظره في جزء كبير من وطنهم العربي منذ عشرات السنين . ويزيد في غصة هذه القصة وبشاعتها أن الأفطار المغربية كانت متمتعة باستقلالها آخذة بالسير في طريق الامم التي سبقتها في مضار الحضارة فتصدت لها فرنسا بغياً وعدواناً بدافع الطمع والجشع والسلب والاستعمار ودون ما أي استفزاز ، واختطت فيها خطة رهيبة غايتها إلغاء المغرب العربي الاسلامي من الوجود إلغاءً واستبداله بمغرب افرنسي نصراني ، وسبيلها الافقار والتجهيل والقضاء على المقومات الدينية والقومية والاجتماعية ، وإثارة النعرة الجنسية والتقاليد الجاهلية في البربر الذين اندمجوا في العروبة والاسلام منذ الآماد الطويلة وأصبحوا والعرب يؤلفون الشعب المغربي العربي الاسلامي لأجل التفريق والتوهين ؛ وعدتها الارهاب والتنكيل والتبشير والقذف بشذاذ الآفاق من الافرنسيين العاطلين والمتبطلين الذين ضاقت بهم بلادهم وسبل عيشهم فيها واختصاصهم بخيرات البلاد وبركاتها وثرائها من أرض وزراعة وصناعة وتجارة ومعادن على حساب اهلها وإعدادهم ليكونوا اليد المعونة على تلك الخطة الرهيبة .

ولعمر الحق انه ليجب على السوريين واللبنانيين خاصة أن يضاعفوا شكرهم لله عز وجل الذي أنقذهم من الكابوس الافرنسي الذي لو مد له الأجل وغفلت عنه المهم ولم تبهته الظروف القاهرة لكانت مآسيه الرهيبة التي يرسف فيها المغرب العربي

مقدرة عليهم ؛ وقد رأوا بوادرها الكريمة ، وخاصة اذا ذكروا ما كان يفكر فيه الافرنسيون من جلب عشرات الوف الامر الافرنسية وتوطئتها بين (بوعهم على ما جروا عليه هناك ؛ كما إنهم يجب عليهم أن ينتبهوا كل الانتباه وأن يحذروا كل الحذر ، لان تلك الروح الجشعة الشرهة المستعمرة ما تزال قائمة تحرق الأرم على سوريا ولبنان وتترقب الفرص السانحة للكرة عليها ، ولا تني في بث سمومها ودعايتها بواسطة من اصطنعته منهم من المأجورين والضالين والمخدوعين .

كفاح المغرب ضد نكبه

ومن الحق ان يسجل أن المغرب العربي لم يقصر في مكافحة النكبة التي ابتلي بها، بل جاهد وما يزال يجاهد أروع جهاد في سبيل حريته واستقلاله على ما كان من كيدله في إضعاف قوته وسلب وسائله ، وتفوق عدوه ؛ وضحي بأعظم التضحيات، وكتب صفحات من نور في تاريخ البطولة والجهاد الوطني . وإذا كانت المشرق العربي لم يكن على صلة وثيقة بذلك فمرد هذا إلى ما ضربته فرنسا على المغرب من ستار كثيف ، وما شغل هذا المشرق من شواغل ونكبات قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها .

على أن من فضل الله على الحركة العربية أن التقصير المتبادل قد انتهى بما كان من التقاء المغرب والمشرق أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها في ميدان واحد ، وتواصلها تواصلًا من شأنه أن يشد من أسر هذه الحركة وحيويتها ، ويساعد على تحقيق أهدافها عاجلاً أو آجلاً على كل حال ؛ ولا سيما ان الروح في العالم كله آخذة بالتغير، وإنها ضائقة حتماً بفكرة التسلط على الشعوب الضعيفة واستعبادها وحرمانها من حريتها وحققها في الحياة الكريمة المستقلة .

الفصل الأول

فرنسا والجزائر

- ١ -

عائلة الجزائر قبل النكبة

إن أول قطر ابتلي بفرنسا وصار الجسر الذي امتد عدوانها عليه الى تونس شرقاً ومراكش غرباً هو القطر الجزائري .

ولقد استولى الاسطول العثماني في أواسط القرن السادس عشر على هذا القطر بشيء من اليسر لما يجمع بين سكانه والدولة العثمانية من وحدة الدين ورابطة الخلافة الاسلامية العامة ، ولم يلبث أن قامت فيه حكومة تركية ارتبطت بالدولة المذكورة برباط خفيف من التبعية نظراً للبعد بينها وبين العاصمة وغدا مع الزمن إسمياً وفي نطاق شمول الخلافة التي تنقسم بها هذه الدولة .

وهكذا كانت الجزائر مستقلة استقلالاً تاماً ، وكان رؤساء الدولة الذين يتلقبون بلقب « الداى » يتون الى العنصر التركي الذي استعرب وتأقلم ، وكان لها اسطول قوي بلغت سفنه المسلحة بأربعين مدفعاً (٧٢) والمسلحة بعشرين مدفعاً فما دون (١٤٠) ، وكان عدد جيش الاسطول ثلاثين الفا ، وكل هذا قبل الثورة الافرنسية أى في أواسط القرن الثامن عشر ، وكانت للدولة بقوة هذا الاسطول صولة في البحر الابيض عادت عليها وعلى رعاياها بالثروات الطائلة .

وقد كانت الجزائر بخيراتها وثروتها وموقعها تحرك مطامع الدول الأوروبية البحرية ، وقد تحرش بها أكثر من دولة وأكثر من مرة فلم تنل منها مثلاً .

ولقد انكسر الاسطول الاسباني مرة أمامها أشنع كسرة وغنم الجزائريون كل ما أتت الحملة الاسبانية الغازية به من سلاح وعتاد ومؤن ، وأعاد الاسبان الكرة فلقوا نفس المصير . ولقد قذفت أساطيل الدول الأوروبية مدينة الجزائر أكثر من مرة دون جدوى ، حيث كانت من أعظم مدن البحر المتوسط حصانة ان لم

تكن أحصنها ، وفيها من المدافع الضخمة ما يفوق في رمية وقوته مدافع تلك الاساطيل .

وفي إبان ثورة فرنسا الكبرى وتآلب الدول الأوروبية عليها مدت الجزائر يد العون اليها بالتموين ، حيث سمحت لها بشراء قمحها وأقرضتها بعض المال بدون فائدة برغم مساعي الانكليز في صدها عن ذلك ، كما بادرت الى امدادها بما امكنها من مواد ووسائل نقل ومواش ، مما جعل نابليون أيام عهد قنصلية يزوجي شكر فرنسا الحار اليها ، وفي سنة ١٧٩٥ اعتدت سفينة اسبانية على سفينة افرنسية وأسرتها على مقربة من الجزائر فسير الداوي بعض سفنه وفك أمر السفينة الافرنسية واسترد ما سلبه الاسبان منها . ولقد كانت الصلات ودية بين فرنسا والجزائر بحيث كان بعض رعايا هذه أيضاً يمدون يد المساعدة الى تلك إبان محنتها . ومن ذلك ما أقرضه جزائري يهودي لفرنسا من قروض عديدة بلغت عدة لاين اشترت بها فرنسا القمح والمواد الغذائية الأخرى وكان ذلك بتشجيع الداوي وكفالاته ، وقد استغلت فرنسا هذه الصلات الودية فأنشأت مراكز تجارية في بعض الانحاء الساحلية كانت فيما بعد نقطة ارتكاز للبغي والعدوان !

- ٢ -

النسبة وظروفها العروانية

ولقد عاملت فرنسا الجزائر كما يعامل الضيف اللثيم مضيفه حيث ثار شرها وطمعها فيها بدلا من شكرها والاعتراف بمجملها . فلم ينته دور امبراطورية نابليون ، ويستأنف دور البوربونيين ثانية وتستريح فرنسا من شدائد المحنة التي انتابتها خلال اربعين عاماً حتى أخذت تبيت الغدر للجزائر لتستولي على ثرواتها وخيراتنا وتكون لها مستعمرة ومستغلا ، فسلحت سراً بعض المراكز التجارية التي انشأتها ، واستنحت فرصة انشغال بعض أقسام الأسطول الجزائري في الحرب العثمانية اليونانية التي استمدت الدولة العون فيها من الجزائر كما استمدته من محمد علي الكبير والي مصر ، فأصدرت تعليماتها لقتلها بخلق فرصة مناسبة للعمل

وفي نيسان عام ١٨٢٧ خاطب الداي القنصل بلهجة حادة محتجاً عل عدم اجابة حكومته على بعض مطالبه ورسائله فأجابته القنصل بإجابة جارحة أثارت غضبه وجعلته يضرب وجه القنصل بمروحته ويطرده من حضرته . فسارعت فرنسا الى إنذار الداي باعتذار لا يمكن ان يقبله فأعلنت عليه الحرب والحصار ، وأخذت تعد حملة كبيرة للغزو . وكانت السفن الجزائرية التي تحارب في مياه اليونان قد تحطمت مع ما تحطم من الاسطولين العثماني والمصري في واقعة نافارين ، فأضعفها ذلك أمام الحملة القوية التي أعدتها فرنسا وسيرتها في صيف عام ١٨٣٠ .

وكانت هذه الحملة مؤلفة من اسطول حربي عدد سفنه (١٠٣) مجهزة بنحو ثلاثة آلاف مدفع ، ومن جيش مقاتل عدته اربعون الفا ، وأسطول تجاري يحمل المؤن والعتاد مؤلف من نحو (٤٠٠) سفينة . وأنزل الافرنسيون قواهم في احدى النقاط الساحلية التي تبعد قليلا عن الجزائر وتحصنوا فيها وكانوا قد أعدوها لمثل هذه المناسبة من قبل .

ومن الجدير بالذكر أن الملك شارل العاشر ودع الحملة بمخبطة صليبية دلت على ازوح التي كانت تحفز فرنسا الى البغي جاء فيها فيما جاء « ان العمل الذي ستقوم به الحملة ترضية للشرف الافرنسي سيكون بمساعدة العلي القدير لفائدة المسيحية كلها » وقد كان مثل هذه الروح من جملة الحوافز ونقاط الارتكاز الاستغلالية في صلة فرنسا بلبنان وسوريا ومطامعها فيها على ما ذكرناه في البابين السابقين ...

نجاح الغزوة الافرنسية

ولقد ظن الداي ان نزول الافرنسيين في النقطة التي نزلوا فيها يبسرله حصارهم وإبادتهم وكانت واثقاً من قدرته على ذلك بما استطاع أن يجمعه من جموع فاقت بعددها جموع العدو كثيراً . ودارت رحى معركة عنيفة في تاريخ ١٩ حزيران ١٨٣٠ كادت الدائرة تدور على الافرنسيين فعلا ، غير أن تفوق القيادة الافرنسية على القيادة الجزائرية ضيع على الجزائريين فرصة الموقف الذي لم يلبث أن انقلب ضدّهم ، فاستطاع الافرنسيون أن يستولوا على المعسكر وما فيه وأن يحطموا خط الدفاع.

الأول ، وأن يتقدموا نحو العاصمة ويحاصروا قلعته ويضيقوا الحناق عليها بالرغم من المحاولات التي حاولها الجزائريون للكرة . ولقد دافعوا عن القلعة حتى نفد ما عندهم من عتاد وهناك القسم الأكبر من المدافعين ؛ وحينئذ أشعلوا النار في مخزن البارود فانفجر واندك البرج حتى لا يستولي عليه الافرنسيون سليما ، ثم تخرج الموقف فطلب الأهاون من الداى مفاوضة الافرنسيين على الصلح فأبى هؤلاء إلا الاستسلام المطلق لان الغزوة لم تكن تهدف الى ما تهدف اليه حرب بين دولتين وإنما كانت تهدف الى سلب واستعمار ، فتقدم بعض أعيان المدينة موافقين على تسليم العاصمة وانتهاء حكم الدولة الحسينية (نسبة للداى حسين) .

معاهدة التسليم

وعقدت معاهدة بذلك كان من نصوصها تخيير الداى في مغادرة البلاد بأمواله أو البقاء فيها في حراسة فرنسا ، والتعهد باحترام حرية الجزائريين الدينية والمدنية وعدم التعرض لأموالهم وتجارتهم وصناعاتهم وبالرغم من ذلك فان الافرنسيين لم يتورعوا حينئذ دخلوا العاصمة من أعمال السلب والنهب وانتهاك الحرمات بما اضطر كثيراً من السكان الى مغادرة المدينة والفرار الى داخل البلاد . ولقد وجد الافرنسيون في خزانة الدولة ومخازنها نحو خمسة وعشرين مليوناً من الفرنكات ذهباً وأربعة وعشرين مليوناً فضة وما قيمته سبعة ملايين من السلع فاستولوا عليها غنيمة باردة .

وقد غادر الداى بلاده مع أسرته وحاشيته الى ايطاليا ومن هنا أخذ يتصل بأنصاره للانقضاض على الغزاة وقام فعلاً ببعض المحاولات أكثر من مرة ولكنه أخفق فاضطر الى نقض يده والانتقال الى الاسكندرية حيث استقر فيها الى أن مات عام ١٨٣٨ .

- ٣ -

التصرفات الباغية أثر الاستسلام

ولقد كان تصرف الغزاة في حملتهم الباغية سيئاً كل السوء وحشياً كل الوحشية لم يروعوا فيه عهداً ولا ذمة ولا شرفاً ، ولم يستشعروا فيه بأي عاطفة من عواطف

الرحمة والرأفة والانسانية والدين بما كان مثار دهشة ونقد من قبل لجنة عينها الملك عقب احتلال العاصمة أي في تموز عام ١٨٣٣ لتفقد الاحوال وتنوير الحكومة في البلاد المفتوحة . فقد احتوى تقرير هذه اللجنة فضائح يندى لها الجبين ، ومظالم تشعر لهولها الجلود لم يكن يستهدف بها إلا الارهاب والاختضاع والسلب ، ولم يكن لها من موجب ، لأن البلاد قد استسلمت للغزاة حسب طلبهم ووفقاً لمعاهدة وعدوا بها برعاية تقاليد اهلها وحقوقهم . وهذه مقاطع مما احتواه التقرير (١) :

« لو يقف الانسان لحظة متأملاً الطريقة التي عامل بها الاحتلال سكان البلاد لرأى أن سيره لم يكن مخالفاً للعدالة فقط بل كان يخالف العقل ايضاً ، حيث أننا على حساب استسلام شريف وعلى حساب أبسط حقوق الشعوب الطبيعية قد تجاهلنا كل المصالح فلم نراع حرمة العادات والأرواح ، وأضفنا الى ملكية الدولة أملاك المؤسسات الدينية وصايرنا املاك طبقة من السكان وعدناها باحترام حقوقها واستولينا بالظلم والضغط والجور على الأملاك الخاصة الشخصية دون أي مقابل ثم أجبرنا المالكين الذين جردناهم بتلك الطريقة على دفع نفقات تدمير منازلهم فيها بل نفقات تدمير مسجدهم ! ولقد أرسلنا الى ساحات التعذيب والتنكيل والاعدام لمجرد الشك رجلاً لم تثبت إدانتهم ولم نجر محاكمتهم ، وقتلنا رجلاً يحملون جوازات المرور ، وذبحنا جماعات من السكان بصورة إجماعية لمجرد الشك ثم ظهرت براءتهم ، وقدمنا للحاكم رجلاً مشهورين بسمعتهم الطيبة في البلاد لأن شجاعتهم جعلتهم يأتون الينا ويقفون امام غطرستنا متوسلين لانقاذ مواطنيهم المساكين . وقد وجد منا قضاة لم يتورعوا عن محاكمتهم ورجال لم يجمعوا عن تنفيذ حكم الاعدام فيهم . ولقد ألقينا في غياهب السجون الانفرادية المظلمة رؤساء القبائل بالرغم مما قدمته قبائلهم لنا من ملاجئ ومؤث . لقد أطلقنا على الحيانة والغدر اسم المفاوضة وجعلنا منها كميناً للغدر والتقتيل . وبكلمة موجزة لقد تجاوزنا بربرية البرابرة الذين جثنا لتمدينهم ثم ظللنا نشكو إخفاقنا فيهم . »

ولقد أثار هذا التصرف نائباً افرنسياً حراً اسمه دي شاد فوقف في مجلس النواب الافرنسي في نيسان عام ١٨٣٤ يندد به ويذكر بعض مشاهدته وقد قال فيما قال : لقد هدمنا في الجزائر تسعمئة بيت دون اتخاذ أي إجراء ودفع أي

(١) من كتاب القضية الجزائرية لدوريان و. م لوف

تعويض واستولينا على ستين مسجداً وهدمنا منها عشرة وحوّلنا بعضها الى كنائس ودمنا المقابر وبعثرنا الرفات في بلد شديد التمسك بدينه. ولقد كانت مدينة الجزائر قبل الاحتلال محاطة بالحدائق والقصور الجميلة الفخمة وكانت ضواحيها تماثل ضواحي مرسيليا في بهجة المناظر ، ولكن كل ذلك قد زال بعد أن اجتاحت حيث خربت سواقيها وقنواتها ودمرت البيوت والقصور واتخذت سقفها حظاً واقتلعت الأشجار وجعلت وقوداً ..

ولقد احتوى تقرير مفصل لفنصل افرنسي وصفاً مروّعاً لبعض ما كان في مذبحه أوقعها جيش الاحتلال في نيسان عام ١٨٣٢ في منطقة الولاية لمجرد شكه في اختطاف افراد ينتسبون الى قبيلة موالية حيث قال إن الحملة فاجأت القبيلة عند بزوغ الشمس فذبحت كل افرادها دون أن يستطيع أي منهم دفاعاً وقضت على كل حي دون تمييز بين شاب وشيخ وامرأة ورجل وعاد الجنود حاملين رؤوس الضحايا على رماحهم . أما الأغنام التي وجدوها في ساحة المأساة فقد بيعت لفنصل الدانبارك ، وأما بقية الغنمية وهي مسلوبات المذبحين فقد عرضت للبيع في سوق عام حيث تشاهد أساور النساء في المعاصم المتبورة التي ظلت الأكف الدامية عالقة بها وحيث تشاهد أقراط النساء وبقايا اللحم متدلّية منها. وبعد توزيع حصيلة السلب بين الذابحين صدر بلاغ يومي يوم ٨ نيسان ١٨٣٢ يبارك هذا العار حيث يعرب عن مدى الرضا البالغ الذي شعر به الجنرال إزاء الحزم والكفاءة التي أظهرها جنوده البواسل ..

- ٤ -

مقاومة أهل البلاد

على أن أهل القطر لم يستسلموا باستسلام العاصمة ، وازداد نفورهم من التصرفات الوحشية التي أخذت اخبارها الرهيبة تنتشر فتملاً القلوب رعباً ، وأخذت كل ناحية من أنحاء القطر تستعد للدفاع وتحصن مواقعها وتنظم وسائل مقاومتها، غير أنها لم تتحد تحت قيادة واحدة. فكان هذا من أسباب إخفاقها حيث تمكن الافرنسيون من القضاء على مقاومة النواحي واحدة بعد اخرى بالمكر والفساد والقوة الغاشمة معاً.

مهراجد الامير عبد القادر

وكان أهم الحركات النضالية ضد الافرنسيين حركة الامير عبد القادر . فقد اجتمع رؤساء القبائل في الأنحاء الغربية فبايعوه بيعة شرعية بالأمانة وعاهدوه على السمع والطاعة وكانت ذلك عام ١٨٣٢ ، فأنشأ دولة في هذه الأنحاء وأخذ يستعد للنضال ؛ وقد جنح القائد الافرنسي الى مسالمة ريثما يتمكن من الأنحاء الاخرى فاعترف بأمارته . ولقد أهاج هذا باريس وحملها على استبدال القائد وزودت الجديد بالمدد والأمر المحتم بالقضاء على دولة الامير الفتية ، غير أن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً وانتصر الامير عليها وأوقع فيها جسيم الخسائر ، فسيرت عليه حملة اخرى نجحت في احتلال عاصمة الامير « المعسكر » وإحدى مدن أمارته الكبرى « تلمسان » . وكان الامير جنح الى حرب الكر والفر دون معركة كبيرة ، وظل كذلك يزعمج الافرنسيين الى أن اضطروا الى التعاهد معه عام ١٨٣٧ والاعتراف بأمارته في مقاطعة وهران مقابل اعترافه بسلطتهم على مقاطعة الجزائر وغيرها بما دخل في حوزتهم . وسنحت للامير بذلك فترة سلم تفرغ فيها لتنظيم دولته وتدريب جنده والاستعداد للطوارئ . وكان الافرنسيون مشغولين في هذه الفترة في إخضاع المقاطعات التي لم تكن قد خضعت لهم بعد .

نهابة الامير

فلما تم لهم ذلك التفتوا الى الامير ليصفوا الحساب معه ، وأخذت تدور بين الفريقين حروب ومعارك عديدة ، والتزم الامير طريقة الكر والفر وعمد الافرنسيون الى الدس والاغراء ونجحوا في تخذيل بعض القبائل عنه ، وحاول الامير ان يجد في الارض المراكشية ملجأ للاستجمام والتنظيم فأنذر الافرنسيون سلطانها فاضطر هذا الى منع الامير من اتخاذ بلاده قاعدة لحركاته مع الالم والحسرة ، ومع كل هذا وبالرغم من تضيق الافرنسيين الخناق عليه واستيلائهم على مخيماته وأسرهم بعض

أسرته وعددٌ كبيرٌ من خلع انصاره ومصادرتهم لأمواله ظل يصول ويجول ويكر ويفر حتى انتهكت منه القوى وفقد القدرة على الاستمرار ولم يبق له مناص فاستسلم عام ١٨٤٧ حيث بقي في أسر فرنسا الى عام ١٨٥٢ ، ثم غادرها الى البلاد العثمانية واستقر في دمشق حيث توفي فيها .

وعبيد الافرنبيين في سبيل حرب الامير

ولقد كان الجنرال سان أرنود احد قواد الحملات الافرنسية يبعث لأخ له في فرنسا رسائل خلال سنتي ١٨٣٨ - ١٨٥١ احتوى بعضها مشاهد عديدة لما كانت من تصرف هذه الحملات اثناء حروبها مع الامير والمقاطعات التي لم ترد أن تضع رقابها تحت أقدام الغزاة تدل على أن ذلك التصرف الوحشي الرهيب الذي وقع في مدينة الجزائر وضواحيها اثناء الحملة الأولى وعقبها قد ظل مستمراً في هذه الحملات بنفس الروح والهدف وهما الارهاب والسلب ودون أن يستشعر في ذلك بأي عاطفة من عواطف الانسانية والعرف والرحمة والشرف . فقد جاء في رسالة له بتاريخ ٧ ماوس ١٨٤١ بعد غزو مدينة قسنطينة « إنّ الحرب لم تبق حياً لأننا لا نأسر أسرى . ولقد بدأ الجنود السلب ثم تبعهم فيه الضباط وانتهى اكبر سهم من المسؤوليات والغنائم الى ايدي القائمين على الجيش وضباط قيادته العليا وهو ما يحدث دائماً . اننا ندمر كل المدن ونحتاج كل املاك الامير . وسوف يحد الجيش الافرنسي في كل مكان ويبيده اللهب . وفي رسالة بتاريخ ٥ نيسان ١٨٤٢ : نحن الآن في جهات مليه وسرثال نحرق كل الحيام وكل القرى وندمر كل المغاور . وفي رسالة في ٧ نيسان ١٨٤٢ : ان بلاد بني نصر جميلة جداً وهي أغنى بلاد رأيتها في أفريقيا الشمالية . لقد حرقناها كلها ودمرناها تدميراً . وفي رسالة بتاريخ ٥ مايس ١٨٤٢ : اننا قلما ندخل في معارك ونحن دائبون على نهب المساكن وتدميرها . وفي رسالة بتاريخ ٥ تشرين الاول ١٨٤٢ : ها أنا محاط من كل الجهات بالسنة النيران التي أشعلتها في القرى والبيوت بعد تفريغ ما فيها من مخزونات لقد جاء بعض اهلها الى الاستسلام فرفضت لاني اريد استسلاماً شاملاً وها أنا ذا مستمر في التحريق . وفي

سارلة ٢ تشرين الثاني ١٨٤٢ : ذهبت الى حُصيو وأشعلت النار في كل مكان في طريقي وحرقت هذه القرية الجميلة . وكان الجنرال بيجو قد غادرنا قبل الى مثل مهتي . وكانت النيران تشتعل فوق الجبال وكنت اشاهد ألوفاً من الجثث المتراصة على بعضها وهي تلقى في النار . انها جثث بني نصر التي حرقنا قراها ومساكنها . وفي بلاغ ارسله هذا الجنرال السفاح الى قائد فصيل له يقول : ان كل القبائل والسكان الذين لا يقبلون شروطنا يجب ان يسحقوا وان نستولي على كل اموالهم واملاكهم وأن يبادوا دون تمييز بين ذكر وانثى ، بل يجب ان لا ينبت النبات حيث وضع الجيش الافرنسي قدمه .. وفي احدى الرسائل التي أرسلها قائد هذا الفصيل الى جنراله : ان النساء والاطفال المختفين وراء الاشجار كانوا يستسلمون لنا ونحن نقتل ونذبح واصوات المختضرين والمولوبن تختلط بأصوات الحيوانات التي تجأ بجانبهم .. وفي رسالة له ثانية : اننا نبقى بعض النساء اللاتي نستولي عليهن ونبادل بعضهن بالحيول ونبيع بعضهن بالمراد .

وفي كتاب صيد الانسان الذي نشره الكونت دي هيس سيوت وردت مذكرة لصابط من ضباط الحملة جاء فيها: اننا حملنا بوميلاً مملوءاً بالآذان المصلومة من الاسرى ، وان عدد ما قضينا عليه منهم برصاص البنادق وطعنات الحراپ أكثر من أن يحصى . ومن بين هؤلاء اشخاص دلونا على مخازن للقمح وجدناها فارغة . أما المدن والقرى التي احتلناها فقد كانت محروقة منهوبة . وقد اتلفت جميع مخزوناتنا كما دمر نخيلها وأشجار مشمشها . وقد تم هذا دون اطلاق رصاصة واحدة في معركة .

ولقد كان من الفظائع التي ارتكبت بأمر من الجنرال روفنو وبامر الجنرال روفنو إبادة قبيلتي شميلة وأولاد ريا خنقاً بالدخان بالرغم عن إعلانها الرغبة في الاستسلام .

خطة الاستعمار وهدم الكلبان

وُمذ لاحت للفرنسيين بشائر نجاح حركتهم الباغية في الجزائر اختطوا خطة جعل هذا القطر مستعمرة إفرنسية محرومة من أي لون من ألوان الحكم الوطني . فأنشأوا إدارة مدنية لتنظيم مصالح الحكومة تحت إمرة القيادة العسكرية . وكان من أول ما فعلوه وضع اليد على املاك ضباط وجنود الجيش الجزائري وأراضيهم في السهول الحصبة المحيطة بمدينة الجزائر وإقطاعها للمستعمرين الأفرنسيين الذين صحبوا الحملة . ثم أخذوا يشجعون غيرهم على الهجرة إلى الجزائر ويقطعونهم الأراضي مجاناً أو يهبثون لهم شراءها بأبخس الأثمان . وكان شعارهم الفتح بالسيف والمحرث معاً . وكان كل مستعمر يعد جندياً رديفاً فيسلم له السلاح والارض ووسائل العمل معاً ، فلم تنته مقاومة الأمير عبد القادر عام ١٨٤٧ حتى كان عدد المستعمرين مئة وعشرين ألفاً ! وقد سنت السلطات قوانين للخدمة الاجبارية توجب العمل الاجباري على الجزائريين في كل مشروع عام تعلقه ، وبالاجرة التي تقدرها تحت طائل العقوبة على الممتنعين ، واعتبرت العمل في مزارع المستعمرين من المشاريع العامة فيسرت بذلك لهؤلاء بالاضافة الى الأرض المجانية اليد العاملة الرخيصة والتحكم بأجورهم تحكم السادة بالعبيد .

التجارب الفاشلة والثورات

وفي السنة التالية لاستسلام الامير قررت الجمعية الوطنية الافرنسية إعتبار الجزائر أرضاً إفرنسية وتطبيق شرائع فرنسا عليها ولكنها لم تمنح الحقوق السياسية إلا للافرنسيين المستعمرين فقط ، وهو ما لا يمكن أن يدخل في منطق غير منطق الاستعمار الافرنسي الذي اختط خطته الرهيبة . فالجزائر إفرنسية ولكن الجزائريين غير إفرنسيين . وهذا يعني أن قرار الجمعية هو جعل الجزائر ملكاً للشعب الافرنسي رضىً وسكناً !! وقد ظل الجزائريون بعد هذا القرار تحت

كابوس الحكم العسكري الارهابي ، كما كان يثير القبائل حيناً بعد حين ، حيث ثارت قبائل الجرجرة ثم قبائل أرلاد سيدي الشيخ واستمرت ثورتهم مدة طويلة كلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والخسائر .

ولقد جنح الامبراطور نابوليون الثالث إلى التنفيس عن العرب وتهدة خواطرهم أثناء ثورات القبائل العنيفة ، فأعلن أنه إمبراطور العرب كما هو امبراطور الافرنسيين ، وأن العرب يجب أن يلقوا العدل والمساواة أسوة بهؤلاء ، وأصدر بعض الاوامر والتشريعات التي تنسق مع هذا الاعلان وتؤدي إلى قيام حكومات محلية وطنية ، فثارت ثائرة المستعمرين ورجال السلطة الافرنسية في الجزائر ، وأقاموا في سبيل تحقيق عزيمة الامبراطور العراقل . وكان أن اشتبكت الحرب بين فرنسا والمانيا عام ١٨٧٠ وأن سقطت الامبراطورية وقام عهد الجمهورية الثانية ، ورأت هذه أن تكون الجزائر دار هجرة وإستعمار للنازحين عن الازراس واللورين فكان في كل هذا القضاء على تلك البادرة التنفيسية ، وأخذ سيل المهاجرين يتدفق على الجزائر فيقطعون الاراضي ويمنحون ما يحتاجون اليه من وسائل العمل مجاناً ، حتى لقد أنشيء بين سني ١٨٧٥ - ١٨٨٠ نحو مئتي مستعمرة ، وتجاوز عدد المستعمرين عام ١٨٨١ نصف المليون .

قانونه الارهاب

وفي سنة ١٨٨١ قامت ثورة جديدة في جنوب وهران ببلاد الزاب أزعجت الافرنسيين أيما إزعاج ، غير أنهم قمعوها في النهاية واستولوا على اراضي الثوار وأخذوا يمنحونها للمستعمرين الوافدين . ثم سنوا قانوناً جزائياً ارهابياً اسمه « الانديجين » أناطوا الحكم به بالحكام الاداريين بحيث يستطيع هؤلاء أن يحكموا بالسجن لمدة خمس سنين على كل من يتفوه بما لا يليق في حق فرنسا وحكومتها ، أو لا ينفذ أمر الحراسة أو يتهاون فيه ، أو يتنعم عن تسليم وسائل النقل والمونة والماء والوقود بالتسعييرة التي يضعها الحكام ، أو يسهو عن قيد المواليذ والوفيات ، أو لا يحترم القرارات الادارية في قسمة الارض المشاع ، أو يتأخر عن دفع الضرائب أو عن الاجابة الى دعوة المراقبين الافرنسيين ، أو يؤوي شخصاً من غير أهل

منطقته، أو يسكن في مكان غير مكان اقامته بدون إذن، أو لا يسجل قدومه ومغادرته بلداً ليست بلده ، أو يزور مقاماً من مقامات الاولياء أو يقيم له نذراً بدون إذن، أو ينشئ مسجداً أو زاوية أو مدرسة بدون إذن ، أو لا يساعد السلطات الادارية في أي شيء. تطلبه منه الخ فكان هذا القانون سيفاً صلتاً وكابوساً مفزعاً قاسى منه العرب الشدائد والحزن وسيطر الافرنسيون في ظله على مختلف مرافق البلاد .

- ٦ -

الحكم المرفى بهر الحكم العسكري

وفي اواخر القرن التاسع عشر انتهى عهد القيادة العسكرية بعد ان دام نحو ٦٠ عاماً ، وقام مقامه حكم مدني افرنسي ، وغدا اسم « فرنسا الافريقية » يطلق على الجزائر ، وصار يمثلها في البرلمان نواب وشيوخ ينتخبهم المستعمرون فقط استمراراً للجاري، والغني ما بدى بانشائه في عهد الامبراطورية الثالثة من حكومات محلية ، وجعلت الجزائر ثلاث مناطق افرنسية ، وغدت الوزارة افرنسية مصدر الحكم والسلطات بطريق الوالي العام الذي يمثلها كما غدا التشريع الجزائري يصدر عن البرلمان افرنسي ، وظل اهل البلاد في منأى عن كل ما يتصل ببلادهم من تمثيل وحكم وتشريع مع تسميتها بافريقية افرنسية وغدوها منطقة افرنسية وتطبيق الشرائع افرنسية عليهم فيها .

وفي سنة ١٩٠١ أعلنت فرنسا فصل الدين عن الدولة فأدى هذا الى ضبط كافة الاوقاف الاسلامية التي كانت تقوم بأود المساجد ورجال الدين والقضاء الاسلامي، وادخلت ضمن املاك الدولة ، وانبطت ادارة المساجد والقضاء الشرعي بمصلحة افرنسية ، وابيح منح الاراضي الواقفية للمستعمرين بأثمان بخسة جداً ولآجال طويلة الأمد .

وعلى ان فرنسا عادت فرأت أن الفرق الشاسع والتباين الكبير بين سكان فرنسا والجزائر وحالتها الاجتماعية والثقافية أشد من أن تسمح بحكم الجزائر حكماً افرنسياً بامثالا لفرنسا في التشريع والادارة .

نظام الدومنيون ومصح

فقررت عام ١٩٠١ ان تجرب فيها نظام الدومينيون البريطاني ، فانشىء للجزائر برلمان علي كما انشىء فيها مصالح وسلطات محلية متنوعة ، وجعل للحاكم الافرنسي العام مجلس خاص من سكان الجزائر الافرنسيين والعرب . غير ان التجربة كانت تقليداً مسيخاً لم تؤد الى نتيجة صالحة ، لان الافرنسيين لم يستطيعوا ان يهضموا فكرة التخفيف من السيطرة على كل شيء ، والتخلي عن شيء من الصلف ، او يفهموا حق شعب الجزائر في بلاده . وظل الوالي العام الافرنسي هو القابض على زمام الامور صغيرها وكبيرها ، ويتلقى الاوامر مباشرة من وزير الداخلية ، وظل مع هذا عدد غير يسير من دوائر الحكومة المهمة كالجيش والبحرية والمعارف والموازنة تابعة للوزارة الافرنسية رأساً ، وظل اكثر الوظائف الحكومية المهم منها والثانوي في يد الافرنسيين ، ولم يكن لسكان الجزائر وخاصة العرب المسلمين الذين هم الاكثرية العظمى اي كيان واثر ايجابي في هذا النظام الذي كان مفروضاً أنه انشىء لهم ، وكانت غالبية المجلس الخاص والبرلمان المحلي اللذين اشرك فيها الجزائريون افرنسية مع اعتبار قراراته استشارية .

التجديد الاجباري

وفي عام ١٩١٢ فرضت فرنسا الجندية الاجبارية على المسلمين ، وكان القانون يقضي بخدمة الجزائري المسلم ضعف المدة التي يقضيها الافرنسي دون ان يكون بينها اي مساواة في المرتبات والمراتب والمعاملة ، فحمل هذا خاصة مع ما كان من اضطهاد وحرمان شديدين كثيراً من المسلمين على التزوح من وطنهم الى بلاد الشام وغيرها من البلاد الاسلامية .

- ٧ -

ونشبت الحرب العالمية الاولى فأعلنت الأحكام العسكرية في الجزائر وأصلت سيف الارهاب فوق الرؤوس أشد ما كان قبلها على شدته وقد جند من الجزائريين

ربع مليون جندي ومئة الف عامل أرسلوا الى جبهات اوروبا ومعسكراتها ، وزيدت الضرائب وطرحت التكاليف التموينية الباهظة على الأهلين وحظر عليهم الاجتماعات والتنقلات وحيازة السلاح ، وانشئت المحاكم العسكرية التي كانت تصدر الأحكام القاسية لأتفه الأسباب والتهم والمخالفات .

ولقد كانت فرنسا الى هذا تغدق لهم الوعود وتبشرهم بحياة سعيدة بعد النصر ؛ فلما تم لها ذلك وقد هلك منهم مئة الف كان كل ما فعلته لهم تخفيف أحكام ذلك القانون الارهابي الذي ذكرناه وبعض الضرائب ، وتوسيع نطاق ممارسة انتخاب المجالس البلدية والمحلية والسماح بتشكيل الجمعيات المحلية واهتمامها لشؤون الأهلين ، وتوسيع نطاق التعليم بعض الشيء ، مع الاحتفاظ بأساس بقاء الجزائر ضمن افرنسييتها المقررة . على أن الروح الاستعمارية الافرنسية جعلت هذه التعديلات التافهة بدون ثمرة مجدية وظلت حالة الحرمان والاضطهاد الشديدة هي القائمة المستمرة على أشد ما يكون من بغي وسوء .

صور لما كانت عليه الجزائر الى سنة ١٩٣١

وبين يدينا كتاب لم يكتب للدعاية والتسوي . وقد طبع في الجزائر وهو موثق بالأرقام والاحصاءات والوقائع صدر عام ١٩٣١ أي بعد مرور مئة عام على ابتلاء هذا القطر بفرنسا وبعد اربع عشرة سنة من انتهاء الحرب العالمية التي أغدق الافرنسيون فيها الوعود للجزائريين يستطيع المرء ان يتبين منه ما كانت عليه حالة البغي والسوء والحرمان والبؤس التي ظل يرتكس فيها الجزائريون وهو كتاب تاريخ الجزائر للمدني . واليك مقتبسات من هذا الكتاب تصور الحالة السيئة الرهيبة التي كانت عليها الجزائر في عام صدوره .

التعليم

فالتعليم الذي ينفق عليه من ميزانية الجزائر نوعان واحد للمسلمين وآخر للأوروبيين . ونسبة الامية في المسلمين خمس وتسعون في المئة . وعدد الذين هم في مدارس الحكومة منهم ستون الفا بينما كان عدد المسلمين اذ ذاك اكثر من

سبعة ملايين وعدد الذين هم في سن الدراسة اكثر من مليون . وبعبارة ثانية ان نسبة الذين هم في هذه المدارس اقل من ست في المئة من الذين هم في سن التعليم مع ملاحظة ان هذا بعد ان وسعت السلطات نطاق التعليم بعض الشيء . وللقارىء ان يستنبط نسبة التعليم قبل هذا التوسيع المزعوم ! ومع ان مدارس المسلمين تسمى المدارس العربية فان حظ العربية والدين الاسلامي فيها ضئيل جداً ، ومناهجها افرنسية صرف . هذا في حين ان عدد الطلاب الاوروبيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم (١٣٦٠٠٠) من عدد مجموعهم البالغ (٩١٣٠٠٠) وان نسبة الذين هم في المدارس منهم اكثر من ثمانين في المئة من مجموع الذين هم في سن التعليم . وفي الجزائر عدد غير قليل من المدارس الثانوية والمتوسطة والعالية ، ولكن جل مقاعدها مخصص لابناء الاوروبيين ونصيب المسلمين فيها ضئيل جداً ، وتعليم اللغة العربية والديانة الاسلامية لا يدخل في مناهج هذه المدارس .

وفي الجزائر جامعة تحتوي أربع كليات للطب والصيدلة والعلوم والآداب والحقوق ، وجل مقاعدها مخصص لابناء الأوروبيين وليس فيها من أبناء المسلمين إلا (٧٥) طالباً .

ومست الحاجة إلى قضاء شرعيين فأنشئت مدرسة لتخريجهم ضيقة النطاق ضعيفة المنهج والروح ولم تكن تتسع لأكثر من مئة طالب .

وقد أنشئت بضع مدارس مهنية ابتدائية جاءت ضيقة النطاق ضيقة المنهج والروح كذلك ولم تأت بفائدة عملية ومثمرة .

ومع انه هناك عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية للبنات إلا انها هي الأخرى تكاد تكون محتكرة للبنات الأوروبيات وحظ الفتاة الجزائرية فيها قليل جداً او يكاد ان يكون معدوماً .

وقد وضعت العراقل المتنوعة في وجه ابناء المسلمين الذين يرغبون في إرتياد مناهل العلم في فرنسا وغيرها ، فكان الذين يتيسر لهم التغلب على هذه العراقل أو التهرب منها يعدون على الاصابع .

هدف التعليم

وهدف التعليم الرسمي لأبناء المسلمين هو تنشئة أجيال متفرنسة لا تعرف العروبة والاسلام . ويتحقق هذا الهدف بمن يخدمون الجندية منهم حيث يقضون مدة طويلة في أوساط إفرنسية . ويبذل المسلمون الذين هم شديدو التمسك بعروبيتهم وإسلامهم جهوداً عظيمة في مكافحة هذا الهدف مندفعين بقوة الغيرة على المقدسات والتقاليد والكيان بما ينشئونه من كتابات عربية ومدارس قرآنية مسجدية على شدة ادقاعهم وضعف تنظيمهم . وقما يناولون مساعدات مالية من السلطات في هذا السبيل مع ان هذه السلطات تتصرف بأموال الأوقاف الاسلامية ، وكل ما هناك ان جامع الزيتونة الذي يشبه في نظامه جامع الازهر يبذل جهوداً عظيمة في حفظ العروبة والاسلام والكيان .

الحالة الصحية

والحالة الصحية عند المسلمين سيئة جداً . والفقر المدقع الذي ترتكس فيه غالبيتهم العظمى من أهل المدن والقرى وعمال المدن يحول بينهم وبين التطب والعلاج . ومن ثم فإن الامراض الحبيثة والوبائية تفتك فيهم فتكاً ذريعاً دون مبالاة من السلطات . وقد ذكر أحد الكتاب الافرنسيين أنه تقدم في مدينة الجزائر سنة ١٩٢٧ (١٨٦٠٧) شباب للجندية منهم تلبية للدعوة فوجد أن (٨٢٦٨) منهم لا يصلحون للخدمة بسبب سوء حالتهم الصحية . وكذلك وجد من (٨٤٨٤) ممن دعوا إلى الخدمة في مدينتين أخريين (٣٤٤١) لا يصلحون لها . واستدعت السلطة عام ١٩٢٣ في وهران (١٤٦٤٢) للخدمة فوجد بينهم (٥٤٤٦) لا يصلحون لها منهم (٢٦٧٣) بسبب ضعف البنية وانحطاط القوة و (١٦٥١) بسبب امراض العيون و (٢٥٣) بسبب السل و (٣٦٨) بسبب الزهري و (٢١٨) بسبب الحمى المزمنة و (٢٥٣) بسبب الانحلال الجسمي الناشئ عن عدم كفاية التغذية . والمدن والأرقام المذكورة أمثلة يقاس عليها سائر الأماكن بطبيعة الحال . وقد كانت نسبة الوفيات في الاطفال عام ١٩٢٥ كما نشر في تقرير رسمي (٤٤) في الالف عند

الاوروبيين بينما كانت عند المسلمين (١٣٨) . ولقد انشأت السلطات (٩٧) مستوصفاً للأهالي وصفها كاتب إفرنسي بقوله انه لا يستطيع ان يصف حالتها اي قلم سوء بناء وقذارة وانعدام عناية وفقدان أبسط وسائل الاسعاف .

تنظيم سلب اراضي الجزائر

واراضي الجزائر الزراعية والحرجية تبلغ نحو واحد وعشرين مليون هكتار او مئتين وعشرة ملايين دونماً على تفاوت في الحصب والصلاح . وأملك الدولة والبلديات منها نحو تسعة ملايين هكتار وأملك الأهالي نحو ذلك . اما املك المستعمرين فقد بلغت نحو مليونين ونصف هكتار منها نحو مليون وسبعمئة الف وزعت عليهم رسمياً بإسم الاستعمار الرسمي بأثمان إسمية ولآجال طويلة . والباقي اشتروه من الاهالي بمساعدة السلطات وضغطها بالجنس الاثمان . وقيمة الهكتار الذي في يد المستعمر تقدر بخمسة وعشرين الف فرنك بينما قيمة الهكتار الذي في يد الاهلين لا تزيد عن ثلاثة آلاف فرنك بما يدل على ان ما في يد اولئك هو اجدود الاراضي واخصبها واعمرها . وعلى هذا الحساب فإن قيمة اراضي المستعمرين إثنان وستون مليار فرنك بينما قيمة اراضي الاهالي التي هي ثلاثة أضعاف ونصف هذه مساحة سبعة وعشرون مليار . وعدد المستعمرين هو (٩١٣) الفا . وقياساً على الماضي يمكن ان يقال ان قسماً كبيراً من اراضي الدولة والبلديات التي من ضمنها اراضي الاوقاف الاسلامية والتي صودر شيء كثير منها من الاهالي في مبادئ الغزوة قد تسرب الى المستعمرين خلال المدة التي انقضت بين سنة صدور الكتاب الذي ذكر هذه الارقام وهي ١٩٣١ وبين سنة ١٩٥٠ (١) والتي ظلت قوافل المستعمرين مستمرة فيها بنحوصات حثيثة ، وان عدد المستعمرين قد تجاوز المليون والرابع ، وان ثروتهم الزراعية قد تضاعفت بينما ثروة الاهلين قد تضاءلت ، وفقرهم قد اشتد كثيراً عن قبل .

(١) في خطاب القاه نائب جزائري في مجلس النواب الافرنسي في ٢٠ آب ١٩٤٧ تصديق لذلك والخطاب منقول في مناسبة آتية من هذا الفصل

الفقر المدقع

وقد ادى هذا الى ان أصبح أغلب سكان القرى والبراري عمالاً زراعيين عند المستعمرين بل وان أصبحت حالتهم شبيهة بحالة عبيد الارض في القرون الوسطى والاخيرة لا يكادون يحصلون على ما يسد الرمق ويسترد العورة . وتضع السلطات شتى العراقيين في وجه من يريد النزوح الى فرنسا للعمل فيها منهم لئلا يفقد المستعمرون اليد العاملة الرخيصة . وبما يجدر التنبيه عليه ان المستعمرين يعتمدون في اعمالهم الزراعية على رؤوس اموال متخمة تهيئها لهم المصارف والشركات والجمعيات التعاونية كما ان الآلات الحديثة تشغل حيزاً كبيراً في هذه الاعمال . ويكاد المسلمون أن يكونوا محرومين من كل ذلك . والسلطات في شغل عنهم بما أخذته على نفسها من تشجيع الاستعمار الأوروبي وترقيته وتوسيعه على حساب الضرائب التي تجبى منهم !

ومن أراضي الدولة والبلدية مساحات واسعة غابات ، غير أنها نعمة على الأوروبيين ونقمة على المسلمين ، حيث تهيأ للأولين كل وسائل الاستثمار بينما يرهق الآخرون بالغرامات والمصادرات لأثقفه الأسباب .

الكروم

وقد كاد المستعمرون يحتكرون زراعة الكروم وعصيرها ، حيث كانوا يملكون في سنة ١٩٣١ نحو مئتين وخمسين ألف هكتار ، ويستخرجون منها ما معدله عشرة ملايين هكتو لتر من الخمر سنوياً بينما لم يكذب ببقى في يد المسلمين شيء من كروم العنب . اما كروم الزيتون فقد كان المستعمرون يملكون في تلك السنة نحو نصفها .

المعادن

وفي الجزائر معادن ومناجم كثيرة وغنية من فسفات وحديد وزنك ورصاص ونحاس وزئبق ونفط ورخام وفحم وجص . واستثمار هذه المعادن محتكر في يد

الأوروبيين . وقد كان عدد الامتيازات التي نالوها لغاية سنة ١٩٢٧ (١٢٧) وكانت قيمة ما اسدرته شركات الاحتكار من هذه المعادن في تلك السنة مئتي مليون . وقياساً على الماضي فما لاشك فيه ان استثمار الاوروبيين لمعادن الجزائر قد اتسع وان قيمة الانتاج والكسب قد تضاعفت اضعافاً مضاعفة وكل ما للمسلمين من ثروة بلادهم المعدنية العظيمة هذه إشتغال بضعة آلاف عامل بالاجور البسيطة وبالتحكم الذي يشبه تحكم السادة بالعبيد .

الصناعة

كذلك الصناعة فان الاوروبيين قد انشأوا شركات ضخمة واسسوا مصانع عظيمة دعمتها منشآت ومصارف قوية فغدت الصناعات والمنشآت الآلية الكبيرة محتكرة في ايديهم تقريباً بحيث كان لهم في سنة ١٩٣١ (١٥٠) مطحنة كبرى و (٥٥) معجنة كبرى و (٥٠٠) معصرة زيت و (٥٠) معملا للدخان وثمانية معامل كونسروه على انواعها ومعملان للثقاب و (٥٤) معملا للدباغة و (٥٨) مصنعاً للبراميل و (١٥) معملا للاحذية و (٨١) معملا لصناعات متنوعة أخرى ! ولم يستطع المسلمون ان يجرؤوا في هذا المضمار جرياً ذا بال لقلة المال وكثرة العراقيل وكل ما لهم في هذه الحركة بضعة آلاف من العمال يعيشون على فتات المعامل الأوروبية المذكورة . وقد كانت لهم صناعات يدوية ناجحة فلم تزل المزاحمة الأوروبية والسياسة الجركية تشدد عليها حتى قضت عليها تقريباً .

التجارة

وتكاد التجارة تكون محتكرة أيضاً في يد الأوروبيين وليس للمسلمين فيها الا نصيب ضئيل . وما يصدر من الجزائر من خمر وجب وحب ومحففات وحمضيات ودخان وجلد انما يصدر عن ايدي الأوروبيين والبيوتات التجارية الأوروبية ، التي تستولي على ما ينتجه المسلمون من غلات زراعية متنوعة بالاسعار البخسة وتتولى تصديرها . وقد فتحت ابواب الجزائر على مصراعيها للسلع الافرنسية بنوع خاص

واستثنيت تقريباً من الرسوم الجمركية ، واحتكرت استيرادها البيوتات التجارية الأوروبية فغدت الجزائر سوقاً عظيمة لهذه السلع محمية من المزاحمة الأوروبية ومتحكمة في هذه السوق .

التجنس

ولقد فتح للجزائر باب التجنس الذي يسمح لهم بالتمتع بالحقوق الفرنسية . غير انه اشترط على من يريد التمتع بها ان يتعامل بالقانون المدني الفرنسي في الأمور الشخصية والمدنية من نكاح وطلاق وميراث ووصية وهبة الخ دون القانون المدني الاسلامي . فكان هذا الشرط وظل حائلاً دون اشتراك المسلمين في الانتخابات البرلمانية الفرنسية والانتخابات المحلية المحولة حقها للفرنسيين ، ودون انتفاع الموظفين المسلمين بالامتيازات الممنوحة لزملائهم الفرنسيين في المرتبات والدرجات والاجازات الخ ، ولم يستجب الى هذا الشرط الا فئة قليلة منهم . والمتبادر أن فرنسا قد هدفت في هذا الشرط الى هذه الغايات والاعتذار به عنها لأنها تعرف شدة تمسك الجزائريين بتقاليدهم الاسلامية ؛ وفي هذا ما فيه من المكر وسوء النية والروح العدوانية ، وهو مخالف للمنطق والعقل بل والحق الدولي . ولكن روح الاستعمار الفرنسية لم تكن لتعبأ بمثل هذا المثل .

وبالرغم عما يحسره المسلمون من هذا الموقف فانهم متشددون فيه كل التشدد . ويرون في الشرط انخلاعاً من ربة الاسلام والكيان العربي الجزائري كما هو كذلك حقيقة . ولقد غدا الذين قبلوا بهذا الشرط والذين ظلوا مع كل ما كان من تشويق واغراء اقلية ضئيلة كالطبقة المنبوذة بحيث لا يباهرون المسلمون ولا يشتركون في تشييع جنازاتهم ولا يوافقون على دفنها في مقابرهم . ومن الطريف ان هذه الطبقة لم تستطع في الوقت نفسه ان تندمج في المجتمع الفرنسي أيضاً حيث ظل الفرنسيون ينظرون اليهم نظراً الى الافريقي المنحط عنهم جنساً ومركزاً . وحيث ظل هؤلاء يتمتعون بامتيازات عديدة لا يتمتع بها اولئك .

نظام الحكم والادارة

ولقد قلنا في مناسبة سابقة ان تجربة نظام الدومينيون جاءت تقليداً مسيخاً وأن الروح الافرنسية المتسلطة ظلت هي السائدة في النظام الجديد، كما ظل الوالي العام من جهة والحكومة الافرنسية من جهة هما أصحاب الهيمنة على كل صغيرة وكبيرة فيه. ونقتبس هنا من كتاب المدني بعض صور لما كان في الجزائر سنة ١٩٣١ من مجالس تمثل ما قلناه وتصور مدى ما كان من تسلط الافرنسيين في هذه المجالس التي هدر فيها حقوق المسلمين الذين هم اهل البلاد .

فقد كان للوالي العام مجلس حكومة بمثابة مجلس وزراء . غير ان اعضاء هذا المجلس هم رؤساء المصالح العامة الافرنسيون من جهة وقراراتهم استشارية بالنسبة للوالي الذي هو صاحب الهيمنة العامة الشاملة من جهة اخرى . وليس في هذا المجلس احد من المسلمين .

وهناك ثلاث تشكيلات ادارية او بلدية . . احدهما « البلديات العاملة » ومهمتها النظر في كل ما يتصل بالشؤون الصحية والتعليمية والتنظيمية ورؤساء هذه البلديات افرنسيون يعينهم الوالي . ويساعدهم مجالس منتخبة مؤلفة من الافرنسيين والمسلمين ولكن عددهؤلاء لا يجوز ان يزيد عن الثلث! وحق الانتخاب لغير الافرنسيين والمتجنسين مقيد بقيود تجعل ممارسة هذا الحق محدودة جداً. ومن غرائب هذه القيود ان المسلمين يصح ان ينتخبوا افرنسيين ومتجنسين ولكن هؤلاء لا يجوز لهم أن ينتخبوا مسلمين جزائريين . . وثانية التشكيلات هي « البلديات الممتزجة » وهي اشبه بحكومات ادارية وتشمل صلاحيتها المدن وغير المدن . ورؤساؤها افرنسيون كذلك وتابعون للوالي وأساء، ويسمون مديرين او متصرفين ولهم دبذبة ومظاهر عسكرية . وسلطتهم تكاد تكون غير محدودة، وبكاد الواحد منهم يكون الحاكم بأمره . ولهم سلطات قضائية ادارية زجرية وخاصة بموجب القانون الارهابي الذي ذكرناه في مناسبة سابقة . ويساعد المدير لجنة اغلب اعضاءها افرنسيون . . والثالثة هي « البلديات الاهلية » وهي خاصة بالأطحاء الجنوبية التي يعيش سكانها حياة القبيلة . وتكاد تكون هذه التشكيلة حكومة عسكرية، حيث يرأسها قائد الموقع الافرنسي ويساعده لجنة أغلب اعضاءها من الضباط الافرنسيين.



الامير عبد القادر الجزائري

المجالس

وهناك مجالس تسمى المجالس العمومية في مراكز المديريات ذات صبغة تمثيلية مهمتها النظر في شؤون المديرية المحلية . وعدد النواب المسلمين فيها مقيد بالربع ! أما الارباع الثلاثة الاخرى فهم افرنسيون ينتخبهم الافرنسيون . وللمسلمين أن ينتخبوا إفرنسيين ولا يصح العكس .

وهناك مجلس اسمه مجلس النيابة العامة وهو بمثابة البرلمان الجزائري وله صلاحيات كبيرة في شؤون الضرائب والميزانية مع القيد ان قراراته استشارية . ويتألف من (٦٩) عضواً (٤٨) منهم افرنسيون نصفهم يمثلون المستعمرين ونصفهم يمثلون اصحاب المصانع والحرف والشركات . اما المسلمون فعدددهم واحد وعشرون

وهناك مجلس آخر يسمى المجلس الاعلى وهو المختص بالنظر في القرارات التي يصدرها مجلس النيابة المالية مع القيد ان قراراته استشارية ايضاً ، وعدد اعضائه ستون (٢٩) منهم يعينهم الوالي وهم اعضاء مجلس الحكومة وقواد الجيش واربعة من كبار الموظفين وثلاثة من الاهالي و (٣١) منهم يمثلون مجلس النيابة المالية ومجالس المديريات العمومية . ومن مجموع اعضاء هذا المجلس عشرة مسلمون فقط ، سبعة منهم في مجالس المديريات وثلاثة يعينهم الوالي !.

وفي الجزائر سبع غرف تجارية . وأعضاؤها ينتخبون من التجار المسجلين . ومع ذلك ففي نظامها قيد ينص على عدم تجاوز عدد الناخبين والمنخبين المسلمين 'عشر العدد العام لكل من الطبقتين ! وهناك غرف زراعية ، وعدد اعضاء كل غرفة (٢٢) منهم (١٦) افرنسياً ينتخبون انتخاباً من قبل المستعمرين وستة مسلمون يعينهم الوالي تعييناً !

الوظائف

ولقد قلنا ان الوظائف المهمة والثانوية محصورة في الافرنسيين . وفي كتاب المدني اسماء الوظائف التي كان يحرم على الجزائري المسلم توليتها والتي تسمى وظائف

سلطة نسردها في ما يلي كمصدق لما قلناه ولتصوير حالة الحرمان والاحتقار التي يرتكس فيها اهل هذا القطر المذكور :

كاتب عام بالولاية - نائب مستشار حكومة - مدير عام - متصرف - نائب متصرف
مستشار متصرف - كاتب عام متصرف - مراقب او مدير او مدير ثان ببلدية
بمترجة - رئيس اول بدائرة الاستئناف - رئيس غرفة عليا - مستشار عدلي -
مدعي عام - وكيل حق عام - نائب مدعي عام - نائب وكيل حق عام -
رئيس محكمة ابتدائية - نائب رئيس محكمة ابتدائية - قاضي
تحقيق - حاكم - نائب - قاضي صلح - نائب قاضي الصلح - مدير جامعة علمية -
مراقب علمي - محافظ مياه - مراقب مياه - محافظ او مراقب غابات - قابض
عام أو خاص بالخزينة الجزائرية - مدير ديوان - مراقب ديوان - مدير تسجيل
املاك الدولة ومراقب تسجيل - مدير دمغه - مدير بإدارة الضرائب - مراقب
بإدارة الضرائب - مراقب إدارة عمال - مدير إدارة بريد - مراقب إدارة بريد -
مفوض بوليس - مراقب بوليس في السكك الحديدية والمراسي ..

والذي يجري العمل عليه هو انه لا يمكن للمسلم الجزائري ان يتوظف في
الادارة الجزائرية الا قاضيا شرعيا او ترجمانا أو نفراً أو شاوِشا في البوليس أو
مراسلاً أو ساعياً أو مدرسا أو كاتباً صغيراً .. وهناك عدد كبير من الافرنسيين
يتولون هذه الوظائف التافهة أيضاً. والمرتب الذي يتناوله الموظف الافرنسي اكبر من
المرتب الذي يتناوله الموظف المسلم من نفس رتبته فضلاً عن زيادة ٣٣ في المئة
باسم علاوة الاغتراب !

القضاء

والقضاء في الجزائر منظم وفق الانظمة الافرنسية كما أن القوانين النافذة هي
قوانين افرنسية ، ولغة المحاكم هي اللغة الافرنسية . وهناك قضاء شرعي اسلامي
للنظر في شؤون المسلمين الشخصية ، وكان ذا اختصاصات واسعة ظلت السلطات
تنتقص من أطرافها حتى غدت بقانون اصدرة عام ١٨٨٦ ضيقة جداً تكاد تصبح

عدما حيث خولت محاكم الصلح الافرنسية النظر في جل الشؤون التي كانت ينظر فيها بما يتصل بالامور الشخصية والمدنية .

السياسة البربرية والتبشير

ولقد سارت السلطات الافرنسية على خطة التفريق بين العرب والبربر منذ عهد مبكر فاصدرت في عام ١٨٥٩ قانوناً يخرج القبائل البربرية من نطاق القضاء الشرعي الاسلامي ويجعلها تابعة لقضاء خاص يستمد من العرف الجاهلي رغم دينونه هذه القبائل بالاسلام وخضوعها لقضائه الشرعي أحقاباً طويلة ، ويقوم به هيئات من القبائل عرفت باسم هيئات الجماعة ، هادفة بذلك الى اثارة النغرة العنصرية في البربر وسلخهم عن الاسلام وتهيئتهم لنشاط التبشير المسيحي، الذي شجعه تشجيعاً عظيماً حتى انتشرت مراكزه في المدن والبوادي بكثرة كبيرة . وكان مما يعمد اليه المبشرون تلقين البربر أنهم أوروبيون مسيحيون في اصولهم ، وان العروبة والاسلام اجنيان عنهم !

وبما فعلته السلطات بسبيل ذلك تخصيص مبالغ طائلة للجمعيات الدينية المسيحية باسم النظر في شؤون المسيحيين الدينية ونظرة الى رفهم في احدى الاحصائيات تدل على المحابة وسوء القصد . فقد كانت مخصصات الجمعيات الاسلامية التي تنظر في شؤون المسلمين الدينية عام ١٩٢٧ (٣٣٧٠٠٠) فرنكا في حين ان عدد المسلمين يزيد عن سبعة ملايين اذ ذاك بينما كانت مخصصات الجمعيات المسيحية (٨٨٣٠٠٠) فرنك وهم اذ ذاك نحو ستمائة وخمسين الفا . وقد استولت السلطات على الاوقاف الاسلامية الواسعة القيمة وأدخلتها ضمن املك الدولة .

- ٧ -

استمرار هذه الصور الى الابد

وهذه الصور البشعة الظالمة التي كانت في عام ١٩٣١ ظلت هي القائمة تعمل الى

الآن يجدّ ودأب في تجويع الشعب الجزائري وافقاره وحرمانه وتجهيله وهدم كيانه ومقوماته على ما يستفاد من صرخات بعض النواب الجزائريين في مجلس النواب الفرنسي بين يدي مشروع نظام الاتحاد الجزائري الافرنسي الذي فكرت به فرنسا ؛ مع ملاحظة ان النواب الجزائريين المسلمين هم من المتجنسين بالجنسية الافرنسية والذين وصلوا جبالهم بجبال فرنسا فاستطاعوا ان يصلوا الى مقاعد مجلسها النيابي. وأمامنا ثلاث خطب لثلاثة منهم احداها في حالة الجزائر الاقتصادية وثانيتها في حالتها الأدبية وثالثتها في حالتها السياسية .

صرخات نواب الجزائر عام ١٩٤٧

وقد جاء في الاولى التي القاها احمد مزغنه في هذا المجلس يوم ٢٠ آب من عام ١٩٤٧ فيما جاء : ان ما يقرب من نصف الاراضي الزراعية أي تسعة ملايين هكتار من عشرين هي ملك لثمانمائة الف مستعمر بقطع النظر عن التفاوت العظيم في نوع الأرض حيث تزيد قيمة اراضي المستعمرين اضعافا مضاعفة عن قيمة اراضي الجزائريين ، وبهذا التفاوت العظيم أصبح المستعمرون هم أصحاب اجود الاراضي وأخصبها . وهم اصحاب الملكيات الكبيرة والمتوسطة فيها . فهناك طبقة منهم كبيرة العدد يتجاوز متوسط ما يملكه الفرد منهم (١٠٠٠٠) هكتار اي مئة الف دونم . وهناك طبقة منهم أقل متوسط يملكه الفرد هو مئة هكتار، هذا في حين ان طبقة قليلة العدد من المسلمين متوسط ملكيتها خمسة عشر هكتاراً - ١٥٠ دونم . أما متوسط ما يملكه الجمهور الاعظم فهو هكتاران . ولا تصلح اراضيهم على الاغلب الا للزراعة الموسمية التي تظل تحت رحمة السماء في حين أن جميع الاراضي المروية والصالحة للخضروات والاشجار المثمرة في يد المستعمرين .

وقد خصوا عدا ذلك بمجزئات المياه ومعدات الاشغال العامة التي تدفع تكاليفها ميزانية الجزائر . اما اليد العاملة فيقدمها الاهالي الذين كونت منهم تلك الاقطاعية طبقة تعد بالملايين من الفلاحين الكادحين الذين جردوا من كل شيء وحرموا من كل امل وابتاتوا عرضة للجوع والعري والتشرد ، فأصبحوا اساس المشكلة الجزائرية

فمن المليون والاربعمائة الف اسرة التي يتكون منها الجزائريون يوجد (٨٠٠) الف اسرة عمال كادحين منها ٧٠٠ الف أي ما يقرب من اربعة ملايين نسمة تتكون منها هذه الطبقة العاملة الزراعية . وقد كانت اغلبية هذه الطبقة هي صاحبة الارض والشاغلة لها تعيش بشيء من الهناء ، ويكاد المزارع يكون شريكا لصاحب الارض أكثر منه اجيراً ، ففي اقل من مئة عام تغير المجتمع الجزائري تحت ضربات هائلة تغيراً كلياً حتى بدت هذه الصورة الرهيبة لهذه الطبقة . ولقد كانت حالة سوء الغذاء التي اصاب العالم اثر الحرب هي الحالة السائدة في الجزائر قبلها ، وحالة المساكن التي تسكنها هذه الطبقة سيئة جداً وضارة بالصحة وقد تفشت فيها الامراض بسبب عوامل الجوع وسوء الغذاء والمساكن تفسياً تحيفاً وللأسل خاصة مرتع خصيب وواسع فيها .

ولا تختلف سياسة الاستعمار ونتائجها في ميداني الصناعة والتجارة عنها في ميدان الزراعة ، حيث قامت على أساس حماية الصناعة والتجارة الفرنسية .

وقد جاء في الثانية التي القاها مسعود بوقادوم : ان الاستعمار الفرنسي لم يقنع من بلادنا بالاستثمار بثروتها واقتصادياتها واستغلال شعبها بل حارب كذلك ثروتها الثقافية وميراث شعبها الروحي . ان للجزائر شخصية خاصة كونتها القرون المديدة من وحدتها الجغرافية واللغوية والتاريخية والدينية . وليس هناك ما يزعمه البعض من فرق بين العرب والبربر بل هناك شعب واحد هو الشعب الجزائري . ولقد أجهد الاستعمار نفسه كثيراً في إبادة هذه الشخصية لأنه ظن ان الشعب الذي غلب بالسلاح واستؤثر باقتصاده وحرم مقومات شخصيته سيصبح بمثابة حفنة من غبار بشري خال من الروح ومستعد لقبول كل التغيرات وانواع العبودية والرق . إنكم لا تجهلون ان الشعب الجزائري دينه الاسلام ولغته العربية ؛ وهذان هما العنصران الرئيسيان اللذان يكونان الشخصية التي يحاربها هذا الاستعمار . ومع أن معاهدة تموز ١٨٣٠ المنعقدة بين الداي والجنرال دي بورمون تحتم احترام حرية جميع السكان ودينهم وملكيتهم فانها نقضت بعد شهرين ثم ظلت تنقض . وقد وضعت الادارة الاستعمارية يدها منذ تلك السنين على الأملاك الدينية ، وغدت المساجد والمعاهد تحت تصرفها المباشر وفقد الدين الاسلامي استقلاله ، بل لقد حرم من

الحرية التي منحها مبدأ فصل الدين عن الدولة الذي اعلنته الجمهورية الفرنسية والتي يتمتع بها الدينان المسيحي واليهودي. وأبعد نكابة وبشاعة من هذا أن النفقات التي تؤدّيها الادارة للأديان غير الاسلامية تحسب على خزينة الاوقاف الاسلامية وان ما ينفق على مصالح الدين الاسلامي الذي يعتنقه عشرة أضعاف معتنقي الاديان الاخرى لا يزيد على ثلث ما ينفق على مصالح الأديان ... وكان من جملة آثار هذا العدوان أن أصبح موظفو المعاهد الاسلامية من أعوان الاستعمار الذي يبذل جهده في محاربة الدين الاسلامي ولغته ومعتقديه ، وان تعطلت مؤسسات ثقافية عديدة كانت تساعد على تثقيف ابناء المسلمين وتعليمهم مساعدة كبرى . وهكذا كان وضع الاستعمار يده على املاك الارواق بمثابة سلب صريح وخيانة صارخة ، وضربة موجعة أصابت الدين الاسلامي وحده رغم مبدأ اللادينية الذي ما انفكت فرنسا تعلنه عن دولتها في كل مناسبة . ولقد سهلت السبل امام التبشير بالنصرانية بمختلف الوسائل مها كان فيها من تحمّل للمسلمين وشعورهم . وكان المبشرون يغتنمون فرصة المجاعات والثورات لاختلاط اطفال المسلمين وتنصيرهم على اعتبار ان تنصير المسلمين هو الطريقة الوحيدة التي يمكنها تذيب الجزائريين في البوتقة الفرنسية . وإذا كانت هذه المحاولات لم تنجح نجاحها المأمول فانما مرد ذلك الى قوة رسوخ التقاليد الاسلامية في الشعب الجزائري . والى جانب هذه الجهود المبذولة لتنصير الشعب الجزائري هناك سياسة حرب مشنونة على عروبه . وقد اصبحت المدارس التي تعلم اللغة العربية نتيجة لهذه السياسة تحت اجراءات شديدة صارمة ، حتى تلك الكتاتيب التي يلقن المعلمون البسطاء فيها سور القرآن بطرقهم القديمة لم تسلم من هذه الاجراءات . ولقد كان من جملة هذه الاجراءات وجوب الحصول على رخصة ، ثم عسرت هذه الرخص كل التعسير ؛ حيث شرط على معلمي المدارس العربية معرفة اللغة الفرنسية كما اعتبرت اللغة العربية القرآنية التي هي لغة اهل البلاد لغة أجنبية فكان كل ذلك سبباً في إغلاق جميع المدارس والمعاهد والكتاتيب القرآنية والعربية !

وقد جاء في الثالثة التي القاها الاستاذ دررور : ان الحرب التي أعلنها الاستعمار الافرنسي على الشعب الجزائري تطوّرت في المجال السياسي اطرافها في المجالين

الاقتصادي والادبي فقد أنشأ الاستعمار جهازاً ادارياً تسيطر عليه الاقلية الأوروبية سيطرة مطلقة . ويقوم هذا الجهاز على الضغط المستمر المنظم على الجزائريين الذين حرموا من دستور يحفظ حقوقهم ويحمي حرياتهم والذين ليس لهم أية مساهمة جدية في حكم بلادهم ، حيث تتجمع جميع السلطات العسكرية والسياسية والادارية في يد الحاكم العام ، اما الادارة المباشرة فتراجع الى مكاتب الشؤون الاعلية التي هي تحت سلطة هذا الحاكم وإدارة ضباط متخرجين من مدرسة ييجو الاستعمارية القديمة الذين لا يعرفون غير مبدأ واحد للحكم وهو مبدأ « القوة » ومن هذه المكاتب التي سميت أخيراً تظليلاً باسم « مكتب الاصلاحات الاسلامية » يعين الضباط حكاما لمناطق الجنوب ويعين المديرون والمحائير والمراقبون الذين هم آلات مسخرة لتنفيذ سياسات الاستعمار الاقتصادية والادبية والسياسية . والمجلس الاعلى الذي هو استشاري يتكون من ستين عضواً ليس بينهم من العرب الا سبعة اربعة منهم منتخبون ! والمجلس المالي صاحب السلطات المالية يتكون من ٦٩ عضواً ليس فيهم الا ٣١ جزائرياً (١) وما تزال مناطق الجنوب تدار بادارة عسكرية وحكامها العسكريون يتمتعون بصلاحيات غير محدودة عسكرية وإدارية وقضائية . وما يزال قانون « الانديجن » الخاص بالعرب والذي وصفه احد الكتاب بأنه القضاء المرعب جائئاً على الشعب بصلاحيات النهب والاستغلال المتوحش والاستعباد وخنق الحريات وقتل الجهود والحيلولة دون اي حرية اجتماعية أو سياسية وما يزال نظام الغرامات المشتركة قائماً يرهق الشعب بمظالم حيث يفرض بموجبه على المنطقة التي تقع فيها جريمة ولم يعثر على مجرمها غرامة تبلغ أحياناً ستة وثمانية اضعاف الضرائب فضلاً عن تعرض جميع الاملاك للحجر الصارم . كذلك وما يزال نظام الغابات مرعياً وهو الذي يقاسي منه الشعب أشد انواع المتاعب والاضرار ، ومن جملة ذلك وجوب تعليق جرس في رأس كل شاة وجوب سلوك الرعاة طرقاً معينة في غدهم ورواحهم تحت طائلة الغرامات . . وقد حرم الشعب الجزائري من جميع الحريات مهما كانت أولية أو ضرورية لحياة الشعوب حتى حرية التنقل والتجول بينما يتمتع الأوروبيون في الجزائر بجميع الحريات ولهم الحقوق المطلقة في

(١) هذا العدد وذلك كان في عام ١٩٣١

تأسيس ما يشاؤون من الجمعيات والأحزاب وعقد الاجتماعات بما حرم منه الشعب الجزائري البتة .. ويستخدم الاستعمار سلاحاً رهيباً في ممارسة سيطرته وارهابه وهو ما يسميه من قبيل التواضع بالأمن العام والذي يتكون فضلاً عن الدرك والحرس المتجول وشرطة التحري والعملاء الاذئاب التابعين لمكتب الشؤون الاهلية من جيش عرمرم مستعد في كل وقت لتعطيم اي محاولة يقوم بها الشعب ليدفع عن نفسه الأذى . وقد عززت هذه القوة في المدة الاخيرة واستخدمت شرطة خاصة مهمتها مراقبة نشاط الوطنيين السياسي .. وفي حقل التعليم يسلك الاستعمار سياسة تهجيل منظمة خطيرة . فهو فضلاً عن عدم بذله اي مجهود أو عناية لنشر العلم بين العرب يقوم بحرب سافرة مستمرة لمناهضة التعليم العربي . وخطته الدائمة في التعليم الافرنسي للعرب هي حبسهم في حلقاته الابتدائية واقامة كل العقبات أمام ما بعدها .. وقد جاء في بيان القاه رئيس المجمع العلمي الجزائري الافرنسي سنة ١٩٤٤ ان مجموع الاطفال المسلمين الذين هم في سن التعليم يبلغ مليوناً واربعاً ولا يتلقى منهم التعليم الافرنسي غير مئة الف، وأن عدد الاطفال الاوروبيين الذين هم في المدارس ضعف عدد ابناء المسلمين مع ان عدد المسلمين أكثر من عدد الاوروبيين سبع مرات . وهذا يعني بعبارة اخرى ان الاطفال العرب الذين يتلقون التعليم أقل من نسبة الاطفال الأوروبيين بأربع عشرة مرة . ويخصص من الميزانية لتعليم العرب (٨٨) مليوناً بينما يصرف على مدارس الاوروبيين منها (٣٣٩) مليوناً .. والاستعمار يبذل جهده في سبيل بقاء العرب اميين ويسهر على ذلك سهرأ فائقاً لانه يعتبر تعليمهم ماساً بقدرسية امتيازاته . اما التعليم الثانوي والعالي فيكاد يكون محروماً على الجزائريين تحريماً مطلقاً . ففي جامعة الجزائر اربعة آلاف طالب ليس منهم من العرب الا مئة والباقيون من ابناء المستعمرين . وليس من جزائري يستطيع ان ينتسب الى المدارس المهنية والفنية العالية ، فجميع طلاب هذه المدارس من اولئك الابناء . وكل ما هنالك بعض مدارس مهنية ابتدائية تعلم فيها مبادئ أولية للحداثة والنجارة يستطيع ان ينتسب اليها ابناء المسلمين (١)

(١) يلاحظ مصداق القول بأن الصورة التي كانت عام ١٩٣١ وحتى الارقام ظلت على ما هي عليه بعد مضي أكثر من خمس عشرة سنة او منها ما كان تفوقاً للمستعمرين على المسلمين مثل ملكيات الأراضي.

النضال الوطني بزعامة المصالي

ومع ان السلطات قد نفّست قليلاً من كابوس الارهاب بعد سنة ١٩٣١ وسمحت في وقت ما للجزائريين بتشكيل جمعيات أهلية تنشط في سبيل حقوق المسلمين وشؤونهم ، وأن هؤلاء سارعوا الى الانتفاع من الفرصة فأنشأوا بعض الجمعيات ، وأخذوا يرفعون اصوات الشكوى من جور القوانين وسياسة التجهيل والافقار والحرمان من كل مشاركة مجدية في الحكم والادارة ومن استمرار تدفق المهاجرين وتوطيئهم في الأراضي الصالحة والاعداق عليهم من أموال الدولة وتفضيل المستعمرين في كل شيء ، والسير بخطوات واسعة في سبيل سلخ الصبغة العربية الوطنية الاسلامية عن الجزائر الخ ، وأنه نتج عن هذا ايفاد لجنة تحقيق عام ١٩٣٢ لدرس الأوضاع فلمست كل اسباب الشكوى فيما قدم لها من أرقام وتقارير وشاهدته من وقائع ؛ فان السياسة الغاشمة المرسومة ظلت هي الدستور النافذ بتأثير رجال الاستعمار في فرنسا والجزائر دون مبالاة بالشكوى والواقع الأليم المرير على ما هو ثابت من صرخات نواب الجزائر التي اقتبسنا منها ما اقتبسناه آنفاً ؛ فكان هذا بما دفع الوطنيين الذين كوّنوا كياناتهم القومي الوطني بزعامة زعيمهم الكبير المصالي الى خطوة جريئة وصريحة تصح أن تكون موقفاً حاسماً من مواقف النضال الوطني السياسي الصريح ، وإعلاناً لولادة الحركة العربية القومية في الجزائر .

اعلامه ميدانه الاستقلال وأثره

كذبت كل ما منت فرنسا به نفسها وظنت أنها حققتة في الجزائر حيث عقد مؤتمر عربي في سنة ١٩٣٧ شهده اصحاب الشأن والكلمة والبروز من رجال المسلمين وشبابهم تقرر فيه إعلان الجزائر وطناً عربياً مستقلاً وبطلان كل ما فرضته فرنسا من أنظمة وقوانين وجهاز حكومي وإفرنسية الجزائر ، وأذيع بذلك بيان قوي هز الافرنسيين هزاً عنيفاً وجعلهم يحزن جنونهم ويتقومون بحركة ارهاب واسعة

وعنيفة حيث أعلنوا الأحكام العسكرية واعتقلوا الزعماء الوطنيين ومئات من البارزين وحكموا على بعضهم بأحكام قاسية، ونفوا بعضهم الى المنافي الصحراوية . وكان لحركة الارهاب هذه رد فعل شديد ظهر في المظاهرات الصاخبة والاشتباكات الدامية مما اضطر السلطات الى تخفيف غلوائها والعمل على تهدئة الأفكار ؛ ولا سيما ان حالة أوروبا قد كانت تسير من سيء الى أسوأ .

الجزائر في الحرب الثانية

ونشبت الحرب العالمية الثانية بعد قليل فاغتنمتها فرنسا فرصة لفرض رقابة عسكرية ارهابية شديدة ، وجندت في ظلها مئات الألوف من الجزائريين الذين قذف بهم الى جبهات أوروبا وحاربوا في صفوف فرنسا وأراقوا دماءهم في سبيل الدفاع عنها ولما انهارت فرنسا الأم ووقعت تحت سنايك غزاة الألمان كانت الجزائر ملجأ حركة التحرير التي رفع لواءها ويقول باسم فرنسا الحرة ، واستغلتها هذه الحركة فيما صار لها من غو وقوة؛ وبدلاً من ان يحفز هذا الافرنسيين على الاعتراف بحميل الجزائر وردة عليها ردأ كريماً شدد حرصهم على التمسك بها فأخذوا يرددون نعمة الاتحاد الافرنسي التي تهدف الى سلب أقطار المغرب العربي من كيانها القومي العربي أبديا .

استئناف النضال الوطني

فعمدت الحركة الوطنية الى النشاط ثانية على أساس بيان مؤتمر عام ١٩٣٧ وبزعامة المهدي وأخذت الروح تقوى وتنتشر؛ ولم تكده الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها في أوروبا حتى عادت الحركة النضالية الى قوتها منذ أوائل عام ١٩٤٥ ، وأخذت صرخات الاحتجاج تتعالى والزعماء الوطنيون يدعون الى الجهاد في سبيل الحركة والاستقلال والنجاة من برائن فرنسا والالتحاق بقافلة الحركة العربية العامة ، وأخذت البلاد العربية تردده هذه الحركة وتؤيد الجزائريين والمغرب العربي عامة في نضاله ومطالبه ؛ وكان قيام الجامعة العربية واشتداد قوة الحركة العربية

في ظروف قيامها بما ساعد على هذا التردد وأحدث أثراً في اشتداد ساعد المغرب
وحر كته .

الانفجار الثوري

وتجهت فرنسا واشتدت في المطاردة والكبت، فأدى ذلك الى انفجار شديد في
مناطق قسنطينة وسطيف وغيرها حيث كانت اشتباكات دموية خطيرة اشترك فيها
الألوف وبدأت عليها علامات ثورة لاهبة واسعة المدى ؛ وقد عمدت فرنسا الى
ما اعتادته من قوة القمع والتنكيل فقصفت مناطق الثورة بالطائرات والمدافع
ودمرت عدداً كبيراً من القرى والأحياء وذهب ضحية هذا القمع القاسي أرواح
آلاف من الجزائريين قدرتهم الاحصاءات المغربية الوطنية بما يتراوح بين الثلاثين
والخمسين الفا واعترفت السلطة الافرنسية ببضعة آلاف من القتلى والجرحى وتدمير
اربعين قرية كنتيجة له .

على ان نشاط الجزائريين النضالي لم يخمد وشعلتهم المتقدة لم تنطفئ، وتصيبهم
إزداد شدة على شدة بالرغم مما ترتكبه فرنسا في القمع والتنكيل ما لا يكاد يصدق من
فنون القسوة والبطش والانسلاخ من شعور الانسانية والرافة والحق والمنطق ؛ بما
عانت شيئاً منه سوريا ولبنان على ما ذكرناه في الفصول السابقة . وهكذا يصح
ان يقال انه بدأ في الجزائر عهد جديد للنضال القومي العربي ضد العدوان والبغي
والجمود وسوء القصد الذي تعرضت له وتعرضت به الحركة العربية فيها بالتبعية من
فرنسا ، وغدا للجزائر مطلب قومي عربي وشعار قومي هو التحرر من ربقة فرنسا
والاستمتاع بالاستقلال والحرية والشخصية والالتحاق بالحركة العربية العامة
والاندماج في اهدافها ، وسرت هذه الروح الى مختلف طبقات المسلمين حتى للذين
تجنسوا بالجنسية الافرنسية واندجوا في الحياة الافرنسية السياسية قليلاً او كثيراً
حيث رأينا نوابهم في البرلمان الافرنسي يرسلون تلك الصرخات الداوية منددة بحكم
فرنسا وعهدها وظلمها وسوء قصدها نحو عروبة الجزائر ومقوماتها الروحية ومصالحها
الاقتصادية وكيانها القومي .

ضربة نائب جزائري آخر يضرر أنه الحركة انتضالية هي حركة استغلاية عربية

ولقد جاء هذا قوياً صارخاً في الخطاب الذي القاه الدكتور الامين دباغين النائب الجزائري في مجلس النواب في ٢٠ آب ١٩٤٧ كتتمة للصرخات التي ارسلها زملاؤه الثلاثة بسبيل رفض مشروع الاتحاد الافرنسي عبر فيه عن مدى الحركة النضالية وغايتها الصريحة وشدة صلتها بالحركة العربية القومية حيث هتف قائلاً :

ان اخوانه الذين سبقوه في الكلام قد بينوا مامله الاستعمار في بلاده المنكودة من كوارث حقيقية من مختلف النواحي ؛ غير انه من الخطأ الجسيم أن يظن أحد بأن رغبة الشعب الجزائري في الاستقلال قد نتجت من فشل هذا الاستعمار في مهمته المادية ؛ إذ ان معنى ذلك انه لو كتب له النجاح في الميدان المادي وتحسن من جراء ذلك مستوى الحياة للشعب الجزائري لكان كافياً لغض نظره عما سببه من ضياع شخصيته وسيادته وثقافته ؛ فلا يجوز ان يظن أحد صواب ذلك ، ولو فرضنا ان فرنسا تمكنت من تحقيق المعجزات في ما تسميه « مستعمراتها الجزائر » ولو فرضنا ان جميع الاضاليل التي يتاجر فيها لفائدة الاستعمار اصبحت حقائق قائمة ، ولو فرضنا ان الشعب الجزائري الذي يزعم هذا الاستعمار انه لم يكن سعيداً في عهده الاستقلالي السابق قد أصبح بفضل الغزو الافرنسي أرقى الشعوب ثقافة وأجودها صحة وأكثرها رخاءاً فإن كل هذا لن يغير شيئاً من نضاله المستميت في سبيل استعادة استقلاله وسيادته ! ارجو ان لا تنسوا ان الشعب الجزائري أمة بذاتها وانه كان ذا سيادة ، وان عدوان عام ١٨٣٠ هو الذي افقده سيادته ! إن هناك ميلاً الى تناسي هذه الحقيقة بما يتكرر من التوكيدات بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا وانها مجموعة ترابية من الجمهورية الافرنسية ؛ غير ان هذه دعاو من جانب واحد لا تقوم على اساس ، وهي دعاو باطلة تكذبها جميع الحقائق التاريخية والجغرافية والجنسية التي لا تحمل اي مرأ . فقد كانت الجزائر بلداً مستقلة ذات سيادة يسكنها شعب عربي له خصائصه وتقاليده القومية ؛ وكانت دول الارض بما فيها فرنسا تعترف بذلك وتعمد معها المعاهدات المتنوعة وتقف منها موقف الند من الند . ولما اعتدي عليها عام ١٨٣٠ كافحت كفاحاً شديداً دام نحو ثلاثين سنة

وقد امت من الضحايا ما يقرب من المليونين في المعركة . وإذا كان قانون الكثرة وتفوق القوة قد جعل مصير الحرب ضدها فليس معنى هذا ان حقها في الاستقلال قد سقط وبطل او أن ذلك قد اعطى فرنسا الحق بأن تدعي بأن الجزائر ارض افرنسية وبأن تفكر في فرض اي نظام تشاء عليها . وليس من فرق بين الجزائر وبين اي امة غزاها هنار او غيره من قبله كبولونيا وشكوسلوفاكيا ، ولم يغير هذا الغزو شيئاً من حقيقة الامر ، وها هو الاستقلال والحرية يعودان الى هذه الأمم ، والامر بالنسبة للجزائر سواء بسواء . فهي دولة خاضت ببطولة نادرة حرباً خسرتها ، ولكنها لا يمكن ان تقبل بحال ان تكون نهاية تلك الحرب هي نهاية سيادتها لانها تسترجع حريتها من جديد وتعود الى ما كانت عليه . ولا يخامرها ادنى شك في ذلك إن قرناً من الاضطهاد لم يفقد الجزائر شخصيتها ولم ينل من تصميمها المنحرف دائماً . وهذا هو السبب الذي من اجله لا يمكننا نحن الجزائريين ان نقبل بأي حل لا يحقق قبل كل شيء احترام هذه الشخصية وحريتها ثقافتنا العربية وخاصة ضمان استرجاع سيادتنا القومية ضماناً مطلقاً ! ان الدافع للعدوان عام ١٨٣٠ إنما كان الطمع في الغنيمة والغزو ، وحل القضية الطبيعي والحالة هذه هو جلاء القوات الافرنسية عن الجزائر وإعادة اراضيها المقتصبة الى ذويها الشرعيين ومدارسها الى ثقافتها العربية ومساجدها الى دينها الاسلامي . وليس لفرنسا مطلقاً ان تفرض على الجزائر اي قانون ونظام ؛ وان هذا هو ما تقاومه الجزائر وترفضه بكل قواها ، لان شعبها يعتبر نفسه هو وحده المالك لحق تقرير مصيره واختيار نظمه الخاصة التي يديرها سياسته ، ويعتبر ان اعترافه بأي حكومة ولو فرنسا بحق منحه النظم والشرائع هو اعتراف منه بالأمر الواقع الذي اوجده الاستعمار في بلاده ضد حقوقه المقدسة ومصالحه الحيوية ، وتنازل منه عن سيادته الوطنية وهذا ما لن يحدث ابداً . وقد حملنا هذا الشعب نحن النواب الوطنيين الجزائريين مسؤولية تبليغ الشعب الافرنسي والعالم بأجمعه بأن بلاده لا تعترف بهذا الأمر الواقع الذي احده غزو عام ١٨٣٠ وبأن الجزائر ليست افرنسية ولن تكون كذلك في يوم من الايام ، وبأنها لا تعترف لفرنسا بحق منحها القوانين أو سن المشاريع لها مهما كان نوعها وبأنها لن تقبل بأي حل لا يضمن له قبل كل شيء عودة سيادتها الوطنية إليها !

والخطاب طويل قوي مدعم بالحجج الدوائية والحقوقية والمنطقية ويمتلى بالتنديد القارص بظلم فرنسا وعسفا . وقد كان يقاطع من بعض النواب الافرنسيين الذين اغتاضوا أشد الغيظ من حملة النواب الاربعة الشعواء بسبيل اعلان عروبة الجزائر ورفضها لنظام الاتحاد . ومن الطريف البالغ في القحة أن بعض المقاطعين كانوا ينعتون الجزائريين ببحود جميل فرنسا ومستعمرها في ما كان من إعمار بلادهم وازدهارها ناسين ان خير هذا إنما عاد اليهم وأنه أدى الى بؤس الجزائريين وجهلهم وفقرهم ومريضهم واسترقاقهم من قبل فرنسا ومستعمرها وتهديد كياناتهم العربي والديني بالانهدام بل وهدمه فعلا إلى شوط بعيد .

الفصل الثاني

فرنسا ونونس

- ١ -

مالة نونس قبل السكبة

ومنذ أخذت قدم فرنسا تتوطد في الجزائر أخذت تفكر في القفزة الثانية ، فانجحت انظارها الى القطر التونسي أولاً ؛ وكانت تونس منذ اوائل القرن الثامن عشر تتمتع باستقلالها في ظل دولة تمت في اصلها الى العنصر التركي الذي استولى على الجزائر وتونس في اوائل القرن السابع عشر باسم الدولة العثمانية . وكانت رؤساء هذه الدولة يتلقبون بلقب الباي والباشا . وقد تمكنوا بعد فترة من الزمن من الانفراد في الحكم دون الدولة العثمانية . وتعربوا وتأقلموا هم ومن كان معهم من يمت الى العنصر التركي ، واندمجوا في القومية العربية التونسية .

وفي اوائل القرن التاسع عشر أخذت الدول الأوروبية تعترف بتونس كدولة مستقلة وتنشئ معها صلات عهدية تجارية وسياسية . وأخذ أمراؤها يسيرون في طريق اصلاح جهاز الحكم وتقوية الجيش وتنظيمه وإنهاض البلاد إقتصادياً واجتماعياً وثقافياً . وقد سارت تونس في عهد امرائها أحمد باشا ومحمد باشا والصادق باشا خطوات حثيثة في هذا السبيل . ففي عهد الأول نظم الجيش وانشئ اسطول بحري وأسست مصانع الأسلحة والذخيرة ودار لصناعة السفن ، وفي عهد الثاني سن دستور حديث يقوم على المبادئ الديمقراطية بحيث سجل بذلك أولية الحكم الدستوري الحديث بين الدول العربية والاسلامية - إذ كان هذا في اواسط القرن التاسع عشر - ، وفي عهد الثالث قام مجلس تشريعي ذو سلطات واسعة ونظم

جهاز الحكم تنظيمياً عصبياً ومن قانون ضمان حقوق الفلاحين ووضع منهج خاص لتوزيع الأراضي الاميرية على سكان البادية وأصلحت مناهج التعليم ، وأنشئت المدرسة الصادقية للعلوم واللغات ، وارسلت البعثات العلمية إلى فرنسا وإيطاليا وغيرها ، كما استقدم خبراء أجانب وسمح لرؤوس الاموال الاجنبية بالنشاط والاستثمار .

التنافس بين ايطاليا وفرنسا

ومنذ بدأت تونس نهضتها هذه أخذ التنافس يشتد على الاختصاص بها بين فرنسا وايطاليا بنوع خاص . وكانت رؤوس الأموال الأجنبية والخبراء الفنيون من مجالات هذا التنافس ومظاهره كما كانت سبباً في نكبة تونس بالاحتلال الفرنسي ، حيث اخذ قناصل الدول المتنافسة يغرون الامراء بمشاريع اصلاحية ، ويورطونهم في الاستقراض بسبيل القيام بها ، ويضعون في عنق البلاد الاغلال واحداً بعد آخر . وقد أدى هذا الى فرض ضرائب مرهقة للشعب نتج عنها ثورة داخلية عنيفة عام ١٨٦٤ واضطر الباي بقوة الضغط الدولي الى قبول لجنة مالية دولية لتوحيد الديون والى رهن ايراد الجمارك مقابل وفائها . وكانت هذه الديون تبلغ عام ١٨٧٠ نحو ١٢٥ مليون فرنك . وظل التنافس قائماً بين ايطاليا وفرنسا على مرافق البلاد وامتيازات مشاريعها ، وحالف النجاح فرنسا أكثر ففازت إمتيازات عديدة بأنشاء سكك حديدية وموانئ ، ومن ثم اخذت تمهد الى تعطيل اعمال اللجنة الدولية أو عرقلتها لتزداد أحوال تونس سوءاً وتفتنع الدول بتسليم مقاليد امورها اليها . على انها لم تترك ذلك للصدف ؛ حيث أخذت تهيب الظروف المساعدة على ما تريد ولا سيما انها رأت فنصل ايطاليا يسعى حثيثاً في منافستها وبنال امتياز مصلحة البرق ويتمكن من شراء خط حديدي من شركة انجليزية بثمن كبير . ولقد كان يقع على الحدود الجزائرية بعض الاحداث الحثلية بالامن فالتحذت حادثاً منها ذريعة إلى تنفيذ عزميتها وسارعت الى تسيير بعض قواها من ناحية هذه الحدود من جهة وإزالة قوة بحرية في مينائي بنزرت وطبرقة من جهة اخرى دون ان تعبر احتجاجات الباي واعلانه استعداداه لدفع الغرامات وضمان الحدود وأمنها اهتماماً . وفي تاريخ ١٢ مايس من عام ١٨٨١ حوضر الباي في قصره في باردو وأجبر على توقيع المعاهدة التي تعرف بمعاهدة باردو .

فرض الحماية على تونس ومعاهدتها ومخطوات فرنسا الاولى

وقد نصت هذه المعاهدة على حق فرنسا باحتلال الأماكن التي ترى احتلالها ضرورياً لحفظ الأمن وتأمين الحدود ، على أن ينتهي الاحتلال حينما تتفق السلطتان الحربيتان الفرنسية والتونسية على قدرة الحكومة الوطنية على تأمين الأمن ؛ وتعهدت فرنسا فيها بتنفيذ المعاهدات النافذة بين تونس والدول الأخرى وتمثيل تونس ورعاية مصالح رعاياها في البلاد الأجنبية من قبل ممثليها وقناصلها ؛ وتعمد الباقي بعدم إبرام أي عقد ذي صبغة عامة مع دولة أخرى دون علم فرنسا وموافقتها . ولم تكتف فرنسا بما فرضته في هذه المعاهدة من شروط ونصوص تنطوي على القضاء على سيادة تونس ، بل أجبرت الباقي في نفس السنة على إصدار مرسوم باعتبار المقيم الفرنسي العام - المندوب السامي - الذي سيمثل فرنسا في تونس وزيراً للخارجية كما أجبرته بعد سنتين على توقيع معاهدة أخرى نصت على الاعتراف بحماية فرنسا والتعهد بالقيام بالإصلاحات الإدارية والعسكرية والمالية التي ترى الحكومة الفرنسية فائدة لها ؛ وخطت بعد سنة أخرى خطوة خطيرة حيث ذهبت إلى تأويل المعاهدتين تأويلاً لا يتسق مع النصوص ، وعمدت إلى التصرف بالأمر تصرف الدولة تجاه ولاية من ولاياتها ؛ فأصدر رئيس الجمهورية مرسوماً بمنح المقيم الفرنسي العام نيابة عن الحكومة الفرنسية حق المصادقة على ما يصدره الباقي من أوامر ومراسيم وعدم نفاذ أي شيء يصدره من دون موافقته . وهكذا حلت فرنسا محل الدولة ، وأتاحت لنفسها حكم البلاد حكماً مباشراً وجعلت مقيمها الحاكم الأعلى والأمر المستبد فيها بغيّاً وعدواناً وبقوة الحديد والنار .

- ٢ -

الثورة ضد الحماية

على أن تونس لم ترضخ للواقع . فهاج الشعب منذ وطئت أقدام القوى الفرنسية أراضي بلاده وازدادت هياجه مذعماً أن الباقي إنما أجبر على ما وقع إجباراً ،

فلنشتب الثورة وعمت جميع أنحاء البلاد؛ حينئذ أخذت النجديات تتوارد وأخذت السلطات الافرنسية تشد في القمع والتنكيل وكانت معارك طاحنة استمرت بضعة أشهر واشتهرت القيروان وسوسة وقابس والقلة الصغيرة وزغوان وتستور و صفاقس خاصة بمقاومتها الضارية وبسالتها وضحاياها . وقد حوصرت الاخيرة حصاراً شديداً براً وبحراً ودمرت تدميراً .

ومع أن القوة غلبت الحق في هذه المعارك التي انعدم فيها التكافؤ فقد ظلت المنطقة الجنوبية خاصة تقاوم القوة الغاشمة بزعامة قائدها الكبير علي بن خليفه نحو ثلاثين عاماً أي الى سنة ١٩١٠ كما ان الشعب التونسي ظل يعلن رفض الحماية التي فرضت عليه بالقوة ويقاومها بكل وسيلة استطاع اليها سبيلاً من ثورات واحتجاجات وحرركات وطنية ومواقف ثمرية ومؤتمرات قومية ، ولم يدع فرصة تمر دون أن ينتهزها في إعلان إرادته وتوكيد رفضه والسعي للتخلص من النير الذي وضع في رقبتة بغياً وطمعاً واستناداً الى تفوق القوة ، بالرغم مما عمدت اليه فرنسا وظلت تقارسه من القمع والتنكيل والدس والتفريق والاضطهاد والارهاق والتشريد والتشريع في سبيل إخضاع هذا الشعب العربي الأبي .

خطة الاستعمار وهدم الكيان

وبما كان يزيد من شدة الكفاح والمقاومة القومية العربية أن فرنسا استهدفت في تونس نفس الهدف الذي استهدفته في الجزائر وهو قلبها الى مستعمرة افرنسية وتبديل وجهها العربي المسلم بوجه إفرنسي مسيحي ، وانها ظلت تبذل جهودها العظيمة طيلة المدة الطويلة التي مرت والتي تقرب من سبعين عاماً في الوصول الى هذا الهدف وخاصة عن طريق فتح أبواب تونس للمستعمرين ، ونزع أراضي العرب بمختلف الأساليب وإقطاعها لهم ، وتهبئة أسباب استقرارهم وتحكمهم في مختلف شؤون القطر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتشريعية والتنفيذية والثقافية وتسويد اللغة الافرنسية بحيث كادت تصبح لغة الدولة، ومحاربة اللغة العربية والدين الإسلامي بكل الوسائل ، وإبقاء أهل تونس في اضرار حديدي من الجهل والفقر والمرض !

الحكم بعد المجازة

ولقد كان في تونس قبل النكبة حكم دستوري ديمقراطي تقوم على أساسه سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية على ما ذكرنا في مطلع الفصل . فكانت من أول ما فعله الافرنسيون لاصلاح شؤون تونس إلغاء الدستور وحل المجلس التشريعي وحكم البلاد حكماً فردياً إستبدادياً . وقد ستروا بهم المباشرة في الحكم بنقل السلطات إلى يد الباي الأسير الذي قيدوه بقيوده جعلت هذه اليد صورة لا تتحرك إلا بما يريدون ، سواء كان ذلك في الشؤون التشريعية أم الاذارية أم المالية أم القضائية . وحينما توطدت أقدامهم وكثر المهاجرون والمستعمرون أنشأوا مجلساً إستشارياً خاصاً بالافرنسيين لتنسيق جهود الجاليات الافرنسية والمصالح الحكومية التي يسيطر عليها الافرنسيون في صدد توطين المهاجرين وتأمين مصالحهم وسيطرتهم على الشؤون الزراعية والتجارية والصناعية . ومع انه أدخل في هذا المجلس مؤخراً عنصر تونسي فقد جاء هذا على منتهى ما يمكن من الاستهتار حيث جعل عدد اعضاء المجلس (٥٢) منهم (٣٦) إفرنسيون ينتخبون إنتخاباً من الجاليات الافرنسية و (١٦) تونسيون يعينهم المقيم العام تعييناً ... وتعال الأصوات المستكرة لهذا الوضع العجيب فأنشئ مجلس جديد باسم المجلس الكبير ، غير أنه حفظت الأكترية فيه للافرنسيين فضلاً عن جعل قراراته منوطة بمصادقة المقيم العام وموافقة الحكومة الافرنسية !

وعلى كل حال فقد ظل المقيم العام صاحب السلطة التشريعية حيث كان وما زال هو الذي يهيئ المراسيم ويحمل الباي على توقيعها . وما يوقعه الباي بسبب ما يصدره هو بصفة قرارات ولوائح تكون في منزلة واحدة مع المراسيم مع أنها في الاصل تفسير لها .

الادارة

ولقد كان يتولى السلطة التنفيذية قبل النكبة مجلس وزراء ، فشلت السلطات يد هذا المجلس ، ووضعت بجانب كل وزير مديراً إفرنسياً بيده السلطة النافذة ، وأحدثت منصباً باسم أمين السر العام مرتبطاً بالمقيم العام وربطت به المديرين الافرنسيين المذكورين ، فغدا أمين السر العام والمديرون هم المباشرين للسلطات التنفيذية فعلاً وغدا المقيم العام بمثابة الرئيس الاعلى لهذه السلطات ، فضلاً عن أنه كان رسمياً يشغل منصب وزير الخارجية على ما ذكرناه قبل . وهكذا جمع المقيم العام بيده جميع السلطات الاجرائية الداخلية والخارجية ، اما الوزراء التونسيون فليس لهم من كل مناصبهم إلا الأسم والمرتب . ويقتصر عملهم على جلسة في كل شهر يدعوهم اليها المقيم العام باسم مجلس الوزراء ، تها مواضيعها وقراراتها من قبل أمين السر العام ، فضلاً عن أنها ذات صفة إستشارية ... ومع أنه أدخل شيء من التعديل على هذا النظام عقب الحرب الأخيرة نتيجة للحركة الوطنية حيث منح مجلس الوزراء والوزراء التونسيون بعض الصلاحيات إلا أنه جعل للمديرين الافرنسيين حق حضور هذا المجلس والأشتراك في الرأي فيه ، وأبقى لهم حقهم الأول بحيث لا تأخذ الأوامر والرسائل التي يصدرها الوزير صفة قانونية وتنفيذية الا بعد توافقهم عليها ، كما أبقى رابطتهم بأمين السر العام وأبقيت سلطات هذا ورابطته بالمقيم العام على ما كانت عليه من قبل .

وقد جمعت في يد هذا الموظف جميع السلطات الادارية . فهو الذي يصادق على المراسيم بعد توقيع الباي عليها ولا تنفذ الا بعد توقيعه . وهو الذي يصادق على جميع القرارات الصادرة من الوزير الاكبر وبقية الوزراء والمديرين ولا تنفذ الا بعد توقيعه . وهو الذي يشرف على هبة الموظفين وعلى المصروفات العامة . وهو الذي يضع المناهج الاقتصادية ويسهر على تنفيذها . وليس للوزراء التونسيين ان يتصلوا بالوزير الاكبر الا عن طريقه !

وهكذا كان التعديل سوريا بل شراً لأن سلطات الوزارة قبله لم تكن مفيدة

بنصوص رسمية وإنما كانت معطلة تعسفاً .

وإلى هذا فهناك إدارات تعتبر إفرنسية حيث لا يوجد لها وزارات كالأشغال العامة وإدارة البرق والبريد وإدارة المعارف، فرؤساء هذه المصالح وجل موظفيها افرنسيون .

وقد وضع الى جانب كل عامل اداري في القطر مراقب مدني افرنسي، وجعل لهم الامر كله فلا ينفذ شيء من اجراءات وقرارات العمال التونسيين الا بمصادقتهم ولهم نفوذ عظيم وهم مسؤولون أمام المقيم العام وحده ويمثلونه . وقد اشتهروا بجبروتهم حتى لقبوا بقياصرة الآفاق .

وقد سلخت المنطقة الجنوبية من القطر عن السلطة التونسية بالمرة ، واعتبرت منطقة عسكرية يدير شؤونها ضباط خاضعون لإدارة الشؤون الأهلية التابعة للمقيم العام . وقد امتاز الحكم العسكري في هذه المناطق بجبروته واضطهاده للسكان . والوضع العام للحكم أن الوزراء والمديرين مسؤولون أمام المقيم العام الذي يخضع لوزارة الخارجية الافرنسية ، وان فرنسا تحكم في تونس كما تحكم في مستعمرة افرنسية ضاربة بمعنى الدولة القائمة فيها وما اعترفته لها ولأهلها من حقوق عرض الحائط .

وقد ماثت دواثرها في المركز والملحقات بالموظفين الافرنسيين من جميع الدرجات استهدافاً لاضاف العنصر التونسي في الحكم وصبغه بالصبغة الافرنسية فضلاً عن ايجاد مجال الرزق لجيش جوار من الموظفين الافرنسيين بحيث كادت تونس تصبح مستعمرة موظفين افرنسيين . وقد بلغ عددهم في سنة ١٩٤٧ خمسة وعشرين الفا . وهو رقم هائل لا يكاد يصدق لولا أنه مستند الى الاحصاءات المنشورة . وتكاد وظائف التونسيين قاصرة على الدرجات الثانوية والثانوية اذا استثنينا الوظائف الحكومية العليا التي لا مناص من قيام تونسيين عليها مثل الوزارات والعمال الاداريين (الحكام الأداريون) الذين جعل المراقبون والمساعدون والمستشارون الافرنسيون هم اصحاب الشأن في عملهم . ويتقاضى الموظفون الافرنسيون مرتبات عالية وعلاوات وامتيازات متنوعة ، فضلاً عن استثمار وظائفهم في الاتراء وعن الغطسة والصلف ، بما يقاسي منه التونسيون الشدائد وبما شاهدنا بعض صوره في

سوريا ولبنان . ومن تحصيل الحاصل ان تصبح اللغة الافرنسية هي لغة التعامل والتسجيل والمراسلات والمراجعات في دوائر الحكومة وان يغدو مكان العربية فيها ضيقاً أو معدوماً ...

المحاكم

وقد أنشئت محاكم افرنسية الى جانب المحاكم التونسية، ومنعت اختصاصات واسعة ، وحرم على القضاء التونسي النظر في قضايا الأجانب والأفرنسيين والقضايا التي يكون فيها التونسيون مع الأجانب طرفاً ثانياً ، كما خصر فيها حق فصل المنازعات المتعلقة بالعقارات والقضايا السياسية . هذا فضلاً عن أن المحاكم التونسية نفسها قد نظمت وفق قوانين افرنسية وعهد براسة كثير منها الى قضاة إفرنسيين وحصرت مهام نيابة الحق العام فيها في نائب عام افرنسي ووكلاء افرنسيين وتونسيين يأتمرون بأمره . وكثيراً ما كانت المحاكم الافرنسية اداة ارهاب على الحركة القومية والنشاط السياسي حيث حصرت القضايا المتصلة بذلك فيها . فضلاً عن هذا فقد خول المقيم العام حق الامر باعتقال أي شخص لمدة سنتين قابلتين للتجديد دون أي محاكمة ، فكان هذا تنمة لاحكام نطاق الارهاب .

الارهاب

ولقد شهر سيف الارهاب والأرهاب على الحريات العامة بسلسلة من المراسيم واللوائح الظالمة . فالصحافة العربية مقيدة بقيود شديدة تجعلها معرضة لافسى العقوبات والاجناعات كذلك ، وقد قيدت حرية تنقل التونسيين في داخل بلادهم بقيود شديدة ، وقد سنت قوانين الخدمة الاجبارية بحيث يكون التونسي مجبراً على أي عمل عام تعلنه السلطات انه كذلك بالاجر والشكل الذي تراه ونحت طائفة العقوبات الشديدة . وكثيراً ما اعلنت السلطات صفة العمل العام لمشاريع استثمارية واستعمارية وزراعية تخص المستعمرين الافرنسيين واضطرت التونسيين الى خدمتها .

المستعمرون والاراضي

ولقد أنشأت السلطات الافرنسية في أول ما أنشأته ادارة خاصة باسم مصلحة الاستعمار والفلاحة وأناطت بها تنظيم توزيع الاراضي واستثمارها ، ثم أخذت تنفذ سياستها المذكورة على يد هذه المصلحة . ومن أول ما فعلته الغاء مشروع توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين الذين لا أرض لهم ، والذي بدى بتنفيذه قبل النكبة وانتزعت ما وزع منها من الفلاحين وأخذت توزعها على المستعمرين . وتبلغ مساحتها نحو مليون هكتار أي عشرة ملايين دونم ونسبتها لمجموع الاراضي الزراعية هي اثنا عشر من المئة . ثم اصدرت تشريعا ألحقت بموجبه الاراضي البور بأمالك الدولة وأخذت تعسف في تحديد هذه الاراضي وتدخل فيها مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة لها ، وتقطعها تدريجيا الى المستعمرين ايضا . وتبلغ مساحة هذه الاراضي ضعف مساحة الأولى . وفعلت مثل ذلك بأراضي الغابات التي تبلغ مساحتها نيفا ومليوناً من الهكتارات ، وتعسفت كما تعسفت في تحديد اراضي البور فأدخلت مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة ايضا . وعمدت بحراسة الغابات والاشراف على استثمارها لجيش من الموظفين الافرنسيين الذين كانوا كابوسا شديداً للوطاة والبغي على الناس في فرض الغرامات الفادحة تحت ستار الحراسة والتفتيش وحرمانهم من الانتفاع بشيء من احوالهم ! ووضعت يدها على مصادر مياه الري في المنطقة الجنوبية واعتبرتها ملكاً للدولة ثم اخذت توجه صرفها الى اراضي المستعمرين في هذه المنطقة فبشرت لهم بذلك حظاً سعيداً ببساتين النخيل الواسعة . وألحقت اراضي المشاع التي كان يتصرف فيها القبائل بأمالك الدولة ايضا وأخذت تقطع ما تشاء منها للمستعمرين ، واخذت بالحدود والثار كل حركة صدرت من القبائل بسبيل الدفاع عن اراضيهم ومورد رزقهم ، وهذه الاراضي تبلغ نحو أربعة ملايين هكتار ! ولم تتورع عن اراضي الاوقاف العامة والخاصة ، ففرضت على مصلحة الأوقاف ان تضع تحت تصرف مصلحة الاستعمار مساحة لا تقل عن الفي هكتار سنوياً منذ سنة ١٨٩٨ وجعلت لهذه المصلحة

حق اختيار الاراضي التي توضع تحت تصرفها منها مقابل ثمن بخس يقدره خبير افرنسي ، ومنعت وقف الأراضي على المعاهد الدينية وحصره بالعقارات وأباحت بيع الاراضي الوقفية دون اعتداد بالشروط الوقفية . وهكذا نظمت سلسلة نهب اراضي تونس على اختلاف انواعها دون ماردع من شرف او ضمير او حق او قانون لاحتلال المستعمرين الافرنسيين فيها محل أهلها .

ولأجل تسهيل توزيع الاراضي على المستعمرين وإستثمارها أنشأت صندوقاً باسم صندوق الاستعمار رأس ماله من ميزانية الدولة ومن قروض على حساب هذه الميزانية ! ومن الأفساط التي تستوفي ثمناً للاراضي المقطعة مع التنبيه أن ثمن الأراضي الذي كان يقدر تافه جداً فضلاً عن تقسيطه لعشر سنوات !

وقد بلغت مساحة الاراضي المقطعة للمستعمرين حتى سنة ١٩١٤ (٧٥٧٠٠٠) هكتاراً أي سبعة ملايين وسبعمئة الف دونم ومن سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٨ (١٩٧١٦٠) هكتاراً حسب الاحصاء الرسمي واستمرت هذه السياسة الباغية بنفس القياس .

والأراضي الصالحة لزراعة الحبوب في تونس تبلغ نحو ثلاثة ملايين هكتار لم يبق منها في أيدي التونسيين إلا مليون .

ولقد كان من نتائج هذا النهب المنظم العاشم ان عم الفقر بين طبقات الفلاحين وكثرت فيهم البطالة وانخفض مستوى معيشتهم وأصبحت تغذيتهم سيئة وصاروا على شفا المجاعاب التي تنتشر انتشاراً مريعاً عند أي أزمة من الأزمات .

- ٦ -

المعادن

وفي تونس معادن متنوعة ومنها ما هو غني وجيد النوع من حديد ورصاص وزنك ومنغنيز ونحاس وبروم وفوسفات وبوتاس . وقد حصرت السلطات امتيازاتها بالافرنسيين مقابل إيجار زهيد . ومن عجيب ما تصنعه أنها تمنح شركات الاستثمار المعدني مساعدات مالية من الميزانية إذا لحقها عجز مالي فضلاً عن ما تمنحها إياه من

مساعدات متنوعة . وقد كانت الصادرات المعدنية في سنة ١٩٤٦ نصف قيمة صادرات تونس ولم تقل قبل هذه السنة عن ثلثها . وما يستخرج من مناجم تونس يشغل ثلاثة أرباع حولة كل وسائل النقل في تونس . وفي هذا توضيح لأهمية الثروة المعدنية التونسية المنهوبة .

الصناعات

ولقد كان في تونس بعض الصناعات الوطنية فاستنت السلطات سياسة جمركية كادت تقضي عليها . وتوضع شتى العراقيل في سبيل إستفادة التونسيين من الآلات الصناعية الحديثة . وكان من هذه السياسة ان نالت الصناعات والسلع الافرنسية إمتيازات واستثناءات متنوعة ففدت هي المتحكمة في السوق التونسية تحكماً إستغلالياً فظيماً ، وحمت بقوة هذه الامتيازات والاستثناءات من المنافسة الأجنبية . وبما تؤدي اليه السياسة الافرنسية الاقتصادية اضطرار المنتج التونسي على ضيق نطاق انتاجه الى بيع نتاجه للتجار والشركات والمصدرين الافرنسيين بالأثمان البخسة وعدم ترك اي مجال للانتفاع به انتفاعاً حراً .

التجارة

ولما كانت التجارة والصناعة والزراعة الصالحة المنتجة في أيدي الافرنسيين فقد عمدت السلطات إلى جعل معول الميزانية على الضرائب غير المباشرة التي يتحمل اكثر عبئها المستهلكون الذين غالبهم تونسيون . ولقد بلغت هذه الضرائب في سنة ١٩٤٨ ثلاثة وسبعين في المئة من مجموع إيراد الموازنة . وهكذا ضمنت جل الغنم للافرنسيين وأعفتهم من الغرم ونظمت بهذا الاسلوب الباغي استنفاد ما في ايدي التونسيين من قليل الايراد .

- ٧ -

التعليم

ومع ضخامة أرقام الموازنة حيث بلغت سنة ١٩٤٨ نحو عشرة مليارات من الفرنكات فإن حظ المرافق العامة وخاصة المرافق العائدة للتونسيين ضئيل جداً .

فلا يحظى من اطفال العرب الذين هم في سن التعليم بمقاعد في مدارس الحكومة إلا عشرهم او اقل . ففي سنة ١٩٤٧ مثلاً كان عدد هؤلاء نحو ستين ألفاً في حين يقدر عدد الذين هم في سن التعليم بسبعمئة الف ، لأن عدد التونسيين نحو ثلاثة ملايين ونصف . هذا في حين أن عدد أبناء الاوروبيين الذين هم في مدارس الحكومة المخصصة لهم كان في هذه السنة نحو ستة وخمسين ألفاً والاوروبيون يبلغون نحو ربع المليون ! ومنهج التعليم في المدارس الحكومية العربية إفرنسي صرف لا يكاد يوجد فيه للعربية والدين الاسلامي مكان تمشياً وراء فكرة تغيير الوجه العربي الاسلامي من تونس وجعله إفرنسياً .

وتضع السلطات شتى العراقيل في سبيل محاولات التونسيين لتلافي النقص والخطر بجهودهم الخاصة على سوء حالتهم المادية وضعف وسائلهم . وقصارى ما يمكنهم إنشاء عدد محدود من المدارس الابتدائية في المدن وبعض الكتاتيب الأولية في القرى والبرادي لا تتلافى إلا شيئاً ضئيلاً من ذلك النقص والتقصير . ومع انه يوجد بعض المدارس الثانوية في تونس إلا ان جل مقاعدها مخصص للفرنسيين كما ان منهجها إفرنسي ومكان العربية فيها ضيق جداً ولولا المدرسة الصادقية الثانوية التي تعيش على اموال الوقف لما كان هناك شباب تونسي مثقف بعض الشيء بثقافة عربية اسلامية . وليس في تونس تعليم عال . وتوضع العراقيل الكثيرة في وجه الذين يرغبون في إرتياد مناهله في اوروبا . وكل ما في الامر ان السلطات تسمح لبعض الشبان بالسفر الى اوروبا . في نطاق ضيق وشروط عسيرة .

وعناية السلطات بالمرافق الصحية والاجتماعية بالنسبة للعرب لا تخرج عن هذا الاطار وتلك الفكرة بما تبدو مظاهره وآثاره في انتشار امراض السل والتراخوما والبطالة وسوء المسكن والغذاء وضعف البنية والحياة البائسة التي يتركس فيها السواد الاعظم منهم ...

التجنس

وقد فتح باب التجنس للتونسيين لتجويلهم الى رعايا افرنسيين كوسيلة من وسائل الهدف الذي استهدفوه ، وجعلته مغرباً بالمنح والامتيازات وميسراً بأخف

الشروط ، في حين حرم على الأجانب التجنس بالجنسية التونسية ؛ حتى لقد اصدر
تشريع يقضي باخراج الاجانب الذين ولد اجدادهم في تونس من الرعية التونسية
والحاقهم بالجنسية الافرنية !

وقد نشط كذلك التبشير في اواسط المسلمين وخاصة قراهم وباديتهم كوسيلة
اخرى من وسائل ذلك الهدف هدف تبديل وجه تونس العربي المسلم ، ويسرت الوسائل
والحماية لبعثاته ومنحت المساعدات المالية الكبيرة ..

وقد انشئت كتائب تونسية تحت قيادة الافرنسيين وتنظيمهم على أساس التطوع
والاغراء ، وكان عددها يزداد حين الحاجة . وكثيراً ما حاربت الى جانب الافرنسيين
في اوربا وغيرها ، واستخدمت في مصالحهم ومآربهم الاستعمارية . وقد جعلت
هذه الطريقة وسيلة اخرى من وسائل ذلك الهدف حيث يكاد المتجنّد احياناً في
حياته الطويلة التي يجيها في الوسط الافرنسي والنظام الافرنسي ينسى لغته ودينه
وعاطفته !

- ٨ -

النضال الوطني

ولقد ابى التونسيون كما قلنا ما اريد لهم ولبلادهم من استعمار واذلال وارهاق
وتبديل وجه ودين ، فأخذوا منذ بدء النكبة يقفون موقف المناوى المناضل
ويقومون بالحركات الوطنية الثورية . وقد ذكرنا ما كان من ثورات عنيفة في
السنة الاولى من الاحتلال ، وما كان من ثورة ابن خليفة التي امتدت ثلاثين عاماً في
المنطقة الجنوبية ولم تقتر إلا في سنة ١٩١٠

زعامة علي باش

ولقد اخذت حركة المقاومة والنضال تدخل في نطاق التنظيم الوطني منذ بدء
القرن الحالي ؛ وكان من اول من تولوا زعامة الحركة الوطنية الزعيم علي باش . ومن

ابرز واقدم حوادث هذه الحركة مظاهرات عام ١٩١١ وما كان فيها من اشتباكات دموية بين الجماهير وقوى الاحتلال بسبيل الاحتجاج على عسف السلطات الافرنسية. وقد أعلنت السلطات الأفرنسية بمناسبة الأحكام العسكرية التي ظلت البلاد تحت كابوسها إحدى عشرة سنة؛ واضطر الزعيم وكثير من أنصاره إلى الفرار إلى خارج البلاد وخاصة إلى الأستانة فأصدرت السلطات امراً بمنعهم من العودة إلى وطنهم . وفي اثناء الحرب العالمية الاولى اعتقل اكثر من بقي من رجال الحركة او الذين يمتون اليهم . ومع ذلك فقد ثار سكان الجنوب ثانية عام ١٩١٥ وخاصة قبائل بني زبد ثورة عنيفة استمرت سنتين وكلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والخسائر والضحايا .

الحزب الحر الدستوري وزعمائه الثعالبي

رعقب هدنة الحرب العالمية نشأ الحزب الحر الدستوري واضطلع منذئذ بالحركة الوطنية ، وأخذ ينشط في سبيل تنظيم صفوف التونسيين وتوجيههم نحو غاية الحزب وهي الغاء الحماية واستعادة السيادة؛ ومن انضم إلى الحزب الامير محمد المنصف الذي ولي العرش وكان ولياً لعهد . واخذ الزعيم الثعالبي وغيره ممن كانوا في خارج تونس ينشطون ويقدمون العرائض لمؤتمر الصلح ويبشون الدعوة إلى قضية تونس وبلقون إليها الانظار وينشرون الرسائل الخ .

ولقد ضاقت الحكومة الفرنسية ذرعاً بالزعيم الثعالبي فاعتقلته في باريس وارسلته إلى تونس لهجامة بتهمة التآمر مع الاعداء؛ فأثار هذا العمل هياج الشعب ، وتفاقم الحطب حتى اضطرت السلطات إلى اطلاق سراح الزعيم ، وحينئذ تولى بنفسه قيادة حركة الحزب التي اخذت تقوى وتعم وتندثر بانفجار عام .

وتشجع الباي محمد الناصر فأخذ يؤيد مطالب الشعب ويهدد بالتخلي عن العرش إذا لم تستجب فرنسا إليها ، وتوترت الحالة بينه وبين المقيم العام حتى ارسل هذا قوة حاصرت القصر وكان ذلك عام ١٩٢٢ فهاج الشعب ايضاً وقام بمظاهرات عامة في كافة المدن التونسية حتى اوشك الحال ان ينقلب إلى ثورة عاصفة فاضطرت السلطات ثانية إلى النكوص والتهافت، وقطعت وعوداً صريحة بإجابة المطالب الوطنية . وقد

زار ميلان رئيس الجمهورية الافرنسية تونس بسبيل التهذئة ايضا .

غير أن فرنسا لم تلت ان اخلت بوعودها واخذت تسلك سبيل القمع، فعمطت الصحف الوطنية ، ومنعت الاجتماعات العامة ، واعتقلت عدداً كبيراً من رجال الحركة وشبابها. واستطاع بعضهم ومن جملتهم الزعيم الثعالبي الافلات. وكانت فترة خمدت فيها الحركة الوطنية بعض الشيء نتيجة للاضطهاد الباغي وتشتت رجال الحركة وقادتها . ولقد اجتمعنا مراراً واحياناً مدة طويلة مع الزعيم الثعالبي في فلسطين اثناء زيارته لها وإقامته فيها ، فكنا نسمع ما يديم القلب من بلاء تونس الشهيدة وشدة قسوة فرنسا ومجانبتها كل حق ومنطق في ما كانت تنتهجه من مناهج وتتصرف من تصرفات بسبيل تحقيق هدفها الباغي .

الحزب الحر الدستوري بزعامه ابي رقيه

على ان الحركة لم تلبث ان انبعثت من جديد على يد الشباب الذين اخذوا ينشطون ويملاؤن الفراغ ، وانتعشت خاصة في عام ١٩٣٠ بسبب حادثين وقعوا فيه . فقد عقد الافرنسيون مؤتمراً تبشيراً للنظر في نشر النصرانية في تونس وسائر بلاد المغرب العربي ، وكان من استهزاهم ان وصفوه كحلقة من سلسلة الحروب الصليبية التاسعة . وقد اخذت السلطات الافرنسية تستعد لحفلات كبيرة تقام بمناسبة مرور خمسين عاماً على احتلال تونس . فداعى الوطنيون الى مؤتمر كبير قرروا فيه استنكار العملين واستطاعوا ان ينشروا دعاية واسعة ضدها ويؤلبوا الرأي العام عليها ، بما اضطر السلطات الى العدول عن إقامة حفلات ذكرى الاحتلال . ولكنها لم ترد أن تبدو مهزومة فاعتقلت فريقاً من الشباب وقدمتهم للمحاكمة فثارت نائرة الشعب وقامت مظاهرات صاحبه فجذعت ثانية الى المسيرة وافرجت عن المعتقلين والغت محاكمتهم . فكان هذا مما قوى نشاط الحركة الوطنية الجديدة التي ترأسها الزعيم ابو رقيه .

وقد اهتمت السلطات سنة ١٩٣٢ لتشجيع حركة التجنس واستصدرت فتاوى من رجال الدين الموالين لها بأن التجنس لا يخرج عن الدين فتصدت الحركة الوطنية

لهذه المحاولة وعاضدها الشعب فحرب بفتاوى المشايخ عرض الحائط واخذ يمانع في دفن المتجنسين في مقابر المسلمين، وادى الموقف الى اشتباكات عديدة نفخت كذلك في الحركة الوطنية روحاً وقوة حتى ان السلطات اضطرت الى انشاء مقابر خاصة بالمتجنسين بما عد نصراً عظيماً للحركة الوطنية . وكان من اثر الضغط الروحي العام ان اخذ المتجنسون بطالبون بالعودة إلى تونسيتهم .

- ٩ -

الميثاق القومي وأثره

وقد أعيد تنظيم الحزب الحر الدستوري من جديد . وعقد القائون بأمره مؤتمراً في عام ١٩٣٣ وضعوا فيه ميثاقاً قومياً يتضمن تحرير البلاد من الافرنسيين وإستقلالها إستقلالاً تاماً ؛ وصار هذا الميثاق هو شعار الحركة الوطنية منذئذ . وقد سارعت السلطات إلى حل الحزب ؛ غير أن الوطنيين لم ينهزموا ففقدوا مؤتمراً ثانياً عام ١٩٣٥ وخرجوا منه بتنظيم حزبي جديد يقوم على أسس شعبية ونشطوا في عقد الاجتماعات العامة والتطواف في المدن والقرى والبرادي . وقد جاء في هذه الظروف مقيم إفرنسي عام فحاول تخدير الشعب بما اظهره من إستعداد للتوسعة على الحريات ولكن الحزب ظل متمسكاً بالميثاق القومي فلم يلبث المقيم العام أن نكص على عقبه وصار في سياسة مضادة لما اظهره ، وقرر القضاء على الحركة الوطنية ، فاعتقل أبرز أعضائها وقادتها ونفاهم الى الصحراء الجنوبية ، فأثار هذا العمل الشعب وعمت الاضطرابات البلاد .

القمع والاضطال السري

واعلن الاضراب وحدثت اشتباكات دموية . وركبت السلطات رأسها فاشتدت في القمع والاضطهاد والارهاب فكانت محنة قاسية استمرت نحو سنتين دون انقطاع فلما أجد الجو الدولي بالتجهم بسبب تنمر موسوليني استبدل المقيم العام ،

فجئح الجديد الى التخفيف فأطلق سراح المعتقلين ووسع على الناس في الحريات ؛ فتمكن الحزب من استكمال تنظيم صفوفه في هذه الفرصة ؛ وانتشرت شعبه بسرعة كبيرة في مختلف أنحاء البلاد ، ورافقها حركة تشكيلات الكشافة والنقابات تحت لواء الحزب ، فأصبح الشعب جميعه تقريباً مكتتلاً في تشكيلات الحزب . وعمدت فرنسا الى سياسة التخدير فأرسلت أحد وزرائها لدرس الحاله وأعلن ضرورة إصلاح الادارة ؛ ولكن الوعد ظل حبراً على ورق وظلت القافلة تسير وفق المنهج الاستعماري المرسوم ، فدعا الحزب الى مؤتمر ثالث عام ١٩٣٧ تقرر فيه خطة المقاومة والعنف ؛ فقابلت فرنسا القرار بالقمع والتنكيل واخذت تعتقل رجال الحرب أثناء تجولاتهم وتمنع الاجتماعات العامة ، فأدى هذا الى صدام ثم الى اشتباكات دامية واسعة المدى عام ١٩٣٨ ، وقامت مظاهرات عامة ظهرت فيها قوة الحزب واشتدت السلطات في القمع والمطاردة والاعتقالات ، واعلنت الأحكام العرفية وغصت السجون والمعتقلات بالوطنيين وانتشر الجيش يبعث فسادا في البلاد ، ويعتدي على الناس في الشوارع وينتهك حرمت البيوت . غير أن هذا لم يكن ليقضي هذه المرة على الحركة التي شملت جميع الطبقات وقويت شعلتها ؛ فاستمر للكفاح وأخذ يصطبغ بصبغة عنيفة لم تعرف من قبل ، وكان يزداد قوة كلما ازدادت السلطات بالعسف والبطش ؛ وكانت اضطرابات ووقائع دموية شديدة بالرغم من الأحكام العسكرية واعتقال الألوف واستمرار سياسة التنكيل والارهاب وقد عمد من استطاع النجاة من رجال الحزب الى التنظيم السري ونشر الاذاعات السرية لاذكاء الروح الوطنية ، وكان تنظيماً قوياً وثيقاً يدل على تصميم القائمين به وبراعتهم . وارسلت فرنسا لجنة تحقيق نيابية تقدم اليها وفود البلاد بطلب اطلاق سراح المعتقلين وتحقيق مطالب الشعب . وقد استمرت هذه الحركة القوية التي بدأت قبل الحرب العالمية الثانية بالرغم من اعلان الحرب .

بعد انهيار فرنسا

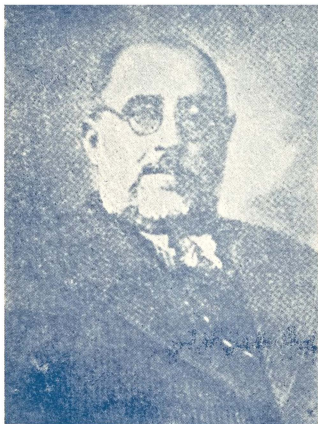
ولما انهارت فرنسا جنح عمالها الى التهاة والمسايرة بعض الشيء فتنفس الناس

الصعداء ورأى الوطنيون ان الوقت قد حان لاعلان بطلان الحماية والمناذاة باستقلال تونس . وقدم الحبيب تامر الذي تولى التنظيم السري أثناء موجة الارهاب الشديدة عريضة للباي يطلب فيها إعلان سقوط الحماية واطلاق سراح المعتقلين في البلاد وفي فرنسا كما هيئت عرائض بمائة من مختلف الطبقات وحملتها وفودهم ؛ فاعتقلت السلطات الوفود قبل مقابلتهم للباي فجدد هذا حالة التوتر وبدأت حركة تخريبية وثورية قوية ، فأعتقلت هيئة الحزب فقامت مقامها هيئة ثانية فاعتقلت فقام مقامها هيئة ثالثة وظلت الحركة نشيطة والاضطرابات مستمرة .

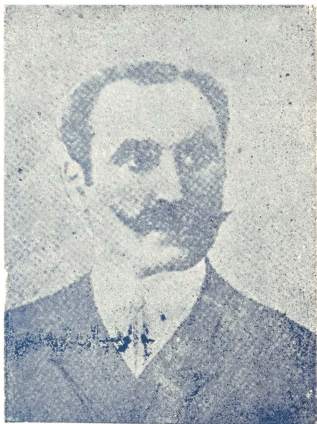
- ٩ -

وفي سنة ١٩٤٢ ارتقى العرش محمد المنصف الذي هو من أعضاء الحزب الدستوري فتعززت الحركة الوطنية كثيراً . وقد قدم الى حكومة فيشي طلباً بإحترام السيادة التونسية وإجابة رغائب الشعب التي كانت أصواته ترتفع بالمطالبة بها فوعده بالانجاز ولكنها لم تف . وكان هذا من أسباب تبييت الغدر له . ونزلت في هذه السنة جيوش المحور إلى تونس بمساعدة القادة الفيشيين ؛ وقام المعتقلون بحركة تمرد ، وتمكنوا من فتح باب السجن ولكنهم لم ينجحوا في حررهم . وقد سايرت السلطات الموقف فأطلقت سراحهم كما أطلقت سلطات المحور سراح المعتقلين في فرنسا ومنحتهم حرية الانتقال ، فذهب بعضهم الى ايطاليا والمانيا ، وكانت فرصة عظيمة للحركة الوطنية في داخل البلاد وخارجها ازدادت فيها قوة ونشاطاً وأملاً وانطلاقاً وتضامناً . وحاول الباي أن يخطو الى تحقيق المطالب القومية بنفسه ؛ ولكن الخطوة عمقت بإحتلال الحلفاء تونس وصيرورتها ميداناً من ميادين الحرب بين الحلفاء والمحور .

ووجدت السلطات الافرنسية الديغولية التي برزت تحت جناح الحلفاء والتي سميت نفسها بفرنسا الحرة كذباً وزيفاً الفرصة سانحة للقضاء على الحركة الوطنية فخلعت الباى ونفته وقامت بحركة تمعع إجماعي في كافة أنحاء القطر ، وأعدمت المئات بدون محاكمة كما أقت بالالوف في غياهب السجون والمعتقلات النائية للارهاب وإثارة الرعب .



عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي



علي باش الزعيم التونسي



الحبيب بورقيبة زعيم الحزب الدستوري التونسي

على ان الشعب لم يهن والحركة لم تنحس ، وقامت ثورات مسلحة في بعض الانحاء لتعبر عن إرادة تونس الحرة المناضلة وان لم تستطع زلزلة الافرنسيين عن جورهم وغدرهم ، ولا سيما إنهم قوراءا احرزهم الحلفاء من نصر على المحور واستعادوا بعض ما كان لفرنسا من مكانة بينهم .

- ١٠ -

وفي سنة ١٩٤٥ استطاع بعض قادة الحزب الافلات من تونس الى مصر متحملين اقصى ما يمكن ان يتحملة امرؤ في سبيل وطنه وأخذوا ينشطون فيها في سبيل الميثاق القومي .

ولقد استمرت السلطات على نهجها في البطش والقمع للقضاء على الحركة دون ما خجل ولا تورع بما اذاعته فرنسا وحلفاؤها من مبادئ الحرية ومناهضة الاستعمار وأغض الحلفاء أعينهم عن هذا الجور الرهيب لان اكثرهم كان كاذباً مضللاً فيما يذيعه . وقد تكررت الاضطرابات في تونس ضد ذلك الغدر وهذا الاغراض .

المؤتمر الكبير والميثاق القومي

وعقد رجال الحركة سنة ١٩٤٦ مؤتمراً شهده عدد كبير من علية القوم ورجال الحركة وجددوا العهد لميثاقهم بإعلان بطلان الحماية والكفاح في سبيل الاستقلال والانضمام الى قافلة الحركة العربية العامة عن طريق الجامعة العربية التي كانت قد نشأت وأخذت تمثل في دور قيامها أهداف الحركة العربية القومية ، وأخذوا وما يزالون يعملون بكل وسعهم في سبيل تحقيق ميثاقهم في الداخل والخارج دون وهن ولا كلل بالرغم مما تسلكه فرنسا فيهم من سياسة الشدة والعنف حيناً والتخدير حيناً آخر وكان من هذا الأخير التعديل المزيّف الذي ادخل على نظام مجلس الوزراء الذي ظنت فرنسا انه قد يرضي الشعب مع بعده كل البعد عن رضائه لأنه لم يعد يرضى عن ميثاقه القومي بديلاً ولا ينخدع عنه باى خدعة .

وهكذا تسير تونس في سبيل هدفها القومي وتنضم الى قافلة الحركة العربية التحريرية العامة ، وتتصارع مع قوى البغي والعدوان الذي اصبح طابعاً مشؤوماً للسياسة الافرنسية ؛ وهي صارعة له ان شاء الله بعد ان اتقدت فيها الشعلة وعمت بنورها البلاد .

الفصل الثالث

فرنسا ومراكش

- ١ -

مادة مراكش قبل النكبة

ومنذ أن أنشبت فرنسا محالها بتونس انصرفت إلى التفكير الجدي في القفزة الثالثة . أي إنشأ هذه المحالب بمراكش التي كانت تحرك مطامعها قديماً لثم بذلك إحكام السلسلة التي اعتزمت على غل أقطار المغرب العربي بجلقاتها ، وقلبها جميعاً إلى مستعمرات إفريقية .

ولقد لعبت المملكة المراكشية أو « المغرب الأقصى » حسب تسميتها العربية القديمة أدواراً عظيمة في تاريخ الاسلام وتعاليه وحضارته وفتوحاته على مختلف الأدوار ، ومنها انجى الفاتحون الاولون الى الأندلس وأطراف أوروبا الغربية ، وإلى أواسط افريقية كما انها ظلت عند السلطان العربي في اسبانيا بالدم الجديد آنأ بعد آن حيث يعود اكبر الفضل الى الدول التي قامت فيها في القرون الوسطى في بقاء ذلك السلطان نحو ثمانية قرون .

ومنذ ثلاثة قرون قامت فيها الدولة العلوية الشريفة التي ما تزال سلالتها تتربع على عرشها . وقد تقلبت الحالة في مراكش في عهد هذه الدولة بين البسر والعسر والقوة والضعف ، واستطاع بعض سلاطينها ان يجعلوا الدولة في بعض الظروف قوية محترمة الجانب مخطوبة الود ، وأن يقفوا من مطامع الدول منها موقف الاباء والنضال المجدي .

تنافس فرنسا واسبانيا ومطامعها

غير أنها كان يعتورها ظروف فتور وضعف وارتباك بسبب ما كان يقوم فيها من فتن قبائلية من آن لآخر وبسبب سني الجذب التي كانت تحدث المجاعات المبيدة ، فكان الطامعون يغتنمون الفرص لدس يد الفساد ، وكانت اسبانيا وفرنسا بنوع خاص اكثر الدول تبييناً للطمع في هذه البلاد الغنية الواسعة واكثرها ترقباً للفرص وتوثباً للقفزة وتحريكاً للفتن واشدها تنافساً فيما بينها عليها . وقد استطاعت الأولى في بعض ظروف الضعف ان تستولي على بعض المراكز والشواطئ الشمالية الواقعة على البحر الأطلانطي ، وكان هذا مما أدى الى نضال مريب ومديد بينها وبين الدولة العلوية لم يكن ينجح في اجلاء اسبانيا عن جميع ما في يدها .

ولقد مر بين احتلال فرنسا لتونس وفرضها الحماية على مراكش نحو ثلاثين عاماً ١٨٨٢ - ١٩١٢ لم تن فيها فرنسا عن تهيئة الاسباب ونحج الفرص لتنفيذ عزميتها وكان التنافس والتجاذب والتشاد الاستعماري بين الدول الأوروبية الكبرى على الشرق الأوسط وشمال إفريقيا قد اشتد في اواخر القرن التاسع عشر فأخر فرنسا عن الوصول الى بغيتها .

المؤتمر الدولي عام ١٨٨٠

وقد تداعت هذه الدول كنتيجة من نتائج التنافس والتشاد حول مراكش الى مؤتمر انعقد في مدريد عام ١٨٨٠ لتنظيم علاقاتها بمراكش اشترك فيه احدى عشرة دولة اوروبية والولايات المتحدة الاميركية وانتهى بمعاهدة فرضت على مراكش كثيراً من الالتزامات ومن جملتها دولية طنجه ، وان كانت نصت على الاعتراف باستقلال مراكش ونظام سلطانها واحترام اراضيها ، وصبغت قضية مراكش بصبغة دولية أوهمت أنها تدراً عنها شر مطامع فرنسا واسبانيا خاصة .

اصابع فرنسا

ولكن فرنسا لم تعبأ بذلك ونشطت الى استغلال تلك الالتزامات اكثر من غيرها حيث رأت فيها الثغرة النافذة ، فأخذت ترسل عمالها الاستعماريين في شكل

بعثات طبية وتبشيرية ، وتنشيط الشركات والبيوتات التجارية بما كان من تلك الالتزامات الممنوحة للدول على السواء . وقد استطاعت ان تحصل على طلب من السلطات لبعثة عسكرية لتنظيم الجيش وتدريبه فكانت هذه البعثة وسيلة الى نفوذ فرنسا العملي والرمزي ، ثم اخذت تغري بعض اصحاب الطرق الصوفية وتعمل على كسب ولائهم وتسييرهم في الحطة التي اختطتها بسبيل ما اعتزمت عليه من نية الغدر ، حيث كان للطرق الصوفية ومشايخها تغلغل شديد في السواد الاعظم .

- ٢ -

الاتفاقات السرية

واقدر حرك هذا النشاط الدول ، فأخذ كل من انكلترة وإيطاليا والمانيّة تنحفر للسير في خطط ماثلة ، وحركت اسبانيا خاصة لانها رأت فيه خطراً على ما تعدّه منطقة حيوية لها، فاضطرت فرنسا الى السعي في سبيل التفاهم مع هذه الدول وتصفية الجو والطريق لنفسها ، ونج عن هذا السعي ابرام سلسلة اتفاقات سرية بينها وبين ايطاليا سنتي ١٩٠١ و ١٩٠٢ وافقت فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في مراکش مقابل حريتها في العمل في ليبيا، وبينها وبين انكلترة سنة ١٩٠٤ وافقت فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في مراکش مقابل اطلاق يدها في مصر ، وبينها وبين اسبانية سنة ١٩٠٥ تعهدت فيها هذه بعدم معارضة مشاريع فرنسا في مراکش مقابل اعتراف هذه باحتلالاتها ومركزها الخاص في المنطقة المراكشيه الشمالية وتعهدا بتسوية حدود مرضية .

ضغط فرنسا على مراکش وأثره

وسارعت بعد ذلك الى خطوة ثانية فقدمت مذكرة للحكومة المراكشيه تطالب فيها بزيادة عدد أعضاء البعثة العسكرية وحصر جمع الشؤون العسكرية في يد هذه البعثة ، وبالسماح بمراقبة الشؤون الادارية المحلية من قبل مراقبين افرنسن

بحجة ان امن البلاد الداخلي والخارجي مما يههما هماً عظيماً بسبب مصالحها الاقتصادية والحدود المشتركة بينها وبين مراكش في الجنوب والشرق . غير انها اصطدمت بموقفين موقف سلطان مراكش الذي عرض المطالب على مجلس اعيان البلاد فقرّر رفضها لتعارضها مع معاهدة مدريد وطلب عرضها على الهيئة الدولية ، وموقف المانيا التي تجاهلتها فرنسا حيث زار الامبراطور غليوم طنجة بمظاهرة صاخبة وصرح لممثلي الحكومة المراكشية بأنه ينظر الى السلطان على اعتبارانه الحاكم الشرعي المستقل

المؤتمر الدولي الثاني

وأدى الموقفان الى انعقاد المؤتمر الاول في سنة ١٩٠٦ في الجزيرة كان من نتائجه تجديد الاعتراف باستقلال مراكش ووحدتها . وسيادة السلطان ، وعدم الاعتراف لأي دولة بمرکز خاص فيها ؛ وهكذا منيت فرنسا بالهزيمة في هذه الجولة ولكنها لم تنهزم وظلت تتربص الفرصة للتنفيذ والانقضاض . ونصحت داهية الاستعمار التي لا يههما عهد ولا ذمة في سبيله وهي بريطانيا زميلتها بارضاء المانيا قبل أن تخطو خطوة عملية وقالت ان مؤازرتها لها والاعضاء عن قرارات مؤتمر الجزيرة منوطان بذلك .

فتنة أبي حمارة وأثرها

غير ان فرنسا لم تأخذ بهذه النصيحة واستسحقت فرصة فتنة داخلية قام بها ثائر نعت بأبي حمارة وكان يزعم أنه ذو حق في العرش فأمدته وساعدته حتى عمت فتنته البلاد واستمرت بضعة سنين . وقد استنفدت الفتنة طائل الاموال فاضطر السلطان المولى عبد العزيز الى الاستقراض من فرنسا واسبانيا وانكلترة ، واستغلت فرنسا الموقف فأجبرت السلطان على قبول مراقبتها على الجمارك ضماناً للأموال التي استقرضها . وحينما بلغت الفتنة ذروتها ارسلت قوة احتلت مدينتي الدار البيضاء ووجده المجاورة لحدود الجزائر يحججه منع الفتنة عن هذا القطر وحماية حدوده ، واجبرت السلطان على توقيع معاهدة اعترف بها بهذا الاحتلال وبحق فرنسا في التدخل في الرسوم الجمركية وباقرار نظام خاص للدار البيضاء ومناطق الحدود المجاورة للجزائر واسناد ادارتها لعمال افرنسيين على ان يكون كل هذا مؤقتاً .

مرقف المانيا وارضاؤها

وأهاج هذا الشعب والمانيا معاً . اما الشعب فقد اتفق جبهة من رؤسائه مع المولى عبد الحفيظ اخي السلطان على خاع الاخير واعتلائه العرش مكانه على اساس انتهاء الاحتلال والتدخل الافرنسي ، وانتهاج منهج اصلاحي شامل في الدولة ، فتار عبد الحفيظ على اخيه وتمكن من خلعه ثم أخذ فعلاً في اتخاذ الاجراآت للاصلاح في مختلف المناحي من دستور وقوانين وتعليم وعمران الخ . واما المانيا فأرسلت بارجة الى ميناء اغادير كتهديد لفرنسا وطلبت من هذه ومن زميلتها اسبانيا ان تسحب قواتها الاحتلالية . وحينئذ رأّت فرنسا انه لا مناص من ارضاء المانيا وتم ذلك بمعاهدة عقدت سنة ١٩١١ اعترفت المانيا فيها لفرنسا بحماية مراكش مقابل تنازل هذه لها عن بعض ممتلكاتها في افريقية الاستوائية .

نجاح المؤامرة ومعاهدة الحماية

وهكذا استحكمت حلقات المؤامرة الاستعمارية الاوروبية وسخرت الدول على اختلاف نزعاتها . من معاني الحق والشرف كما نسيت معاهداتها وتوكيداتها واطرافها بسيادة مراكش ووحدتها حينئذ نال كل منها تعويضاً ، وتركزت هذه وجهاً لوجه وحدها امام فرنسا ، وقد شعر الشعب بالمؤامرة فانفجرت ثورته على السلطان وضعف امر الحكومة ضعفاً شديداً فاستنصحت فرنسا الفرصة وزحفت قواها في اواخر عام ١٩١١ نحو فاس عاصمة الدولة بحجة تأمين الامن الذي هي مسؤولة عنه وفاقا للاتفاقات السابقة ثم حماية السلطان من رعيته واحتلتها ، ثم قدم الوزير الافرنسي معاهدة الحماية الى السلطان واخذ يضغط عليه ترغيباً وترهيباً في ظل قوى الاحتلال التي ملأت العاصمة حتى وقعها وكان ذلك يوم ٣٠ مارس من عام ١٩١٢ .

نصوص المعاهدة ومداها

ولقد نصت المعاهدة على انشاء نظام جديد يسمح بالاصلاحات الادارية والقضائية والثقافية والمالية والعسكرية التي ترى الحكومة الافرنسية فائدة في ادخالها لمراكش ، وتعهد فرنسا ببذل تأييدها الدائم للسلطان وخلفائه ضد كل خطر يهدد شخصه او عرشه او يقلق امن مملكته ، وانطواء النظام الجديد على احترام التقاليد الدينية الاسلامية واستمرار تطبيقها ، وحرمة السلطان ومكانته المعتادة ، وصيانة المنشآت الاسلامية والوقفية ، ونحويل فرنسا بمفاوضة اسبانيا والاتفاق معها على تنظيم مركزها في القسم الشمالي من البلاد، وموافقة السلطان على احتلال فرنسا لكل مكان ترى إلى احتلاله ضرورة لاستتباب الامن وضمانة حرية التجارة ، وحق فرنسا بمزاولة كل عمل من اعمال الحراسة البرية والبحرية في المياه المراكشية ، وواجب السلطان وخلفائه بإصدار الاوامر التي يقتضيها النظام الجديد طبقاً لاقتراحات الحكومة الافرنسية ، وتمثيل فرنسا لدى السلطان بمقيم عام مفوض ومسئول عن تنفيذ المعاهدة يكون في ذات الوقت هو الوسيط الوحيد بين السلطان وحكومته وبين الممثلين الأجانب والمكلف بجميع القضايا التي تهم الاجانب في المملكة المراكشية وصاحب الحق في المصادقة باسم الحكومة الافرنسية على كل امر يصدر من السلطان والاذن بنشره ليصبح نافذاً ، ورعاية مصالح مراكش ورعاياها في الخارج من قبل ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها ، وتعهد السلطان بعدم عقد اي عقد ذي صبغة دولية دون موافقة سابقة من فرنسا ، وامتناعه عن عقد اي قرض عام او خاص او منح اي امتياز على اي شكل دون موافقة سابقة من فرنسا كذلك ، وتنظيم الشؤون المالية بضمان الحزينة وجباية مداخيل الدولة من قبل خبراء افرنسيين مع رعاية الحقوق الخولة لحاملي سندات الدين المراكشي العام .

والنصوص العجيبة الفظيعة التي تمنح فرنسا بها لنفسها حق التصرف المطلق في البلاد وتجعل مقيمها العام فوق السلطان وتقيدها بهذا بحيث لا تجيز له اي حركة او عمل إلا بموافقة هذا المقيم ، بل والتي تجاوزت في صراحتها وبعد مداها النصوص

المفروضة على تونس والجزائر مع اتحاد الجوهر والقصد لا تدع شكاً في انها املت بالقوة والاكره والحديعة ؛ كما ان موقف السلطان عبد الحفيظ بوزيد ذلك حيث ثارت ثائرته حينما عرضت عليه ورفض التوقيع عليها قائلاً انه يأبى ان يهين نفسه بنفسه ، وأخذ يفند النصوص ويتساءل عن الضمانات التي تقدمها فرنسا بشأن التقاليد الاسلامية . غير انه وجد نفسه امام تهديد ظن انه سيكون اوخم عاقبة على بلاده فوقع المعاهدة كارهاً تقادياً لهذه العاقبة ، ثم انسحب من العرش عقب توقيعها . وقد احتوى نص تنازله اشارة صريحة الى ظروف التوقيع ونتائجه حيث جاء فيه : لقد رأينا أنفسنا عاجزين عن القيام بواجباتنا التي يجب ان نقوم بها كملك نحو شعب فقرّرنا التنازل ...

- ٥ -

ثورة فاس ضد المعاهدة

ولقد كان وقع المعاهدة والاحتلال على الشعب شديداً صاعقاً ، اهابت ثائرته وجرحت كبرياءه ، وكان من نتيجة ذلك ان انقض الجنود المراكشيون ليلة ١٧ - ١٨ نيسان ١٩١٢ على ضباطهم الافرنسيين وقتلهم وكانوا ثمانية وستين ضابطاً ثم خرجت الكتائب المراكشية فاستولت على معظم المدينة واخذ الجنود بتعقبون الافرنسيين في العاصمة (فاس) ويفتكون بهم وانضم اليهم الاهالي هائجين صاخبين ليعبروا عن شعور الألم الشديد الذي ألم بهم ، وسادت الفوضى في العاصمة في الايام التالية ، وكان ذوي الرصاص يلعلع فيها ليللاً ونهاراً ، وازداد الحرج والفوضى عندما أخذت القبائل المجاورة ترحف على العاصمة لتشارك مع الثائرين في الفتك بالغزاة البغاة .

وهلعت فرنسا من الاخبار ارفعجت عيذانها واختارت اصلها واقساها وهو المارشال ليوتي الذي يعد سفاح مراكش الباغي وارسلته قائداً ومقياً عاماً ، وجاء بموكب عظيم تعمد اظهار الابهة والارهاب ، ودخل فاس في اواسط شهر مايس ١٩١٢ دخول الغازي المطمئن ، فكان دخوله بمثابة صب الزيت على النار حيث اشتد

لهيب الثورة في كل مكان في العاصمة وحاصرتها القبائل الثائرة ، وكانت الفرق الافرنسية تنهزم واحدة بعد اخرى حتى لقد حدث المارشال نفسه بالانسحاب ، ولكن المدفعية استطاعت ان تنقذ الموقف وتفك الحصار فأدى هذا الى خمود النار في فاس .

ثورات الجنوب

غير ان روح التمرد والألم كانت قد سرت في انحاء البلاد الاخرى فثار الشيخ ماء العينين وابنه الهبة في الجنوب واكتسحه واحتل في آب ١٩١٢ مدينة مراكش وبدأ يستعد للزحف على منطقة الشاوية . ومع ان الجيش الافرنسي انتصر على جيش الشيخ وأرغمه الى الانسحاب من مراكش إلا ان حركة التمرد والمقاومة بفضل دعوة الشيخ ظلت مستمرة الى سنة ١٩٣٥ .

وكذلك ثار الزعيم موسى وهو في منطقة تافيلالت في اقصى الجنوب في نفس الظروف وكانت ثورة عسكرية قوية واسعة كلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والتضحيات ، وانهزمت فيها بضع حملات ، ومع ان الافرنسيين دبروا اغتياله فإن حركته لم تمحى حيث خلفه على رأسها ابو القاسم النقادي الذي استطاع ان يستمر في تمده ومقاومته الى سنة ١٩٣٥ أيضاً .

وفضلا عن هاتين الثورتين الكبيرتين والمدينتين فقد شبت ثورات عديدة في مناطق مختلفة من البلاد وخاصة في مناطق جبال الأطلس واستنفدت من الافرنسيين الجهد العظيم والدماء الغزيرة ، وكانت كلما خمدت واحدة شبت اخرى الى سنة ١٩٣٣

تنازل السلطان عبد الحفيظ

ولقد كان السلطان عبد الحفيظ شديد الألم من الموقف . وكان الشعب يعرف انه اجبر على المعاهدة إجباراً فلم تنزل مكانته في نفوسهم . فرأى ليوتي ان يستغل هذه المكانة فحاول تهدئة السلطان واستدراجه بالين ، وهدده بالواسطة بفقد عرشه إذا لم يتضامن معه على تسيير الامور ، ولكنه ابى ان ينقاد اليه وأعلن عزمه على

مغادرة مراكش وانتقل الى ميناء الرباط بسبيل ذلك بعد ان اسيم ليوتي قارص النقد وحذره من النتائج الخطيرة التي تترتب على سياسة البغي التي انتهجها الافرنسيون ، ووقع وثيقة التنازل عن العرش وغادر البلاد في ١١ آب ١٩١٢ ، وخرج اهل المدينة زرافات زرافات ليلقوا آخر نظرة على الملك الذي آثر ان يقضي بقية عمره في المنفى على ان يحتفظ بالعرش ويساهم في ما يُبَيِّتُ لبلاده من غدر وعسف ، وخلفه اخوه المولى يوسف الذي قبل ان يمثل مع الافرنسيين الدور الذي اباه اخوه .

نكبة تقسيم مراكش رسمياً

ولقد نصت المعاهدة المفروضة على تحويل فرنسا تنظيم علاقة اسبانيا بمراكش ومركزها ، لم يكن يوماً ما شرعياً وظلت مراكش تكافحه في كل مناسبة فكانت نكبة مراكش بهذا النص مزدوجة تقسيم واستعمار . وقد جرت المفاوضات بين الدولتين الباغيتين وانتهت بعقد معاهدة في مابينها في تاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٢ نصت على بقاء المنطقة الشمالية التي تبلغ مساحتها نيفاً وعشرين ألف كيلومتر مربع تحت الاحتلال الاسباني على ان تكون داخلة في نطاق سيادة السلطات الدينية والمدنية يمثلها فيها خليفة عنه ، يختاره من مرشحين تقدمها اسبانيا له ، ويكون لاسبانيا ما لفرنسا في المنطقة الجنوبية فتبطلها في الخارج وتدخل ماتراه من نظم واصلاحات ، ويكون لها مقيم عام له من الصلاحيات ما للمقيم الافرنسي العام في المنطقة الافرنسية .

ومنذئذ وفرنسا في معظم البلاد المراكشية واسبانيا في المنطقة الشمالية منها تطبقان مناهج استعمارهما المظلمة التي تماثل ما يطبق منها في الجزائر وتونس ، وتحكمات البلاد بالحديد والنار وتقمعان كل حركة نضالية او وطنية بكل شدة وفسوة ، وتقبضان على مصالح البلاد ومرافقها بيد استعمارية جشعة ، وتستغلن خيراتها لصالح رعاياها وتحولان دون اي تقدم جدي علمي او اقتصادي او عمراني في البلاد وتحاربان العروبة والاسلام فيها حرباً شعواء ، وتبثان روح الوهن والفتنة والفرقة بين طبقات الاهلين تحقيقاً للهدف الباغي اللثيم وهو تبديل وجه البلاد وهدم كيانه القومي وقلبها الى مستعمرتين افرنسيين في الجنوب واسبانية في الشمال لغة

ووجهاً ودينياً واستثماراً .

ولقد كانت مراکش قبل النكبة دولة مستقلة ذات سيادة تامة لها فوائنها ووزراؤها وحكامها وهيئاتها الشورية وسفراؤها وقواها البرية والبحرية وحركتها العلمية والعمرانية والزراعية والاجتماعية التي اخذت بالسير في المدة الاخيرة في سبيل التحسن ، فانجحه اهتمام الافرنسيين والاسبانيين الى وقف ذلك كله ، وإنشاء جهاز يقوم على موظفين منهم ويسير في تحقيق الهدف الاستعماري الباغي الذي استهدفوه بأسرع ما يمكن من الخطى .

شخصية المقيم العام المزروجة

وكان اول ما فعله الافرنسيون ان استصدر المقيم العام مرسوماً من السلطان الذي نصبه باعتباره الواسطة الوحيدة بينه وبين الدول الاجنبية ، والقائد الاعلى للقوى البرية والبحرية . فعدا بذلك ذا شخصية مزدوجة ، افرنسياً يمثل دولته ، ومراكشياً تمثل فيه هذه المهام المراكشية ! ونتيجة لذلك الغيت وزارات الشؤون الخارجية والحربية وقصرت الحكومة المحلية ووزاراتها على الشؤون الادارية ، وانشئت في دار الاقامة العامة مكاتب سياسية ومدنية وعسكرية لمساعدة المقيم العام في مهامه المزروجة !

تسكيمات الادارة

ثم انشأوا ثلاث هيئات لتتولى بالفعل إدارة الدولة . وهي امانة السر العامة للحماية والادارة العامة للشؤون الشريفة ومصالحة الادارة الأهلية . وجميع رؤساء وموظفي هذه الهيئات افرنسيون وهي مرتبطة بالاقامة العامة . والهيئة الأولى تشرف على الشؤون التشريعية بحيث لا يعد اي شيء منها نافذاً ولا يصدر اي تشريع إلا عن طريقها وبمصادقة امينها العام .
وتقوم الثانية بتنسيق الأعمال بين الاقامة العامة والسلطان وحكومته . ويلقب

رئيسها بلقب المستشار ويشهد اجتماعات مجلس الوزراء ، ويتفرع عنها خمسة اقسام للشؤون المالية والاقتصادية والصحية والتعليمية والاشغال العامة ، وهي التي تهى كل ما يقتضى تنفيذه من اعمال ومشاريع متصلة بهذه الشؤون وترسلها الى مجلس الوزارة لاقرارها وتقوم بعد ذلك بمراقبة التنفيذ . ثم هي التي تختار موظفي الحكومة او تبدي رأيا فيها فيهم الذي يكون هو الأصل والنافذ دائما .

وتتطلع الثالثة بالشؤون المدنية العامة من صحافة وطباعة وجمعيات واندية وعمال واجتماعات وبلديات واتصالات شعبية . وهي كذلك تهى كل ما ترى تنفيذه من اعمال ومشاريع متصلة بهذه الشؤون وترسلها الى مجلس الوزراء لاقرارها وتقوم بعد ذلك بمراقبة التنفيذ .

اصابع وخطط التغلغل والسياسة البربرية

ولهذه الهيئة شبكه منتشرة في جميع انحاء البلاد وقد استطاعت ان تستصفي لها أولياء في مختلف الاوساط وخاصة من بين رجال الطرق الصوفية الذين كان الافرنسيون يستخدمونهم في مآربهم قبل النكبة وظلوا على صلة بهم ، وبواسطة هذه الشبكة والاولياء والمأجورين يتغلغل الافرنسيون بطريق هذه الهيئة في داخلية البلاد وخصائص امور اهلها وتوطيد اقدامهم في الاماكن النائية ، وخاصة في القبائل البربرية .

وقد كان من اول ما أوحى به هذه الهيئة استصدار ظهير (مرسوم) من الملك في سنة ١٩١٤ سجل فيه اعترافه بجنس بربري يفتوق عن الجنس العربي وبعادات وتقاليد بربرية تفتوق عن العادات والتقاليد العربية والاسلامية وبضرورة تنظيم شؤون البربر وفقا لعاداتهم وتقاليدهم الخاصة تدريجياً وحسب مقتضى الظروف وكان هذا الظهير تدشينا رسميا للخطة اللثيمة التي بيتتها السلطات الافرنسية للتفريق بين الشعب المراكشي وإثارة نعراته ، وسلخ القبائل البربرية عن الاسلام والعروبة التي اندمجت فيها منذ الأحقاب الطويلة ، وتهيئة الجو للتبشير بالنصرانية بينها مرفقا بدعاية أصل البربر الاورربي وديانتهم المسيحية وكون العروبة والاسلام

أجنيبين عنهم وليسوا الا وسيلة تحكم واستعمار فيهم جاءت فرنسا لتخليصهم منها !
وهي نفس الحطة التي سارت عليها السلطات الافرنسية في الجزائر على ما ذكرناه
في مناسبة سابقة .

وقد استصدرت هذه الهيئة في سنة ١٩١٥ ظهراً جديداً بسبيل تنفيذ تلك
الحطة يقضي بتأليف هيئات قبائية باسم الجماعات كما فعلت السلطات في الجزائر من
قبل للنظر في شؤون القبائل وفق تلك العادات والتقاليد ، وجعل لكل جماعة
سكرتير إفرنسي ليكون الموجه النافذ في مختلف شؤون القبيلة وفقاً للمنهج الذي
ترسمه له .

المراقبون الافرنسيون في جانب الحكم

ولقد كانت مناطق البوادي تدار برأسة عامل مراكشي يلقب بالقائد ومناطق
المدن تدار برأسة عامل مراكشي يلقب بالباشا . فأقام الافرنسيون إلى جانب كل
من القواد والباشاوات مراقباً إفرنسيا صار هو الحاكم المطلق في المنطقة ، بحيث
أنيط به مراقبة جميع الشؤون وحظر على الباشاوات والقواد اتخاذ أي قرار أو
القيام بأي عمل بدون موافقته .

الادارة المباشرة في المناطق المهيمنة

ومع ذلك فقد نزعوا ثلثي مناطق من يد العمال المراكشين واناطوها بحكم
افرنسيين . وهذه المناطق الثمان هي اهم ولايات مراكش وعمالها من حيث
السكان والثروة والنشاط ، فجعلت الادارة والسيطرة فيها بيد الافرنسيين مباشرة .
ولقد جعل اربع منها عسكرية واربع منها مدنية ، وأنيطت العسكرية بحكم
عسكريين يقوم الى جانبهم نواب مدنيون ويساعدهم هيئات اركان حرية ومكاتب
استعلامات يقوم عليها ضباط ، وجميعهم أفرنسيون ؛ وأنيطت المناطق المدنية
بحكم مدنيين يقوم الى جانبهم نواب عسكريون ويساعدهم هيئات ومكاتب
استعلامات ، وجميع الذين يتولون هذه الامور افرنسيون كذلك . وقد قسمت

كل هذه المناطق الى أقاليم والاقاليم الى دوائر ، وأنيطت الفروع وفروع الفروع
بمحكام ومساعدين وهيئات ومكاتب استعلامات ايضا ، وجميع الذين يتولونها
إفرنسيون أيضا ..

وقد كان حكام المناطق العسكرية والمدنية وكذلك المراقبون الافرنسيون
الذين اقيموا الى جانب القواد والباشاوات في مناطق المدن والبادية الأخرى
يمثلون المقيم العام ؛ وبصفتهم هذه كانوا يشرفون على قوى الأمن والشرطة والحياة
المراكشية مباشرة ...

الموظفون الافرنسيون

وفضلا عن كل هذا فقد سار الافرنسيون على خطة استبدال الموظفين المراكشيين
بالموظفين الافرنسيين وخاصة أصحاب الوظائف المهمة فغدت مراكش كشقيقتها
مستعمرة موظفين حيث بلغ عددهم (٢٢٠٠٠) من مجموع (٣٧٠٠٠)؛ وقد اختص
الموظفون الافرنسيون بالمرتبات العالية والعلاوات المتنوعة باسم الاغتراب والاسرة
والمسكن. وغدت اللغة الافرنسية بطبيعة الحال السائدة في الدواوين والاعمال ،
فكان في ذلك مضافا إليه طبيعة الصلف والغرسة وحب استثمار الوظيفة المتمكنة
في الموظف الافرنسي كابوس شديد على صدور الأهليين يعطل مصالحهم ويثير
الأمهم وحسراتهم .

دور ضباط الاستخبارات

وقد كان ضباط الاستعلامات الذين انتشروا في كل ناحية من انحاء البلاد
وتشكيلاتها والذين زاد عددهم عن الثلثة كابوسا شديداً اخر لما كانوا يحيطون به
الناس من الرقابة ويثبونه فيهم من الدسائس وينصبونه لهم من المكائد ويثرونه
من النعرات ويستصفونه من الانصار والمأجورين بسبيل الفتنة والتفرقة والدس ،
وغدوا عماد السلطات الافرنسية في السياسة المحلية واصحاب الكلمة المسموعة في
المناطق والاقاليم والدوائر .

ولقد انشئ في البلاد خمس عشرة بلدية جميع رؤسائها افرنسيون ، حتى بلديات المدن التي ليس فيها افرنسيون . وكل ما جعل للمراكشين فيها هو مساعدون الى جانب الرؤساء الافرنسيين هم الى الآلة والصورة اقرب منهم الى الحقيقة والأثر .

غرف الزراعة والصناعة والتجارة الافرنسية

وقد انشئ منذ عهد مبكر في كل منطقة غرف للزراعة واخرى للصناعة والتجارة ، حصرت عضويتها في الافرنسيين ، وكان اعضاؤها يعينون تعييناً ثم صاروا ينتخبون انتخاباً من قبل الزراع والصناع والتجار الافرنسيين .

وتقدم هذه الغرف التقارير واللوائح للسلطات في مختلف الشؤون الصناعية والزراعية والتجارية وخاصة من نواحي الاساليب الاستثمارية والاستعمارية ، مما ينطوي فيه مفهوم ان مراكش لم تعد ان تكون مستعمرة إفرنسية كل ما تفكر فيه السلطات الافرنسية والمنظمات الافرنسية هو افضل الاساليب والوسائل لاستعمارها واستثمار خيراتها وثرواتها لصالح الافرنسيين .

مجلس شورى الحكومة الافرنسي ومدى تأثيره

ثم انشئ بعد قليل من انشاء هذه الغرف مجلس سمي بمجلس شورى الحكومة كانت مهمته في البدء تنسيق اعمال ونشاط تلك الغرف ، وكان يتألف تبعاً للطبيعة ببيان هذه الغرف من أعضاء افرنسيين كانوا يعينون تعييناً ثم غدوا ينتخبون انتخاباً من قبل الجاليات الافرنسية بعد ان كثرت عددها واتسع نشاطها واستد كيانها وساعدها .

وهكذا كان هذا المجلس حين نشأ معبراً آخر عن ذلك المفهوم وبأسلوب أشد نكابة واستهتاراً ، حيث انطوى فيه معنى ان الحكم والحكومة والمصالح الزراعية والصناعية والتجارية وبكلمة واحدة كيان البلاد الدولي والاقتصادي إنما هو كيان إفرنسي وحسب . ومع ان هذا المجلس قد تطور أخيراً بعض الشيء وأدخل فيه عنصر مراكشي عن طريق تمثيل الغرف التجارية والزراعية والصناعية المراكشية

فقد ظل ينطوي على ذلك المفهوم والاسلوب . وقد صار يتألف من رجال الادارة الافرنسيين وممثلين افرنسيين تنتخبهم الجاليات الافرنسية غير الزراعية والتجارية والصناعية ، وممثلين للغرف التجارية والزراعية والصناعية الافرنسية والمراكشية . وصار هذا المجلس بمثابة مجلس نيابي ذي صفة استشارية ، مع التنبيه على ان العنصر المراكشي فيه محدود وأن اكثرية العظمى افرنسية . ومن الطريف المعبر عن ذلك المفهوم والاسلوب ان المقيم الافرنسي العام هو الذي يرأس هذا المجلس الذي احتفظ بذلك الاسم ويتلو عليه بياناً بما قام به من اعمال في الدولة ، ويحضره رؤساء المصالح الافرنسيون ليدلوا ببيانات عن اعمالهم ويجيبوا على ما يوجه اليهم من اسئلة وانتقادات في صدد هذه المصالح . وفي هذا المجلس تناقش ميزانية الدولة وتوضع في القالب المناسب لترفع الى الملك للتصديق ، وتحمل بطبيعة الحال جميع نفقات الاقامة العامة والادارات والتشكيلات الافرنسية المتنوعة .

- ٨ -

ودارت هذه الآلة الاستعمارية المستحكمة الحلقات والشامخة النطاق في طريق هدفها كما دارت تميلتها في تونس والجزائر من قبل .

المهاجرون

فتحت ابواب البلاد للمهاجرين الافرنسيين وأخذت تسهل لهم اسباب التوطن والاستقرار والاثراء ؛ حتى بلغ عددهم نحو ثلثمائة الف افرنسي بالاضافة الى خمسين الف اوروبي آخر .

الاراضي والمزارعون

وأقطع المستعمرون الزراعيون بالاساليب المتنوعة التي جري عليها في تونس والجزائر مساحات واسعة من اجود الاراضي انتزعت من ايدي اصحابها حتى بلغت نحو مليون هكتار أي عشرة ملايين دونم . وهذه المساحة تعدل نحو ربع



سلطان مراکش المولى عبد الحفيظ

الاراضي الزراعية الصالحة . ويبدو هول النسبة إذا ما لوحظ أن عدد المراكشين في المنطقة الافرنسية يقرب من تسعة ملايين . كذلك فقد منحوا متنوع المساعدات المالية من خزينة الدولة وخصوصا بامتيازات مكنتهم من التوطن والاثراء . ومن جملة ذلك خفض الضرائب عنهم الى النصف بالنسبة للمراكشين ، وتشريع العمل الاجباري في المشاريع العامة بالجنان والاجرة الزهيدة واعتبار شق الترع وحفر الابار وتعبيد الطرق وأنشاء المخافر في الاراضي الممنوحة للمستعمرين مما يدخل في نطاق هذا التشريع . ولقد بلغ من امر هؤلاء المستعمرين أن تسلطوا في ظل هذه الآلة على الفلاحين والاهالي المجاورين لهم وتحكموا فيهم تحكم السادة بالعبيد وتيسرت لهم فيهم اليد الكادحة الرخيصة وأثروا ثراء عظيما واصبحوا ذوي قوة ونفوذ بحسب حسابها في الدوائر الافرنسية في مرا كش وفي باريس معاً .

السياسة الاقتصادية

وقد عدلت أنظمة الجمارك ومنح بها الافرنسيون فوائد عظيمة من جعلتها اعفاء كثير من السلع والمصنوعات الافرنسية من الرسوم او خفضها ، فحيت من المزاحمة ويسر لها احتكار السوق المراكشية والتحكم فيها . ولقد كادت الشركات الصناعية والتجارية والزراعية تنحصر في ايدي الافرنسيين حيث قامت شركات افرنسية مدعومة بأموال ضخمة تحكمت في المرافق والاعمال الاقتصادية المتنوعة ، وثالت الامتيازات الاحتكارية العديدة والمعادن والمناجم في مقدمتها وهي كثيرة وغنية جداً . ولقد وصل الامر الى وضع العقبات والمشاكل في وجه كل فلاح مراكشي أراد شراء آلة زراعية حديثة ، وفي وجه كل صانع مراكشي أراد ان يدخل على مهنته شيئاً من التجديد ، وفي وجه كل تاجر مراكشي أراد ان تكون له صلات تجارية خارجية تصديرية او استيرادية فضلا عن العقبات والمشاكل التي تقف في وجه كل محاولة مراكشية ترمي الى تأليف شركات اهلية . ومن عجيب ما يقع ان الادارة الافرنسية تستولي على ما تقدره زائداً على الاستهلاك المحلي من غلات محلية زراعية وحيوانية بالثمن الذي تقدره والذي لا يكاد احياناً يسد نفقاته وتتولى هي تصديره الى الخارج .

وقد أدت هذه السياسة الى إفقار الشعب وانحطاط مستوى معيشته وانتشار البطالة والمجاعات وقتل الصناعات المحلية ومثل كل نشاط إقتصادي مراكشي . ويكاد معدل اجر العامل المراكشي اجبالا لا يرتفع اليوم عن ٣٥ فرنكاً اي (٣٥) قرشاً سوريا او اقل . ولقد كانت المجاعات تفتك احيانا كالوباء الجارف نتيجة للفقير وسوء الغذاء حتى إنها ذهبت سنة ١٩٤٥ بنحو مليون نسمة ، مع ان البلاد زراعية ومحاطة ببلاد زراعية ، بما لا يمكن ان يكون اي احتمال لفتك المجاعة هذا الفتك الذريع لو كانت حالة البلاد المالية مساعدة ولو اجدبت في بعض السنين .

- ٩ -

الميزانية

ونظرة واحدة الى ميزانية الدولة التي يفرضها الافرنسيون تكفي لمعرفة بشاعة استثمار واستئثار وتحكم هذه الآلة الاستعمارية واستنارها واهمالها لمراقى البلاد واهلها . فقد كانت نفقات عام (١٩٤٧) نحو ثمانية مليارات ونصف من الفرنكات ينفق نحو ٨٠ في المئة منها على الدوائر الافرنسية لحماً ودماً وعظماً ، وعلى التشكيلات الافرنسية وعلى الموظفين الافرنسيين . وباقيها على الديون والشؤون المراكشية .

التعليم

وفي الميزانية رقم ضخم مخصص للتعليم وهو مليار فرنك . غير ان التدقيق في ما يجري عليه التعليم في مراكش يظهر ان اكثر هذا المبلغ ينفق كذلك على الافرنسيين . فإن عدد الطلاب المراكشين الذين يتلقون العلم في المدارس الحكومية الخاصة بهم كان سنة ١٩٤٧ (٤٥٠٠٠) منهم الف يتلقون التعليم الثانوي الذي ليس بعده اي تعليم ارقى ؛ في حين ان عدد الذين يتلقون التعليم من ابناء الافرنسيين والاوروبيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم كان نحو (٧٦٠٠٠) منهم (١٣٠٠٠) في الاقسام الثانوية . وإذا لاحظنا الفروق الكبيرة التي لا بد من وجودها في معدات

ومرتبات اسانذة المدارس الافرنسية ظهر لنا ان نحو ربع ذلك المبلغ الضخم فقط ينفق على المدارس المراكشية ! وإذا ما لوحظ ان عدد الذين هم في سن التعليم من المراكشين يبلغ نحو مليون وربع ، وان عدد الذين هم في سن التعليم من الافرنسيين والاوروبيين لا يزيدون كثيراً عن الخمسة والسبعين ألفاً بمعدل ٢٠٪ من مجموع العدد ظهر هول ذلك الاهمال والاستثثار ، لانه لا يوجد طفل اوروبي بدون مدرسة بينما ان ٩٦٪ من اطفال المراكشين لا يوجد لهم مكان في اندارس الحكومية !! ومن المضحك المبكي الذي يظهر قيمة التعليم في المدارس الحكومية الخاصة بالمراكشين كيفية بالاضافة الى تلك الضالة في الكمية ان عدد الذين نالوا الشهادة الابتدائية منهم في سنة ١٩٤٧ كان ٨٨٢ صبياً و٨٢ بنتاً .. والى هذا فان اللغة العربية والدين الاسلامي يحاربان في هذه المدارس حرباً شديدة ويضيق مكانها اسد التضيق . وهدف هذا التعليم هو اضعاف الروح القومية والوطنية والدينية وتخريج موظفين ثانويين متشبعين بالولاء أو العبودية لفرنسا . وللمرshal ليوتي كلمة تشير الى هذا الهدف دون ما خجل حيث قال فيما قال : انه ليس لنا اي فائدة من تدريس اللغة العربية ويجب ان تهدف سياستنا الى ابعاد القبائل عن تعليم ابنائها هذه اللغة التي لن ننجي من ورائها خيراً .

محاربة اللغة العربية والاسلام

وله كلمة اخرى تكشف عن الروح اللثيمة التي كان يحملها - وهو يمثل السياسة الافرنسية - ضد هذه اللغة والدين الاسلامي معاً حيث قال ان اللغة العربية تنشر الاسلام لانصالحا بالقرآن، وان مصلحتنا لتنضي علينا بابقاء القبائل خارجة عن نطاقها بما هو تمة للخطة التي ذكرناها من قبل . ولقد كان بما فعله ليوتي منذ عهد مبكر بسبيل ذلك انشاء لجنة خاصة لاحياء اللهجات البربرية في القبائل ومحاربة اللغة العربية فيها . .

والارقام التي ذكرناها عن نسبة الطلاب المراكشين هي احسن مما كانت عليه من قبل على ما يبدو . فقد ذكرت نشرة اصدارتها ادارة التعليم في تشرين الثاني من

عام ١٩٣٩ ان عدد الطلاب المراكشيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم هو (١٩٣٨١) بينما كان عدد الطلاب الاوروبيين (٥٧٥٥٩) .

ولقد حاول المراكشيون ان يسدوا ثغرة التعليم الواسعة من حيث الكيفية والكمية ويتلافوا اثر التقصير الباغي والروح اللثيمة ضد الثقافة العربية والاسلامية واستطاعوا بجهود عظيمة وبنفقات باهظة يكادون ينوون بها ان ينشئوا عدداً غير يسير من المدارس الحرة ووفق النظام المدرسي القديم . على ان الآلة الاستعمارية تضع شتى العراقيل في وجه نمو هذه المدارس وتحسينها . بل انها اصدرت عام ١٩٢٧ ظهراً للحد من اتساعها وتعطيل تمويلها بالاكتتابات الشعبية . وهي تتروى للموجود منها لتسارع الى إقالة بسبب اي موقف تفسره وفق هواها . وقد حالت سنة ١٩٤٨ دون انشاء هذه المدارس ، واقفلت واحدة لان مديرتها لم يذهب بتلاميذه لتحية المقيم العام الذي زار وزارات سنة ١٩٤٨ ، ومنع المقيم العام في السنة نفسها السلطان من شهود حفلة تدشين مدرسة في الرباط انشئت بالاكتتابات العامة ومن وضع الحجر الاساسي لمدرسة اخرى مثلها في مدينة مراكش . ونتيجة لهذا كله فإن الشعب المراكشي مرتكس في الجهل ، ونسبة الامية فيه تزيد على التسعين في المئة ...

كذلك توضع العراقيل والسدود في وجه الشبان الذين يتوقون الى ارتياد مناهل العلم في اوربا ، وقد كان نتيجة ذلك انه لا يوجد في جميع مراكش إلا ثلاثة اطباء وستة محامين وستة مهندسين مراكشيين استطاعوا أن يتغلبوا على هذه العراقيل او يتفلقوا منها !

ومثل هذه العراقيل واشد توضع في طريق من يود ان يولي وجهه شطر المشرق العربي وارتياح معاهده ، وقد عرفنا ذلك بأنفسنا . فقد استطاع بضعة نفر من ابناء مراكش ان يفلت فجاء ودخل مدرسة النجاح في نابلس وعد ذلك فتحاً عظيماً ، واضطر هذا نفر ان يبقى نحو ست سنين دون ان يعود الى بلاده في عطلة خشية من عدم تمكنه من العودة الى المعهد الذي رأى في الالتساب اليه هذا الفتح مع انه معهد ابتدائي وثانوي . وقد كان من شأن هذا نفر أن يبرز في مجال الحركة الوطنية حينما تم تعليمه وما يزال يشغل الصفوف الأمامية فيها . وقد علمنا ان السلطات قد تجهمت لتسرب هذا نفر الى المشرق العربي فأخذت تشدد المنع حتى لا تسري عدواه ...

اهمال المرافق الصحية

وروح الاهمال والاستئثار بادية في الشؤون الصحية ، فثمانون في المئة مما يخصص لهذه الشؤون في الميزانية ينفق على شؤون الجالية الافرنسية والاوروبية من مستشفيات ومستوصفات ومكافحات الخ . وقد نشب مرض التيفوس في اواخر الحرب العالمية الأخيرة ففتك في المراكشيين فتكاً ذريعاً حتى لقد كانت امواتهم تبلغ المئات يومياً في بعض المدن دون ان تقوم السلطات الصحية بمجهود جدي في كفافح الوباء .

- ١٠ -

مراكش تحت الحكم العسكري

ولقد اعلنت السلطات حالة الطوارئ، والحكم العسكري منذ تم الاحتلال، ولم تلغ الى الآن ! أي ان مراكش منذ ثمان وثلاثين سنة تحت كابوس الحكم العسكري وحالة الطوارئ . وكان نتيجة هذا ومن نتائج المنهج الاستعماري الذي سارت عليه هذه السلطات ان حرم المراكشيين من مختلف حرياتهم . فلم يسمح لهم خلال هذه المدة الطويلة بتأسيس اي ناد او جمعية او حزب حتى ولا بانشاء فرق رياضية وكشفية مع وجود نصوص قانونية تسمح بذلك ، لأن هذا قيد بموافقة السلطات وإذنها، ولم تر هذه السلطات ان توافق على شيء من ذلك . والقليل الموجود غير قانوني قام بقوة الظروف وبدون إذن السلطات واعترافها وقد كان قبل النكبة منظمات عديدة ظلت السلطات تحاربها حتى قضت على اكثرها، ولم يتسع صدرها إلا لطوائف المشعوذين والدجالين ممن ينتسبون الى الطرق الصوفية التي كانت مطاياها . هذا في حين انها تحمي باعة المحور والحشيش والمتجرين بالاعراض من الأجانب، وفي حين تسمح للجالية الافرنسية بتأسيس احزاب مستقلة او تابعة لاحزاب فرنسا، وتسمح لها بتأسيس متنوع الاندية والمنظمات .

ولقد سمح الافرنسيون بقيام جمعيات خيرية محلية في بعض المدن لمساعدة الفقراء والمرضى ، غير انهم جعلوها تحت اشراف مراقبين افرانسيين وتوجيههم، ومؤلفة من

الفئات المتزلفة التي ليس لها من هم العمل إلا الانتساب اليه والتقرب للمراقب الافرنسي والتأمين على كل ما يقوله ويقترحه ، بحيث فقدت هذه الجمعيات كل مظهر مجد من مظاهر النشاط والانتاج .

كذلك كان امرهم إزاء الصحافة . والصحف العربية القليلة التي تصدر في مراكش هي التي يصدرها اناس مأجورون يكتبون ما يوحى اليهم او تصدرها إدارة الشؤون السياسية مباشرة على الاغلب . وما يصدره غير هؤلاء يستهدف مراقبة شديدة قبل الطبع تجعلها فاقدة الروح . وقد سد باب المغرب امام اي صحيفة او نشرة خارجية غير افرنسية وخاصة عربية ، حتى لقد بلغ عدد المنوعات عام ١٩٤٨ ألفاً ومئتين .

- ١١ -

نضال مراكش

ولم يستسلم المراكشيون ايضاً كإخوانهم من قبل لما اريد لهم من تبدل الوجه والروح واللسان والكيان . ولقد بدأ كفاحهم منذ الاحتلال واستمر الى اليوم . وقد ذكرنا قبل قليل ما كان من الثورات الكبرى في فاس ومناطق الجنوب وجبال الاطلس على اثر النكبة كما ذكرنا موقف السلطات عبد الحفيظ وتنازله الاحتجاجي . ولقد ظلت الاحتجاجات والاضرابات والثورات الدامية تنكرر وتكون شديدة عنيفة احياناً . ومع ما كان الافرنسيون يقابلون هذه الحركات به من القمع والتنكيل ويصيبون بعض النجاح في خطواتهم الارهابية والاستعمارية فإنهم لم يستطيعوا ان يخضعوا أهل البلاد ويقضوا على مقاومتهم ، بل لقد كان هذا النجاح الذي يصيبونه عاملاً من عوامل اشتداد الكره والمقاومة والتذمر والتصميم على النضال الى النهاية .

الظهير البربري وأثره

وفي سنة ١٩٣٠ استصدرت السلطات الظهير الشهير بالظهير البربري الذي يقضي بنزع اختصاص القضاء الشرعي الاسلامي بالنظر في شؤون القبائل البربرية كما كان

جاريا الى هذه السنة وتسوية هذه الشؤون وفق العادات والتقاليد البربرية القديمة إحصاءاً للخطة التي تبتتها وبدأتها عام ١٩١٤ على ما ذكرناه قبل ، واشتدت مع هذا حركة التبشير بين القبائل فأثار ذلك هياجاً عظيماً وصلت اخباره الى المشرق العربي فأثارته بدوره وحملت هيئاته الوطنية على الاحتجاج والاستنكار لما انطوى فيه من شديد الكيد وسوء القصد للاسلام والمسلمين والكيان المراكشي . فقام في مختلف انحاء مراكش مظاهرات صاخبة ووقع اشتباكات دامية ، والتجأ الناس الى المساجد يجأرون الى الله بالنقمة على الظالمين واشتدت السلطات في القمع والمطاردة حتى امتلأت سجونها ، واخذ الناس يؤلفون الوفود من مختلف انحاء البلاد بما فيها القبائل البربرية ويوفونها الى الملك للاحتجاج فكانت السلطات تترصدهم وتحول درن وصولهم الى العاصمة او مقابلة الملك وتوسل بعضهم الى السجون . وقد تمكن بعضهم مع ذلك من اختراق الارصاد ومقابلة الملك وتقديم العرائض اليه بالمطالبة بتوطيد سلطات الملك وحكومته وخضوع الحواضر والبوادي للشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وتعميم تعليم اللغة العربية والقرآن والديانة الاسلامية واستعمال اللغة العربية في الدواوين وايقاف حركة المبشرين ومنعهم من نشر ما يمس بكرامة الاسلام وبنيه ومن التجول في البوادي وشهود المواسم والاسواق ومنع الاعانات الحكومية عنهم واخراج الرهبان والمبشرين من وظائف التدريس والحكومة الخ الخ ؛ وخطبت الوفود امامه خطباً قوية لم يسع الملك الا ان يذرف دموع الحسرات امامها ، ولم تجد محاولاته في اقناع السلطات الافرنسية بالتخفيف من غلوها شيئاً ...

كتلة العمل الوطني

وقد كانت هذه الحركة موقظة للأفكار ، فلم يلبث فريق من الشباب ان نشط الى التكتل والعمل وفق الاسلوب الحديث ونتج عن هذا تأليف هيئة وطنية باسم « كتلة العمل الوطني » ؛ فكان هذا تدشيناً لعهد الحركة الوطنية الحديثة في مراكش . وقد اخذت هذه الكتلة تنشط في التنظيم والدعاية نشاطاً كبيراً فلم تلبث السلطات ان حلتها .

الحزب الوطني

غير ان رجالها لم ينوا عن نشاطهم واغتنموا إحدى الفرص المواتية فعادوا الى تكتلهم بإسم « الحزب الوطني » بزعامة غلال القاسي الذي مزج دعوته الوطنية بالدعوة الدينية فاستطاع ان يشغل بحركته حيزاً كبيراً ويتوكل في بني وطنه أثراً قوياً ويثير فيهم الشعور القومي والديني معاً ، ويزيد فيهم الكره والحقد على المستعمرين واهدافهم الباغية ، والتصميم على النضال والتحرر منهم . وقد نشأ الى هذا حزب آخر هو « حزب الحركة القومية » بزعامة الوزاني سار هو الآخر في بادئ الامر في نفس الطريق التي سار فيها الحزب الوطني ، وكان له نصيب في ما انتشر واتسع من الشعور الوطني في طبقات الشعب .

اعتقال زعماء الحركة ونفيهم

فعدت السلطات الى شدتها ، فاعتقلت الزعيمين عام ١٩٣٧ ونفت القاسي الى افريقيا الاستوائية والوزاني الى منطقة مراکشية نائية حيث دام اعتقالهما نحو عشر سنين ، كما اعتقلت عشرات آخرين من رفاقهم وزجهم في السجون وسامتهم العذاب الشديد الذي أزهد ارواح بعضهم . فكان هذا مؤدياً الى خمود الحركة بعض الشيء ، ثم نشبت الحرب العالمية الثانية بعد قليل فاستطاعت فرنسا ان تسيطر على الموقف بيد حديدية أشد .

مراكش في اثناء الحرب

ولقد كانت مراكش كما كانت تونس والجزائر متبعاً غزيراً للقوى الافرنسية في هذه الحرب كما كانت كذلك في الحرب الاولى حيث جند منها عشرات الألوف وارسلوا الى مختلف الجهات ، وذهب منهم ألوف الضحايا . ولقد أغدقت على مراكش الوعود الواسعة بالاصلاح والحريات كما اغدقت على شقيقتها . وكانت مراكش وسواحلها الغربية خاصة نقطة حساسة جداً في العمليات الحربية . وقد

ظلت السلطات الافرنسية في مراكش موالية لفيشي عندما انهارت فرنسا فاقنهم الحلفاء شواطئ مراكش الغربية في اواخر عام ١٩٤٢ ، وحاول القائد العام ان يقاوم فتدخل الملك الذي كان يشترك مع شعبه في كره الافرنسيين ونضاله وعواطفه الوطنية املاً بأن تكون فرصة هذا الانهيار سعيدة على مراكش .

وفي سنة ١٩٤٣ قدم روزفلت الى مدينة الدار البيضاء وكان شديد العناية بالاطلاع على احوال البلاد ولمس ما تعانيه من المنهج الاستعماري الافرنسي فارسل كلمته المشهورة الصادقة كل الصدق .. ان الاستعمار الافرنسي اسوأ ما يمكن ان ينكب به شعب من الشعوب .. واجتمع به الملك وشرح له الحالة السيئة التي ترتكس فيها البلاد فطمأنه بمستقبل سعيد بعد نهاية الحرب تحقيقاً لمبادئ ميثاق الاطلانطي التي يهتف بها ، ولقد ابرم رجال ديغول روزفلت بما اطمنوا به من عظمة الامبراطورية الافرنسية في المغرب العربي وما يمكنهم ان يهيئوه منها من الجيوش وبعده من وسائل التمويل والقواعد الحربية اذا ما توفرت لهم المعدات الاميركية حتي ضاق بهم ذرعا وقال لابنه ان هؤلاء الافرنسيين لا يفكرون حتي في ايام محنتهم في مصلحة الاهالي الذين شردوهم وابتزوا ارزاقهم دون ان يقدموا لهم مقابل ذلك شيئاً !

استئناف النشاط الوطني ومزب الاستقلال

وفي اوانس سنة ١٩٤٤ استأنف الوطنيون المراكشيون نشاطهم بسبيل إستغلال ظروف ما بعد الحرب وهتافات الحلفاء بمبادئ الحق والعدل فالفوا حزبا جديداً بزعامة أحمد بلافريج ضم جميع العناصر الوطنية باسم حزب الاستقلال . وقد دشّن الحزب نشاطه بمذكرة مسهية شرح فيها تاريخ مراكش الاستقلالي قبل النكبة ومأساتها الاستعمارية بعدها ، وطالب باستقلال مراكش ووحدة اراضيها والالتصاق من الملك السعي لدى الدول التي يهيمها الأمر الاعتراف بهذا الاستقلال وضمّانه ، والانضمام الى الدول الموقعة على ميثاق الاطلانطي، وإقامة نظام سياسي شوري أسوة بنظام الحكم في البلاد العربية ، وقدمت المذكرة الى الملك والى ممثلي اللجنة الديغولية والولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا .

ثم اخذت الوفود الممثلة لجميع طبقات الشعب تفد الى القصر الملكي من جميع انحاء المملكة . مؤيدة لهذه المذكرة التي عرفت في تاريخ الحركة الوطنية بوثيقة الاستقلال ، واجتمعت الوزارة المراكشية تحت رئاسة الملك وقررت تأييدها . وهكذا تطورت الحركة واتخذت صفة شعبية واستقلالية عربية .

القمع والتكبل والاقتجار

وكان لهذا العمل اثر شديد لدى السلطات الافرنسية ؛ ومع انها لم تكذب تنسى حمقها وجنونها في لبنان فانها اقدمت على حركة جنونية وباغية اخرى حيث اعتقلت بلافريج ونفته الى كورسيكا ثم القت القبض على عدد كبير من رجال الحزب وشبابه بتهمة الفاشية ؛ فانفجرت البلاد بالمظاهرات والاشتباكات الصاخبة وخاصة في مدن فاس والرباط وسلا والدار البيضاء ووجده ، حتى لقد كان من أمر فاس أن صمدت شهرين طويلين في وجه القوى والحملات الافرنسية مما حمل السلطات على قطع تيار الكهرباء وموارد الماء والتموين عنها لجلها على الاستسلام والخضوع ؛ ولقد اشتدت هذه السلطات في القمع والتكبل دون مازحة او هوادة واستعملت المصفحات والمدفعية فازهقت ارواح الكثيرين واعتقلت المئات من الوطنيين وعذبتهن اشد العذاب في المعتقلات العسكرية حيث جلدوا وسبقوا حفاة عراة في مناطق الثلج والصقيع . ولم يكن لمراكش الحظ الحسن الذي كان للبنان والذي حرك الانكليز ثم الاميركان واثار العالم العربي ، ولا سيما ان بغي فرنسا كان مثيراً باعتقال رئيس الجمهورية والوزراء وحل مجلس النواب في بلد اعترف باستقلاله ، فلم تتحرك قلوب الحلفاء ولم تنبض عروقهم لهذه المأساة الدائمة التي مثلت على مسرح مراكش بين سمعهم وبصرهم !

جمعية الدفاع في القاهرة

ولقد استطاع بعد قليل بعض رجال مراكش ان ينزلت من مراكش الى

للقاهرة حيث الفوا جمعية الدفاع عن مراكش ، واخذوا يرفعون اصوات الاستنكار لما يجرى في بلادهم المنكودة وامتهم المظلومة ورجالهم الذين يسامون العذاب الاليم ، فكانت جمعيتهم هذه النواة للحركة المغربية العربية الشاملة التي توعرت في القاهرة في السنين الاخيرة ، والتي غدت جزءاً لا يتجزأ من الحركة الوطنية المغربية في داخل البلاد وخارجها .

ولقد افرج عن علال الفاسي والحسن الوزاني في سنة ١٩٤٦ فعاد الاثنان الى مراكش .

انغام الحركة بالحركة العربية

واستأنفا ما انقطع من نشاطهما ، وانضم الفاسي الى حزب الاستقلال الذي كان يضم اكثر العاملين في الحقل الوطني ويردد صدى نشاطه جمهرة الشعب المراكشي ويعضده الملك فيه ؛ وغدت العلامة المميزة له المناداة بالفكرة العربية والاندماج في الحركة العربية الشاملة والتضامن في ذلك مع الأقطار العربية الأخرى المغربية والشرقية .

وهكذا التحقت مراكش فعلاً بموكب هذه الحركة ، وغدا نضالها موسوماً بها وهي ما تزال قوية التصميم في هذا النضال الى ان يتحقق هدفه العربي القومي ، وهو متحقق ان شاء الله لانه منبثق من شعب عربي ابي ضد الظالمين البغاة ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون !

- ١٢ -

سياسة اسبانيا الباغية في مراكش الشمالية

وتتمة للكلام نقول ان المنطقة الشمالية التي تعرف بالريف والتي نكبت بالاسبان قاست وما تزال تقاسي ما قاسته شقيقها الجنوبية من الافرنسيين ؛ سواء في عهد الملكية او الجمهورية او الديكتاتورية ، حيث سار الاسبان على غرار فرنسا في الروح والمنهج ومحاولة هدم الكيان وفي التنكيل والقمع والاستثمار ، وكل ما

هنالك أنهم تأخروا في السير الحثيث بسبب الثورة الريفية الكبرى التي كانت إمتداداً للنضال القائم ضدهم قبل النكبة الافرنسية حيث كانوا يحتلون بعض اقسام البلاد منذ امد غير قصير .

ولقد كان الريفيون لا يهدأون في هذا النضال ، وانسم في اوائل الثورت الحاضر بسمة حرب عصابات تعرف بالثورة الجبلية ؛ وكانت تشتد حتى يبلغ عدد المشتركين فيها احياناً الألوف العديدة ، وتشغل عشرات الألوف من الجند الاسباني وتستنفد جهود اسبانيا وأموالها وتكبدها اعظم الخسائر .

حرب الريف بقيادة الامير الخطابي

وظل الأمر كذلك الى ان برز الامير عبد الكريم الخطابي عام ١٩٢٠ فانضوى تحت لوائه وزعامته جميع العصابات ، وانقلبت الحالة من ثورة عصابات وإزعاج الى حرب رسمية هجومية ، وأخذ الجيش الريفي الباسل يتقدم في جميع الميادين ، والقوى الاسبانية تنهار امامه مع تفوقها العظيم في العدد والعدد ، ولم تنته سنة ١٩٢٤ حتى اصبح معظم المنطقة تحت سيطرته ولم يبق في يد الاسبان الا بعض المدن الساحلية مثل مليللا وسبتة ، وكانت اخباره تصل الى المشرق فتهزه هزاً لما كان يرافقها من أخبار البطولة والانتصارات التي سجلت اعظم المفازر للنضال العربي في هذا القسم من الوطن العربي الكبير .

وقد اعلن الامير جمهورية الريف وانتخب رئيساً لها ، وأخذ يمارس سلطانه كذلك . وثار الرأي العام الاسباني ضد الحرب وأخذ الجيش الاسباني يتعرد ، واضطر بريودي ريفيرا رئيس اسبانيا الى جس النبض في صدد الصلح فاشتوط الامير جلاء القوات الاسبانية عن جميع ماتحت إحتلالها بما في ذلك سبتة ومليللا . وعلمت فرنسا بالأمر فجن جنونها من احتمال جنوح إسبانيا الى الصلح على اساس هذا الشرط او في نطاقه خشية استفحال أمر الامير وامتداد حركته التحريرية الى سائر مراکش ؛ فضغطت على اسبانيا من جهة وسارعت من جهة اخرى الى إرسال جيوشها واساطيلها لشد عضدها . وهكذا غدا الامير يواجه قوى دولتين ؛ وصمد مع ذلك نحو سنتين اخريين يبدي مع جيشه من ضروب البسالة والتحمل والمقاومة

ما لا يزال ماثلاً في الازدهان ، حتى اذا كان عام ١٩٢٦ كان قد نفذ ما في يده من زاد وعتاد ومعدات ، وكانت دسائس الافرنسيين وذههم خاصة يلعب دوره بما ادى الى اخذ لان الامير من قبل انصار اقوياء فلم يكن بد من الاستسلام لفرنسا التي وعدته بالرعاية ، ثم نكثت فنفقه مع أسرته الى جزيرة ريونيون النائية الموبوءة رغم احتجاجه . وظل في منفاه البغيض الى سنة ١٩٤٧ حيث استسبح فرصة نقله الى منفى افرنسي فنزل الى بور سعيد بحركة بارعة واعلن التجاهه الى مصر وملكها فكان له فيها الملجأ الكريم .

- ١٣ -

مصادرة الاراضي ونزوحها

ومنذ انتهاء الحرب الريفية اخذت اسبانيا تفرغ لتنفيذ مناهجها الاستعمارية . وقد تمثلت هذه المناهج في كلمة ماثورة لأول مندوب سام اسباني حيث قال : سوف لا نرتكب الغلظة التي ارتكبها اجدادنا مع مسلمي الاندلس فآلقوا بهم في البحر بل ان خطتنا معهم ستكون حازمة حاسمة بحيث نرغمهم على ان يلقوا هم بأنفسهم في البحر . . !

ولقد دشن الاسبان سياستهم بحصار منطقة نفوذهم وتطويقها ثم تقسيمها الى مقاطعات وإحاطة كل مقاطعة بسياج من حديد ، ثم سيطروا على الادارة المدنية ، ونظموا حملة انتقامية ضد جميع الذين ساهموا في الثورة من قريب او بعيد فصادروا املاكهم واعدموا الكثير منهم وسجنوا وعذبوا من وقع في ايديهم وشردوا باقيهم . ثم سنوا قوانين الامتيازات العنصرية ونزع ملكية الاراضي وطلبوا من خليفة الملك اصدار مراسيم لاقرار قوانينهم فامتنع ثم توفي فجأة ، وخلفه ابنه وكان قاصراً فأنشأوا مجلساً صورياً للوصاية واستصدروا ما شاؤوا من المراسيم ، وكان من فحوى تلك القوانين نزع ملكية ساحات واسعة من اخصب الاراضي وضماها الى الممتلكات الاسبانية واحتكار جميع منابع الثروة في البلاد ومنحها للشركات الاسبانية ، ثم فتحوا ابواب البلاد لمتعطيهم ومتبظليهم وطلاب الثروة منهم فأخذوا يزحفون

ويستلمون من السلطات الاراضي المتزوعة والمساعدات المالية ، وقدم فيمن قدم عدد كبير من الرهبان والقساوسة ، فمنحتهم السلطات المساعدات الكبيرة باسم المؤسسات الكنيسية ، واخذوا من ناحيتهم في محاربة الاسلام والعروبة في مختلف مجالاتها .

الادارة

ومع ان الاتفاق الافرنسي الاسباني نص على قيام حكومة مراكشية برئاسة الخليفة تتمثل فيها السلطات وتصدر عنها الاوامر والقوانين فإن هذه السلطات تضاءلت حتى صارت عدماً وقام الى جانبها ثلاث سلطات او بتعبير اصح ثلاث حكومات إسبانية ؛ وهي حكومة المندوب السامي وحكومة الحماية وحكومة النقابات .

ففي الاولى دائرة بمثابة رئاسة الوزارة واخرى بمثابة وزارة الخارجية وثالثة بمثابة وزارة الحربية ورابعة بمثابة وزارة العدلية . وفيها امانة السر العام للحماية التي هي صلة الوصل بين دوائر المندوبية ودوائر الحماية . وفوق كل هذا هيئة استشارية تضع الخطط العامة لسياسة اسبانيا في المنطقة تتألف من القساوسة وغلاة المستعمرين العسكريين والمدنيين .

وفي الثانية تشكيلات مماثلة تسمى بالنيابات ؛ منها نيابة الامور الأهلية التي هي بمثابة وزارة الداخلية ، ونيابة الامور المالية ونيابة الاشغال العامة والمواصلات ونيابة الاقتصاد ونيابة المعارف .

وهيأة النقابات - وهي الادارة الثالثة - تضم نقابات العمال والزراع والتجار والملاك والموظفين ، وتسيطر على البلديات والغرف الزراعية والتجارية . وهي اسبانية اللحم والدم وهما توفير العمل واسباب الراحة والنجاح للمهاجرين الاسبان . والرؤساء والموظفون في هذه الحكومات الثلاث الذين يعدون بالالوف العديدة اسبانيون يتناولون نفقاتهم من خزينه المنطقة . ويبدو الهول في هذا إذا ما لوحظ ان مساحة المنطقة هي نحو عشرين الف كيلو متر مربع وسكانها نحو مليون ، وهي بالنسبة إلى المنطقة الشجالية واحد من خمس وعشرين مساحة وواحد من تسعة سكاناً .

السلطات المراكشية

اما السلطات المراكشية فتتألف من حكومة فيها رئاسة وزارة ووزارات عدلية واوقاف ومديريات املاك ومعارف وبيت مال ومن ادارات تابعة لها في انحاء المنطقة . غير انها مسلوبة من كل سلطة فعلية ، ولا تبأشر عملاً ولا تنجز امراً إلا وفق ما تقترحه نيابة الامور الاهلية وتوافق عليه . ولم تكتف اسبانيا بذلك وبحكوماتها الاسبانية الثلاث بل ملأت دوائر الحكومة المراكشية المركزية وتوابعها بعدد كبير من الموظفين الاسبان وجعلتهم كل شيء فيها .

الموظفون الاسبان

وقد بلغ عددهم عام ١٩٤٦ (٣٩٣٤) بينما لم يتجاوز عدد الموظفين المراكشين خمسة آلاف . والأغرب والابشع ان الموظفين الاسبان يشغلون مختلف الوظائف سواء في ذلك الخطير والحقير ؛ بل ان عددهم في بعض الوظائف الحقيرة يزيد زيادة كبيرة على عدد المراكشين . . فقد كان عدد سعاة البريد في العام المذكور (٨٧) منهم (٧١) اسبانياً ، وعدد سائقي السيارات الرسمية (٨٠٩) منهم (٧٧١) اسبانياً وعدد التراجم (٤٦) منهم (٢٨) اسبانياً وعدد المساحين (٥٧) جميعهم اسبان وعدد حراس الغابات (١٣٧) منهم (٦٨) اسبانياً وعدد موظفي مصلحة التليفون (٩٤) منهم (٩٣) اسبانياً وعدد راكبي الدراجات النارية (٢٦) منهم (٢٤) اسبانياً وعدد المرضى (١١٦) منهم (١١٣) اسبانياً .

الميزانية

وقد بلغت ارقام ميزانية النفقات لعام ١٩٤٦ وهي من وضع الاسبان اثنين وأحد عشر مليوناً من البسيطات (والبسيطة تعدل نحو نصف شلن) ينفق منها على الادارات الاسبانية وموظفيها والموظفين الاسبان في دوائر الحكومة المراكشية والمدارس المحصنة لأبناء الاسبان أكثر من ثمانين في المئة منها .

التعليم

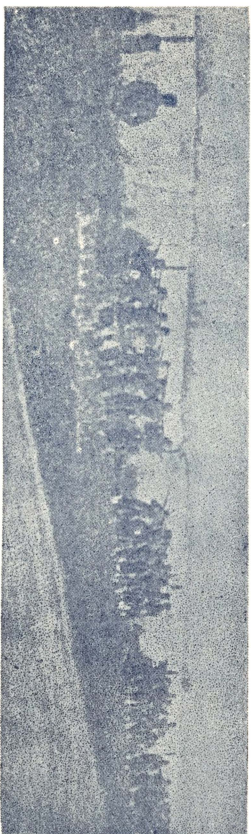
وسياسة التجهيل نافذة بأبشع مظاهرها . فالمدارس الحكومية المخصصة للمراكشيين لا تستوعب أكثر من أربعة في المئة من الذين هم في سن التعليم منهم حيث يوجد فيها نحو سبعة آلاف في حين أن عدد الذين هم في سن التعليم يزيد عن مئتي ألف ! وليس من هذه المدارس إلا مدرسة ثانوية واحدة غير كاملة ؛ هذا فضلاً عن المنهج الاسباني الذي تدير عليه هذه المدارس والذي يهدف في الدرجة الاولى الى محاربة اللغة العربية والتقاليد الاسلامية . أما المدارس الحكومية المخصصة لأبناء الاسبان فانهم اتعد بالعشرات منها الابتدائي ومنها الثانوي ومنها الفني ، وتستوعب ٨٥٪ من هم في سن التعليم منهم . وقد وضعت العراقل في طريق الذين يتوقفون الى ارتياد معاهد العلم في أوروبا أو في المشرق العربي ؛ حتى إنه لم يخرج طول مدة حكم الاسبان من المراكشيين إلا طييبان واربعة محامين ومهندس واحد ؛ وكان ذلك بطريق التهريب إذا صح التعبير . كذلك وضعت العراقل المتنوعة في طريق المحاولات التي يحاولها المراكشيون في سبيل سد شيء من ثغرة التعليم الواسعة .

الاهمال الصحي

وقد اهتمت وسائل الصحة إهمالاً فظيماً . فليس في المنطقة إلا ثلاثة مستشفيات وفي حالة رديئة وبائسة جداً ؛ فضلاً عن سيطرة الرهبان الاسبان على إدارتها سيطرة تامة . وليس في المنطقة كذلك مستوصفات صالحة ولا وسائل إسعافية ناجعة في مكافحة الأمراض المحلية والأوبئة .

السياسة الاقتصادية

وقد سار الاسبان على سياسة اقتصادية استهدفت السيطرة على جميع صادرات المنطقة ووارداتها سيطرة تامة . فغدت المنطقة سوقاً للمنتوجات الاسبانية دون مزاحم ، وحوربت الصناعات المحلية المراكشية أشد حرب ، ووضعت العراقل في



الافرنسيون يطلقون النار على البراكين

الافرنسيون يقودون المراكبيين الى الاعدام



الامير عبد القادر الجزائري



عبد الحلق الطرسي
زعيم حزب الاصلاح



علال الناصبي

طريق كل نشاط مراكشي زراعي أو صناعي أو تجاري حتى إنه ليس هناك فلاح مراكشي يمارس زراعته بالآلات الحديثة ؛ وحصرت الامتيازات والشركات والناجم والمعادن بالاسبانيين فتحكموا في خيرات المنطقة وثروتها ومعادنها وتجارتها وصناعتها وسائر مرافقها .

المنعمون الاسبان

ولقد بلغ عدد المهاجرين الاسبان في المنطقة نيفاً ومئة ألف وزاحوا المراكشيين في كل ميدان ، ومنحوا متنوع المنح والامتيازات . وقد بلغ ما صار في حوزة المزارعين منهم نحو ثلاثة ملايين دوغم من أجود الأرض وأخصبها ، نرعت من يد العرب بمختلف الوسائل ، وقد أمدوا بالقروض والامتيازات المتنوعة التي استطاعوا بها الاستقرار والاثراء وإنشاء جيد الحقول والبساتين ؛ وهذا فضلاً عما انتزعت السلطات الاسبانية من أراضي المناضلين والأوقاف الواسعة وألحقته بأملاك الدولة والتي تستثمر منه ما تستثمر وتقطع منه ما تشاء للمزارعين الاسبان . ومن الطريف أن المهاجرين الاسبان زاحوا المراكشيين حتى في المهن والمشاغل الحقيرة كمشح الاحذية وكنس الشوارع مثل ما زاحوهم في الوظائف الحقيرة كالسعاة والبوابين والمراسلين الخ .

وتستند اسبانيا في تنفيذ سياستها الباغية وتوطيد سيطرتها الشديدة الى حكم الارهاب المؤيد بثمانين الفاً من الجند موزعين توزيعاً دقيقاً وعشرين الفاً من البوليس المنظم بطريقة الغستابو .

السياسة البربرية

ومع أن إسبانيا لم تصدر ظهيراً مثل ظهير البربر الذي أصدرته فرنسا في المنطقة الجنوبية فانها طبقت السياسة البربرية تطبيقاً دقيقاً ؛ فأسست نيابة في قبائل الريف وأطلقت يدها في تطبيق تلك السياسة . وقد أخذت هذه تتحكم في دنيا القبائل ودينها وتقاوم الدروس الدينية والمدارس القرآنية وتحول دون الاتصال بينها

وبين أبناء المدن ونحارب اللغة العربية وتشجع على إحياء اللهجات البربرية والعودة إلى التقاليد الجاهلية دون الشرع الاسلامي الذي تدين به هذه القبائل وتطارد الذين يتجولون بينهم من أبناء المدن وكثيراً ما تلقبهم في غياهب السجون ، ولا تسمح بالتجول إلا لمنافقي مشايخ الطرق والدين ومشعوذهم الذين يسرون في الانجاء الذي توجههم فيه . أما المبشرون المسيحيون والرهبان فلهم كامل الحرية بالتجول والتبشير بالنصرانية بين هذه القبائل والتهجم على الاسلام ونبئه .

- ١٤ -

استئناف النشاط الوطني

ومع ما كان من أثر كارثة استسلام الأمير عبد الكريم وانتهاء مقاومته فان الريف لم يلبث قليلاً حتى أخذ يستأنف نشاطه الوطني والسياسي والثقافي في سبيل الدعوة الى المتابعة وتحقيق الأمان الوطني والحقوق السياسية وتلافي التقصير من ناحية الثقافة العربية والاسلامية . ولم تكد سنة ١٩٣٦ تأتي حتى أصبحت الحركة الوطنية حركة شعبية عامة .

حركة فرانكو

غير أنها اصطدمت بالحرب الأهلية الاسبانية ، حيث اتخذ فرانكو منطقة الريف قاعدة لحركته . ولما احتج الخليفة والهيئات الوطنية على ذلك اعتقل الطاغية عدداً كبيراً من رجال الحركة كما وضع الباقي تحت المراقبة العسكرية ومنعهم من مغادرة بيوتهم وحرم عليهم أي نوع من أنواع النشاط السياسي أو الثقافي ، وجند كثيراً من أبناء المنطقة بالقوة ليجاربوا في صفوفه ! وقد ذهب منهم أربعون ألف ضحية في هذه الحركة .

ولما تم الفوز لفرانكو تظاهر مدة ما بحسن النية والرغبة في تحقيق بعض المطالب الوطنية، وأوصى مندوبه الجديد بحسن السلوك مع الخليفة، وأغدق الوعود للمراكشيين ، فاعتنم الوطنيون الفرصة وأنشأوا حزب الإصلاح ، وأقبل الناس

على الانتساب إليه حتى غدا قوة عظيمة . وتقدم رجاله بطالبون استناداً الى الوعود ومظاهر النية الحسنة بتغيير الحالة القائمة وإلغاء الحكم المباشر الارهابي وإعلان الحكم الذاتي في المنطقة . و إلى هذه الفترة تعود تلك الدعايات التي انتشرت لصالح عهد فرانكو وتصويره كصديق للعرب والمسلمين راغب في الأخذ بأيديهم وصلاح شؤونهم .

على أن رجال الاستعمار في إسبانيا والمنطقة الذين أخذوا يتخوفون من عواقب هذه الحرية التي تمتع بها المراكشيون في هذه الفترة ومما يمكن أن ينالوه ، ويرون في ذلك خطراً يهدد النفوذ الاسباني استطاعوا إقناع فرانكو بمحطل هذه السياسة ؛ فأمر مندوبه بتغيير أساليبه فاستطاع هذا بالاغراء والرشاوى أن يشبط الحركة ويفرق الصفوف ولكن هذا لم يكن كافياً في نظر أولئك الاستعماريين لأن الخليفة كان قد سار شوطاً غير يسير في طريق الاصلاح الحكومي والثقافي إغتناماً للفرصة السانحة ؛ فسمعوا حتى بُدل المندوب برجل عسكري تمكن من وقف هذا السير بالقوة والصرامة .

انتهاء الحرب العالمية الثانية

ونشبت الحرب العالمية الثانية وظهرت ميول فرانكو نحو المحور وأحب أن يفتنم فرصة انتصارات هتلر وانهايار فرنسا ليحل محلها في الشطر الثاني من مراكش ويستعد لذلك ، ومع أن الظروف لم تواتر فانه أرسل سنة ١٩٤١ مندوباً جديداً بتعليمات شديدة كان من نتائجها الغاء الاحزاب الوطنية ، ومصادرة الحريات ، وتشديد مظاهر الارهاب البوليسي ، فاكتسحت البلاد موجة من الارهاب ، وأخذ الموظفون الاسبان واستعماريوهم يستغلون هذا الجو ابشع إستغلال بالنهب والسلب والرشاوى والمصادرات والمطاردة ، فكانت محنة قاسية انصبت على رؤوس السكان الذين كانوا يظنون أنهم أوشكوا أن يحصلوا على بعض حقوقهم ومطالبهم .

مراسيم التحكم والارهاب الجديدة

ولقد انتهج المندوب الجديد سياسة قائمة على التفريق والتنكيل والتوهين ، وسار في هذه السياسة خطوة عملية جديدة حيث طلب من الخليفة المصادقة على أربعة

قوانين يرفع أحدها ضريبة الأثرث على المراكشين إلى ثلث التركة ، ويجول ثانيها إدارة الحماية حق التصرف المباشر في الاطيان والعقارات ويرفع ضريبة الاملاك الى ثلث الدخل ، ويجدد ثالثها الساحة المبنية لسكن الاسرة المراكشية ويفرض على التي تشغل مساحة أوسع من المحدد أن تسكن معها غيرها ، ويقيد رابعها رصيد التاجر المراكشي بما لا يزيد عن عشرة الاف بسيطة أي نحو مئتي جنيه ويمنعه من التعامل بأكثر من ذلك في وقت واحد . وثار الخليفة على هذه القوانين قائلاً إنها جنون إداري وطغيان لا يعرف له مثيل في تاريخ البشر وأبى التوقيع عليها . ولكن المندوب لم يبال وعبأ جيشه وحاصر مدن المنطقة وقراها وأخذ ينفذ منهجه الجديد بالقوة والطغيان ، وعمد إلى الاراضي الزراعية فنزع ملكية أحسنها وضمه إلى ممتلكات الدولة الاسبانية واستقدم عدداً كبيراً من المهاجرين الاسبان ووزع عليهم هذه الاراضي بعد أن أمدهم بقروض من الخزانة المراكشية . وبعد ذلك تصدى للتعليم فمسخ ما بقى له من صورة باهتة وأخضع التعليم الحر على ضعفه الى رقابة يرأسها أحد قواد جيشه كما أخذ يشجع المؤسسات الكنيسية ويعمل على نشرها في جميع أنحاء المنطقة ، وأعقب ذلك بسياسة بربرية رسمية حيث قسم المنطقة الى مقاطعات عربية وأخرى بربرية وأخضع الاخيرة للعرف الجاهلي ومنع سكانها من تعلم اللغة العربية !

ولقد طارد هذا الطاغية مدة حكمه رجال الوطنية وصادر صحفهم وأقل أنديتهم وحرّم عليهم الاجتماعات وفرض رقابة صارمة على البريد والمطبوعات ، ومنع السفر الى الخارج والتنقل في الداخل . وظل هذا الكابوس الثقيل جاثماً الى سنة ١٩٤٥ حيث بدل المندوب بأخر نتيجة للشكاوى والصراخ ولا سيما صراخ بعض رجال الحركة الوطنية الذين استطاعوا الافلات الى مصر ورفع أصواتهم الى العالم والى هيئة الامم ...

المظاهرات والقمع

وقد كان يظن أن اسبانيا ستقلع عن سياسة الطغيان بعد انهيار المحور، ولكن الحوادث خيبت هذا الظن حيث سار المندوب الجديد على منهج سلفه بل وزاد

ليه ، حيث سير في سياسة توسيع نطاق الهجرة وتزع ملكية الاراضي . وطرق الخليفة باب فرانكو فلم يفز بطائل ، وأخذ المنهج الجديد طريقه الى التنفيذ، فأخذ احرار المنطقة الذين هم في الخارج يثيرون الضجة في البلاد العربية واروقة الجامعة واوساط العالم الغربي معاً فلجأت السلطات الى خطة الانتقام من الذين هم في منطقتها من رجال الحركة فأعلنت حالة الطوارئ والحصار وأخذت تطاردهم وتتهماً لضربهم الضربة القاضية . وفي ٢٨ آب من سنة ١٩٤٦ نظم حزب الاصلاح مظاهرات سلمية في مدن المنطقة بسبيل الاصلاحات العاجلة ، فكانت فرصة للتكبل اغتنتمتها السلطات وأخذت تشد بالقمع والقسوة فكانت اصطدامات عنيفة قتل وجرح فيها الكثيرون ، واحتج الخليفة وانذر بوخيم العاقبة . ولكن السلطات لم تعبأ واستمرت في خطتها الباغية واخذت تدبر المؤامرات ضد الخليفة وزعماء الحركة .

وما يزال الموقف يسير في هذا السبيل المظلم الذي تسجل اسبانية الفرائكية به من العار ما سجله اصحاب العمود السابقة وما سجلته فرنسا ، وما هو موغل في الظلم والبغي ايغالاً لا يكاد يصدق صدوره من اوحش الامم واقساها قلباً وتكشف زيف الدعاية المضلة عن فرانكو وعهده وحسن نياته نحو العرب .

قوة الحركة الوطنية وسورها

نير ان هذا كله لم يشبط عزم المراكشين حكومة وشعباً عن المقاومة وقد أصبحت الحركة الوطنية حركة شاملة يساهم فيها الجميع حتى الذين سبق لهم ان تعاونوا مع السلطات بحسن نية . وهي حركة منظمة تنظيمياً دقيقاً هدفها استقلال البلاد ووحدتها والاتحاق بقافلة الحركة العربية العامة التي أخذت تنسم بها بما ينشئه احرار الريف من الصلات بالحركة العربية المشرقية ورجلها ومنشأتها. ولقد اتقدت الشعلة فلن تنطفئ باذن الله حتى تدور على الباغي الدوائر .

وما يجدر ذكره أن ملك مراكش وخليفته في منطقتي الاحتلال متضامنان مع الحركة الوطنية التي تهدف الى ذلك الهدف القومي ؛ وهذا مما يجعل الامل اقوى في الفوز .

خاتمة

- ١ -

صلة بيني فرنسا بالحركة العربية

وسبق البغي الافرنسي على المغرب العربي ليقظة الروح القومية ونشاط الحركة العربية الحديثة في المشرق العربي ، وخاصة في البلاد التي ظلت مرتبطة بالدولة العثمانية الى آخر الحرب العالمية الاولى قد يسوغ القول انه لم يكن مناوأة في أصله للحركة العربية التي سجلت بعثها العملي الجديد عقب اعلان الدستور العثماني ، وخاصة في بلاد الشام والعراق . غير ان المغرب العربي هو الساحة الطبيعية التي تكمل ساحة الحركة العربية على اعتبار امتداد الوطن العربي الكبير اليها على ما قلناه في مطلع الجزء الاول ، وأن من الطبيعي ان يعد كل عائق في سبيل تواصل هذه الساحة مناوأة لتلك الحركة من حيث المبدأ .

ولقد حرصت فرنسا اشد الحرص على بقاء المغرب معزولاً عن تيار هذه الحركة وضربت بينه وبين الشرق ستاراً حديدياً كثيفاً منعت النفوذ اليه او منه ، وخاصة بعد اليقظة القومية في الشرق وما كان بسبيلها من حركات وطنية ونضالية . ولم يقتصر هذا المنع على حركة دخول المغاربة الى الشرق ودخول المشاركة الى الغرب بل شمل كذلك مظاهر الحركة الفكرية والسياسية في الشرق من صحف وكتب ونشرات وإرتياد معاهد العلم الديني والمدني ، بل اقدم شمل الحج حيث لم يكن يسمح للمغاربة احياناً بأدائه ، وحينما كان يسمح لبعضهم كان محتاط لأن يكون المسموح لهم من الانصار والموالين وتحت اشراف موظفين عرب مخلصين للسلطات الافرنسية فضلاً عن تقييد السماح بقيود مالية وغير مالية تجعله ضيق النطاق جداً . فكانت في ذلك مناوأة من حيث الواقع كذلك لتلك الحركة كما هو واضح ، هذا فضلاً عن ما في ما انتهجه فرنسا من نهج استعماري في التجهيل والافقار والتنكيل والارهاب ومحاربة الثقافة العربية ومحاولة هدم الكيان القومي وتبديد وجه المغرب العربي ولسانه وكيانه من مناوأة للعروبة ومقوماتها على كل حال .

موقف فرنسا من قضايا العرب وصلته بالمغرب

ولقد كانت فرنسا في ما سارت عليه من خطط في سوريا ولبنان تفكر دائماً في المغرب العربي ودرجة تأثير خططها فيه سلباً وإيجاباً. وقد تكررت الإشارة إلى هذا على لسان رجال فرنسا قبل الحرب العالمية الأخيرة وفي اثنائها وبعد انتهائها وخاصة في ظروف الازمات التي كانت تعصف في سوريا ولبنان، كما كانت تنظر بنظر التجهم والغيظ الى ما اخذ يبدو من الحركات التجاوبية في بلاد المشرق العربي نحو المغرب العربي، لما كان يتسرب من أخبار البغي والقمع والنضال في اقطار المغرب ثم لما كان من نشاط أحرار هذه الاقطار وحركاتهم ودعوتهم على منابر الشرق العربي وفي أوساطه ومجالاته بعد الحرب؛ حتى لقد وصل التجهم الافرنسي هذا الى ان جعل الحكومات الافرنسية والصحافة الافرنسية تقف من القضايا العربية موقف العداء والتعطيل، وكان آخر موقف لها في هذا الباب موقفها من الحركة اليهودية، ثم موقفها من قضية ليبيا ومناصرتها ابطاليه وحرصها على عودة سلطانها عليها، وطمعها في قسمها الجنوبي فزان حرصاً على ابعاد عدوى الاستقلال والحرية عن المغرب، بما يعد مظهراً طبيعياً لتيار الحركة العربية الحديثه وشمولها العرب على اختلاف اقطارهم، وبما يدخل موقف فرنسا منه في باب مناوأة الحركة العربية العامة بطبيعة الحال.

بطولة وصبر رجال الوطنية المغاربة

وقصص تمكن احرار المغرب من اختراق ذلك الستار الحديدي ونشاطهم في الاوساط المشرقية والعالية تنطوي في الحق على بطولة رائعة؛ حيث كان منهم من يسير ماشياً عبر الصحراء المهلكة مئات الاميال معرضاً نفسه للهلاك بالجوع والمرض والتعب والافتراس، وقد كان بعضهم استطاع في اثناء احتلال تونس من قبل المحور ان ينتقل لأوروبا فكانت له الفرصة الذهبية للبقاء حراً خارج هذا الستار، ولم يكونوا ذوي ثروة ولم يتمكنوا من جاب مال يساعدهم، ولم يف المشرق العربي بواجبه في ذلك، فصبروا صبر الابطال وفنوا في حركاتهم ونشاطهم القومي اعجب

الفناء وأروعه . وما كان من حركة دعائية نشيطة لفتت ابناء المشرق اكثر من ذي قبل الى المغرب وقضاياه بعد الحرب الاخيرة هو أثر مبارك من آثار حركة هذا العدد القليل الشجاع الصابر الزاهد الذي استطاع اختراق ذاك الستار الكثيف ويضاف الى هذا ما بدا من ثنايا هذه الحركة من فهم تام للحركة العربية الحديثة واندماج فيها ، وانتشار الشعور والوعي فيها بين المشتغلين بالحركة النضالية والوطنية في المغرب العربي سواء منهم من اخترق الستار او بقي في مبدات النضال والكفاح بما يدل عليه كثرة التردد والتجارب في صدد هذه الحركة من مختلف الانحاء المغربية ورجالات المغرب عامة ، بحيث يصح ان يقال ان المغرب العربي هو داخل فعلا في نطاق هذه الحركة وأهدافها ، وان احراره ومناضليه ورجالاته ينشطون في هذا النطاق .

الفناء الحركة العربية المغربية والمشرقية في ساحة واحدة

وهكذا يلتقي القائلون بالحركة القومية العربية في المشرق معهم في ساحة العمل القومي المشترك ، وتكمل حدود الساحة التي كانت مقسومة بالستار الحديدي الكثيف، ونصبح الحركة العربية منتظمة نظريا وعمليا جميع ساحة الوطن العربي الكبير الممتدة من الخليج العربي وبحر الهند شرقاً الى مضيق جبل طارق والبحر الاطلانتي غرباً .

ومن الجدير بالذكر كمظهر من مظاهر ذلك ما بدا من رجال الحركة القومية المغربية من اهتمام لحركة الجامعة العربية ورغبة ملحّة باندماج المغرب العربي فيها منذ سير المشاورات الاولى بسبيلها حيث كانت البرقيات والعرائض تتوالى محتجة عاتبة ومعلنة للرغبة في الاندماج في هذه الحركة اسوة بفلسطين ، بل لقد بدا ذلك الاهتمام وهذه الرغبة من رؤساء المغرب الأعلين فضلا عن كبار الزعماء ومختلف الهيئات ، ثم ما أخذ يتوالى على الجامعة بعد قيامها من مراجعات واقتراحات من هيئات المغرب ورجال حركتها بسبيل قضايهم وتقارير تعويلهم عليها واعتبارها جامعتهم ايضاً . ولقد تجاوزت الجامعة معهم منذ البدء في ذلك نتيجة للشعور العربي الذي ينتظم رجال الجامعة وشعوب دولها بوحدة الحركة

العربية وشمولها ، فاحتوى ميثاقها تسويغ اشتراك ممثلين للبلاد العربية الاخرى التي لم يكن في امكانها التوقيع على الميثاق والاشتراك في الجامعة كدول ، وكانت المعنى به في هذا التسويغ المغرب العربي في الدرجة الأولى كما احتوى كذلك ملحقاً خاصاً كان المغرب العربي هو المعنى به ايضا في الدرجة الأولى هذا نصه :

« نظراً لأن الدول المشتركة في الجامعة ستباشر في مجلسها وفي لجنتها شؤون يعود خيرها وأثرها على العالم العربي كله . ولأن أماني البلاد العربية غير المشتركة في المجلس ينبغي له ان يراعها وان يعمل على تحقيقها فإن الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية توصي مجلس الجامعة عند النظر في اشراك تلك البلاد في اللجان المشار اليها في الميثاق بأن يذهب في التعاون معها الى أبعد مدى مستطاع وفيما عدا ذلك بالألا يدخر جهداً لتعرف حاجاتها وتفهم آمانيها وآمالها وان يعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيؤه الوسائل السياسية من أسباب . »

ثم أخذ هذا التجاوب يشتد حتى لم تكد دورة من دورات مجلس الجامعة تخلو من بحث في القضايا المغربية وقرار قرارات ما في صدها وإرسال المذكرات المتنوعة بسبيلها والوقوف موقف التأييد والاحتجاج والاستنكار والوساطة حيث اقتضى ذلك حتى غدت هذه القضايا من صميم أعمال الجامعة وامانتها العامة .

- ٢ -

المؤتمر المغربي في القاهرة ومصادره

ولقد طرأ عاملان مهمان قوياً حيوية ونشاط احرار المغرب ورجال حركته النضالية والوطنية . أولهما المؤتمر المغربي الذي عقد في القاهرة في مطلع عام ١٩٤٧ ، فقد كان اجتمع في هذه العاصمة العربية الكبرى عدد غير يسير من احرار الأقطار المغربية الثلاثة ، ينتسبون الى مختلف الهيئات والاحزاب الوطنية فيها ، وكان رجال كل قطر يجاهدون وينشطون في سبيل قطرهم دون تضامن وثيق كشأن اخوانهم في المشرق مع اشتراكهم في بلاء واحد وعدو واحد . فرأوا انه قد آن لهم ان يشكلوا جبهة واحدة للعمل التحريري داخل البلاد وخارجها ، ففقدوا مؤتمراً

المذكور الذي ضم مندوبي مختلف الاحزاب والهيئات الوطنية في الاقطار المغربية الثلاثة ، ورمزت حفلة افتتاحه وختامه الى ما قلناه من اندماج الحركة الوطنية التحريرية المغربية بالحركة الشرقية وانهار السد القائم بين المغرب والمشرق حيث دعي فريق كبير من رجال الاقطار العربية الشرقية لهاتين الحفلتين وخطب بعضهم فيها منوهاً بالحركة المغربية التحريرية العربية والثقافتها في ساحة واحدة بالحركة الشرقية التحريرية ، وبالتواثق الذي يجب ان يسود رجال هذه الحركة في المشرق والمغرب لما تمثلانه من وحدة اللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والروح والدين والمصالح المتنوعة والاتصال الارضي الذي لا يفصله فاصل طبيعي او عنصري على ما ذكرناه في مطلع الكتاب .

وكان من نتائج هذا المؤتمر ان تقرّر (اولا) ميثاق سياسي قومي واحد يقوم على الاسس التالية :

١ - بطلان معاهدي الحماية المفروضتين على تونس ومراكش وعدم الاعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر

٢ - مطالبة الحكومات المغربية والهيئات الوطنية باعلان استقلال البلاد .

٣ - المطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن بلاد المغرب جميعها .

٤ - رفض الانضمام الى الاتحاد الافرنسي في اي شكل من أشكاله .

٥ - اعتبار ايام احتلال الجزائر (٥ حزيران) وفرض الحماية على تونس (١٢

مايس) وفرض الحماية على مراكش (٣٠ مارس) ايام حداد في اقطار المغرب .

٦ - تعزيز الكفاح بالداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والجلاء .

وثانياً ميثاق تنسيقي واحد يقوم على الاسس التالية :

١ - ضرورة الاتفاق بين الاحزاب الوطنية داخل كل قطر اما باندماجها في

حزب واحد او بتكوين جبهة وطنية منها .

٢ - إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الاقطار الثلاثة بحيث تهدف الى

الاتفاق على غاية واحدة هي الاستقلال التام والجلاء وتكوين لجنة دائمة من رجال

الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل للكفاح المشترك والعمل على

توحيد المنظمات العمالية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في الاقطار الثلاثة وتوجيهها

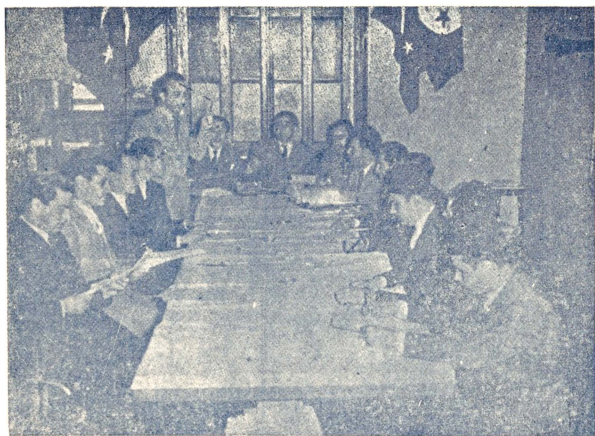
توجيهاً قومياً والوقوف جبهة واحدة عند حدوث أزمة في أي قطر منها .



شباب الحزب الحر الدستوري يحملون اعلام دول الجامعة العربية في عرض عام



الامير عبد الكريم الخطابي بعد فكاكه



المؤتمر المغربي في القاهرة

و(ثالثاً) الطلب من الجامعة التي تمثل دور المشرق العربي :

١ - إعلان بطلان معاهدي الحماية المفروضة على تونس ومراكش وعدم شرعية احتلال الجزائر وتقرير استقلال هذه الاقطار وقبول ممثلين عنها في مجلس الجامعة .

٢ - عرض القضية المغربية على الهيئات الدولية واستعمال كل ما لدى الجامعة من وسائل لمساعدة اقطار المغرب على تحقيق ميثاقها .

٣ - ارسال لجنة تحقيق الى اقطار المغرب .

٤ - تعيين ممثلين للدول العربية المشرقية في اقطار المغرب العربي .

٥ - العمل على نشر الثقافة العربية في بلاد المغرب وحل مشكلة الطلاب المغاربة الذين يلجأون الى المشرق بقصد اتمام دراستهم وتذليل العقبات التي تقوم بطريقهم .
(رابعاً) تكوين مكتب واحد للحركة التحريرية المغربية يضم ممثلي مختلف الأحزاب في اقطار المغرب الثلاثة يطلق عليه اسم « المكتب المغربي العربي » ويصدر عنه كل نشاط وتوجيه واتصال وشكوى ومراجعات مما يتصل بالحركة الوطنية النضالية في الاقطار المغربية .

وهكذا استطاع رجال الحركة القومية المغربية ان يقوموا بعمل لم يقم به اخوانهم المشارقة ولو نظرياً حتى الذين كانوا امام عدو واحد كفلسطين والاردن ومصر والعراق .

وقد ردد رجال الحركة الوطنية والاحزاب في داخل البلاد المغربية صدى هذه القرارات وأيدوها وأظهروا استعدادهم للتضامن فيها . ومنذئذ اشتدت روح النضال والحركة في مختلف الساحات بحيث صارت حركة التحرير المغربية قوية ملموسة الآثار في الأوساط العربية والعالمية على السواء .

زعامة الامير عبد الكريم

أما العامل الثاني فكان تحور الامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف الذي كان في أسر فرنسا على ما اشرنا اليه في مناسبة سابقة . فقد توجه أحرار المغاربة اليه ليتولى زعامة الجبهة النضالية الموحدة وقبل الرجاء فأصبح للحركة التحريرية المغربية جبهة واحدة وزعامة واحدة ، واشتدت تلك الحركة قوة واثراً .

المصاعب والا مال

ومع اننا لا نجهل عمق الروح الاستعمارية الباغية التي تسيطر على رجال فرنسا وساستها على اختلاف الوانهم ، وما سوف تلقاه الحركة التحريرية المغربية من المصاعب في سبيل تحقيق اهدافها واهداف الحركة العربية التي غدت مندوجة في فافلتها ، سواء في احكام الستار الحديدي المضروب بين المغرب والمشرق او في الاسراع في فرنسة المغرب ثقافياً وسياسياً حتى اصبحت نغمة الاتحاد الافرنسي المغربي تشتد ارتفاعاً وقوة وتخطو خطوة عملية بالنسبة للجزائر التي ادخلت في الحلف الاطلانطي كجزء اتحادي من فرنسا ، أو في التوسع في اساليب الذس والتفرقة والقمع والتنكيل ومكايدة عرب المشرق في قضاياهم المعقدة . ومع أننا لسنا نجهل الى هذا ضعف البنية العربية عامة في المشرق والمغرب نتيجة لكابوس الجهل والتغلب والاستعمار الذي ظل جائئاً على صدرها امداً طويلاً وما لهذا الضعف من آثار البية - سياسية وخلقية ووطنية واقتصادية واجتماعية وشخصية وعامة في كيان العرب وحركتهم ، ولسنا نجهل أخيراً ما يحتاج اليه العمل التحريري المغربي من وسائل تنظيمية ليس من السهل تداركها ، فان كل هذا لا يجعلنا نفقد الامل في نجاح الحركة التحريرية المغربية عامة ، ويجعلنا نعتقد انه ليس في وسع فرنسا مها بطشت وغدرت واحنالت ودست ووضعت العراقيل وسدت المنافذ ان تقضي عليها وتطفئ شعلتها المتقدة ، فهناك شعب ابي قوي المراس متمسك بعروبه وتقاليده اشد الاستمسك يزيد عدده على العشرين مليوناً ، ومن ورائهم اخوان لهم يزيدون على الخمسين مليوناً لابد من ان يتضامنوا معهم عاجلاً أو آجلاً في سبيل تحررهم وتحقيق اهداف الحركة العربية العامة في الجناح الغربي ، وليست السنين القليلة التي نرجو ان يتحقق هذا فيها بالشئ المهم في اعمار الامم وحركاتها النضالية القومية ، ولن يبقى القوى قوياً ، ولن يبقى الضعيف ضعيفاً . ولا تحسبن الله غافلاً عما يفعل الظالمون وسيعلمون اي نقلب ينقلبون .

وفعت بعض أخطأ، مطبعة صحفنا بعضها في مايلي
ونركنا بعضها الى فطنة افارى،



الصواب	الخطأ	السطر	الصحيفة
وتقولها	ومحويلها	٧	٤٠
قطعية	قطيعة	٢١	٦٦
البنية	النية	٢٥	٦٩
الوهن	الرهن	٧	٧٨
الافرنسية أمر أن تسلم	الافرنسية ان تسلم	٩	٨٣
تجربجية	تجريبية	٩	٩٥
يحنحوا	ينجموا	١	٩٦
وبالتضامن مع لبنان الذي	وبالتضامن الذي	٢	١٠٨
هدوها	هددها	٦	١٠٩
ينتقل	ينقل	٦	١٣٥
فوراً	قراراً	١٣	١٤٢
وسط	وسطر	١٥	١٤٩
فيك يوم	فيك اليوم يوم	٧	١٥٧
الاهلون	الاهاون	٥	١٧٥
رسالة	سارلة	١	١٨٠
قضاة	قضاء	١٥	١٨٦
ضخمة	متخمة	٧	١٨٩
المصالي	الماصلى	١٤	٢٠١
جمهرة	جهرة	٢	٢٣٠

كتب المؤلف الاخرى المطبوعة

دروس في فن التربية	مترجم عن الافرنية
مختصر تاريخ العرب والاسلام	جزآن
دروس التاريخ العربي	
دروس التاريخ المتوسط والحديث	
دروس التاريخ القديم	
موجز تاريخ أوروبا في الشرق العربي	
تركيا الحديثة	
عصر النبي وبيئته قبل البعثة	مقتبس من القرآن
سيرة الرسول	جزآن
القرآن واليهود	
حول الحركة العربية الحديثة	الجزء الأول

كتب اخرى تحت الطبع والاعداد

هدى القرآن ودستوره في شؤون الحياة
القرآن المجيد تنزيله وأسلوبه ومناهج تفسيره وجمعه
الاجزاء الثلاثة والرابعة من كتاب حول الحركة العربية الحديثة
القرآن والمرأة
القرآن والجهاد
التفسير الحديث . وهو تفسير كامل للقرآن

طبعة الأولى - بيروت - طبعون ٣٩ - ١٤